

هنا والآن

رسائل: ٢٠٠٨-٢٠١١

بول أوستر
جي إم كوتزي

ترجمة أحمد شافعي

هنا والآن
رسائل

الطبعة الأولي : ٢٠١٦
رقم الإيداع : ٢٣٨٨٣ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : ٦-٠٠٠-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
الغـــــلاف : حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة .
تليفـــون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني : www.kotobkhan.com



هنا والآن

رسائل

٢٠٠٨ – ٢٠١١

بول أوستر – جيه إم كوتزي

ترجمة أحمد شافعي



فهرسه أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

جيه إم كوتزي، بول أوستر

هنا والآن : تأليف بول أوستر – جيه إم كوتزي، ترجمة أحمد شافعي . –

ط١ . – القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

٣٠٤ ص ، ٢٠ سم

تدمك : ٦–٠٠٠–٨٠٣–٩٧٧–٩٧٨

١ ـ رسائل

أـ أحمد شافعي (مترجم)

بـ العنوان

رقم الإيداع : ٢٣٨٨٣ الطبعة الأولى ٢٠١٦

١٤ و١٥ يوليو ٢٠٠٨

عزيزي بـــول

أفكر منذ فترة في الصداقات، كيف تنشأ، وكيف تدوم ـ أو يدوم بعضها ـ لفترات طوال، تتجاوز حتى علاقات الارتباط الغرامي التي أحيانا ما نفترض (مخطئين) أن الصداقات نسخ باهتة منها. لقد كنت أوشك أن أكتب لك رسالة عن كل هذا، تبدأ بملاحظة أنه من المدهش أن ما كُتب في الصداقة قليل، في ضوء أهميتها في الحياة الاجتماعية، ومدى ما تعنيه لنا، لا سيَّما في الطفولة.

لولا أني سألت نفسي إن كان ذلك صحيحا. فمضيت إلى المكتبة لأتحقَّق بسرعة من الأمر ـ قبل أن أجلس للكتابة إليك. ويا إلهي، كم كنت مخطئا. لقد وجدت سجلَّ المكتبة يحتوي كتبا بأكملها في الموضوع، عشرات الكتب، والكثير منها حديث. ولكنني حينما مضيت خطوة أبعد، فألقيت نظرة حقيقية على هذه الكتب، استرددت بعضا من احترامي لنفسي. لقد كنت محقًّا، أو شبه محقٍّ، فما تقوله هذه الكتب في الصداقة لا يكاد يثير الاهتمام، أو هذا حال أغلبها. إذ تبقى الصداقة لغزا في ما يبدو: صحيح أننا نعرف أن الصداقة مهمة، لكن

لماذا يصبح الناس أصدقاء ويبقون كذلك؟ هذا ما لا نملك إزاءه إلا التخمين.

(ما الذي أعنيه حينما أقول إن المكتوب في هذا الموضوع لا يكاد يثير الاهتمام؟ قارن الصداقة بالحب. هناك مئات الأشياء المثيرة للاهتمام التي يمكن أن تقال في الحب. على سبيل المثال: يقع الرجال في غرام النساء اللاتي يذكِّرنهم بأمهاتهم، أو بدلا من ذلك، يذكِّرنهم ولا يذكِّرنهم بأمهاتهم، اللاتي هن أمهات لهم ولسن أمهات لهم في الوقت نفسه. صحيح؟ ربما، وربما لا. مثير للاهتمام؟ قطعا. والآن تعال إلى الصداقة. من الذين يتخذهم الرجال أصدقاء؟ رجال آخرون لهم تقريبا مثل أعمارهم، ومثل اهتماماتهم، بالكتب مثلا. صحيح؟ ربما. مثير للاهتمام؟ بالقطع لا.)

دعني أسرد لك بعض ملاحظات عن الصداقة، جمعتها من زياراتي للمكتبة، وأراها مثيرة للاهتمام.

واحد. لا يستطيع أحدٌ أن يصادق شيئا جامدا، في ما يرى أرسطو (الأخلاق، الفصل الثامن). بالطبع لا! من قال من قبل إن هذا ممكن؟ لكنه يبقى مثيرا للاهتمام: فبغتة يرى المرء مصدر إلهام الفلسفة اللغوية الحديثة. إذ كان أرسطو قبل ألفين وأربعمائة سنة يبيِّن أن ما يبدو من قبيل المسلَّمات الفلسفية قد لا يزيد عن بعض قواعد النحو. ففي جملة "أنا صديق س" يقول أرسطو إن س لا بد أن يكون اسما لكائن حي.

اثنان. قد يكون للمرء أصدقاء دون أن يرغب في رؤيتهم، كما يقول تشارلز لامب. صحيح، ومثير للاهتمام أيضا، وهذا وجه آخر من أوجه اختلاف مشاعر الصداقة عن الارتباط الإيروتيكي.

ثلاثة. الأصدقاء، الذكور منهم في الغرب على الأقل، لا يتكلمون عن إحساسهم تجاه بعضهم بعضا. قارن هذا بثرثرة المحبين. وحتى هذا، ليس مثيرا للغاية. لكن عندما يموت الصديق، ينصبّ الحزن: "أواه، فات الأوان" (مونتان عن لابواتييه، وميلتُن عن إدوارد كينج). سؤال: هل الحب ثرثار لأن الرغبة بطبيعتها تنطوي على مشاعر متضاربة ـ شكسبير، السونيتات ـ بينما الصداقة قليلة الكلام لأنها مباشرة خالية من المشاعر المتضاربة؟

وأخيرا، ملاحظة لكرستوفر تيتجنز من "نهاية المسيرة" لفورد مادوكس فورد: وهي أن المرء يمضي بالمرأة إلى سريره ليتسنّى له أن يتكلم معها. والمغزى: أن تحويل امرأة إلى عشيقة ليس إلا خطوة أولى، الخطوة الثانية، أي تحويلها إلى صديقة، هي المهمة، ولكن مصادقتك امرأة لم تَنَمْ معها مسألة مستحيلة، إذ يبقى الكثير عالقا في الأجواء.

لو صحَّ بالفعل أنه من الصعب قول أي شيء مثير للاهتمام في الصداقة، فبالإمكان المضي إلى نظرة أبعد: فنقول إن باطن الصداقة يتفق وظاهرها ـ خلافا للحب أو السياسة اللذين لا يتفق باطنهما مطلقا مع ظاهرهما، أي أن الصداقة شفافة.

أكثر التأملات إثارة للاهتمام في موضوع الصداقة هو الذي يأتينا من العالم القديم. لماذا؟ لأن ناس العصور القديمة كانوا لا يرون أن الموقف الفلسفي في صلبه هو موقف تشكك، ومن ثم ما كانوا يعتبرون من جملة البديهيات أن باطن الصداقة لا بد أن يكون شيئا آخر غير ظاهرها، أو يخلصون - في المقابل - إلى أن الصداقة هي ظاهرها ومن ثم فلا يمكن أن تصلح موضوعا للفلسفة.

أطيب التمنيات

جـــون

بروكلن

٢٩ يوليو ٢٠٠٨

عزيزي جـــون

هذا سؤال أطلت التفكير فيه على مدار السنين. قد لا أقول إنني انتهيت في الصداقة إلى موقف متماسك، ولكنني ردًّا على رسالتك (التي أثارت بداخلي زوبعة من الأفكار والذكريات) أظن أن اللحظة المناسبة لذلك قد حانت.

بادئ ذي بدء، سأحصر نفسي في حدود الصداقات الذكورية، أعني صداقات الرجال، صداقات الأولاد.

١) نعم، هناك صداقات شفافة وخالية من المشاعر المتضاربة (بتعبيرك)، ولكنها ليست كثيرة، في ضوء تجربتي. ولعل لهذا علاقة بمصطلح آخر من مصطلحاتك: قلة الكلام. إنك تصيب إذ تقول إن الصداقات الذكورية)لا سيما في الغرب) تنزع إلى قلة الكلام فلا يتكلم الصديق مع صديقه عمّا "يشعران به تجاه أحدهما الآخر"، وسأمضي بهذا خطوة أبعد فأقول إن الرجال لا يميلون إلى الكلام عن مشاعرهم، ولا أزيد.

ولو أنك لا تعرف كيف هو شعور صديقك، أو ما شعوره، أو سبب شعوره، فكيف بصدق تقول إنه صديقك؟ ومع ذلك تدوم الصداقات، ولعقود كثيرة في الغالب، في هذه المنطقة الغامضة من عدم المعرفة.

ثلاث من رواياتي على الأقل تتناول الصداقة بين الرجال بصورة مباشرة، فهي بمعنى من المعاني قصصٌ عن الصداقات الذكورية: **الغرفة الموصدة**، **واللوياثان**، **وليلة التنبؤ**، والأرض المشاع في الحالات الثلاثة هي مجاهل عدم المعرفة الممتدة بين الأصدقاء، وهي المسارح التي تقوم عليها الدراما.

مثال من الحياة. على مدار الأعوام الخمسة والعشرين الماضية، كان واحد من أقرب أصدقائي، ولعله الأقرب بين أصدقائي الرجال في كبري، هو واحد من أقلّ من عرفتهم ثرثرة. هو أكبر مني (بإحدى عشَرة سنة): ولكن بيننا أشياء مشتركة كثيرة، فكلانا كاتب، وكلانا يهتم اهتمام الحمقى بالرياضة، وكلانا متزوج لفترات طويلة بامرأة متميزة، والأهم من كل ذلك والأعصى على التعريف، هو إحساس معيَّن وغائم لدينا بما ينبغي أن تكون عليه الحياة، هو نوع من أخلاقيات الرجولة. ومع ذلك، ومع أنني أحرص على هذا الشخص أشدّ الحرص، حتى لأخلع له قميصي في الشدائد، فحواراتنا بلا استثناء مملة عديمة الطعم، تافهة أشد ما تكون التفاهة. فلا نتواصل إلا بتبادل الشخرات القصيرة ناكصين إلى نوع من لغة الاختزال يستحيل على

دخيل أن يتبيّنها. أما عن عملنا (وهو القوة التي تمضي بها حياتي وحياته) فلا نكاد نذكره.

ولكي أبيِّن لك إلى أي حدٍّ يخفي هذا الشخص أوراقه، أحكي لك نادرة صغيرة. قبل عدد من السنين، كانت لصديقي هذا رواية جديدة في مرحلة بروفات النشر. وقلت له إنني أرغب بشدة في قراءتها (ونحن أحيانا نتبادل قراءة المخطوطات، وأحيانا ننتظر إلى مرحلة بروفات النشر)، فقال إنني يفترض أن أتلقّى نسخة في البريد قريبا. ووصلت البروفة فلمّا فتحت الطرد وتصفّحت الكتاب اكتشفت أن الرواية مهداة إليّ. وطبعا تأثّرت، تأثّرت بشدة، ولكنّ مغزى الحكاية أن أبيِّن لك أن صديقي لم يكن قد قال لي كلمة عن الأمر. ولا حتى إشارة بسيطة، ولا أقلّ غمزة دالة، لا شيء بالمرة.

ما الذي أحاول إخبارك به؟ أنني أعرف هذا الرجل ولا أعرفه. إنه صديقي، بل أعزّ أصدقائي، برغم أنني لا أعرفه. إذا ذهب غدا فسطا على بنك، ستكون صدمة لي. ومن ناحية أخرى، إذا عرفت أنه يخون زوجته، أو أن لديه عشيقة صغيرة يخفيها في شقة في مكان ما، سأشعر بالإحباط، ولكنها لن تكون صدمة لي. كل شيء وارد، وللرجال أسرارهم التي يكتمونها، حتى على أعزِّ أصدقائهم. في حالة خيانة صديقي الزوجية، سأشعر بالإحباط (لما اقترفه في حق زوجته التي أشعر تجاهها بمحبة غامرة)، ولكنني أيضا سوف أتأذّى (لأنه لم يأتمنّي، بما يعني أن صداقتنا لم تكن بالحميمية التي كنت أفترضها فيها).

(موجة مُخيِّة مباغتة. أفضل الصداقات وأبقاها ما يقوم على الإعجاب. هذه هي صخرة الشعور التي تربط اثنين على المدى البعيد. أن يعجبك شخص لما يفعله، لما هو إياه، لكيفية اجتيازه سبيله في الحياة. إعجابك به يعلي من شأنه في نظرك، يضفي عليه نبلا، وسمواً إلى مقام تحسب أنه أعلى من مقامك أنت. ويعجب بك هذا الشخص أيضا، فيعليك هذا عنده، ويضفي عليك نبلا، وسمواً إلى مقام هو عنده يفوق مقام نفسه، ثم إذا بكما في موقف المساواة التامة. وإذا بكل منكما يعطي أكثر مما يأخذ، وفي ظل هذا التبادل، تزدهر الصداقة. يقول [الكاتب الفرنسي جوزيف] جوبير في الـ "دفاتر" (١٨٠٩): "على المرء أن لا ينمّي أصدقاءه وحسب، بل والصداقات في نفسه. لا بد من صيانتها، ورعايتها، وريِّها". وجوبير أيضا يقول: "إننا دائما ما نفقد صداقة من نفقد احترامنا لهم").

٢) الأولاد. الصداقة أشدّ مراحل حياتنا توترا، لأن كل ما نفعله فيها إنما نفعله للمرة الأولى. وليس لديَّ هنا ما أقدمه غير الذاكرة، ولكن الذاكرة تُبرِز ـ في ما يبدو ـ القيمة المطلقة التي نوعزها للصداقة في صغرنا، بل في صغرنا البالغ. كنت في الخامسة. ودخل بيلي، أول أصدقائي، إلى حياتي بطريقة تسرَّبت الآن من ذاكرتي. أتذكّره شخصية مرحة غريبة قوية الآراء، ذات موهبة طاغية في الأذى (وذلك شيء كنت أفتقر إليه افتقارا مرعبا). كانت لديه إعاقة خطابية شديدة، فكانت الكلمات تخرج من فمه بالغة التشوش والتخبط ناهيك عن اللعاب الذي يتكوّن في فمه، فلم يكن أحد يفهم منه شيئا إلا بول

الصغير الذي كان يعمل له مترجما فوريا. كنا نقضي أغلب وقتنا معا في التجوّل في أحياء ضواحي نيوجرزي باحثيْن عن الحيوانات الصغيرة الميتة ـ وكانت طيورا في الغالب، أو ضفادع وسناجب أحيانا ـ لندفنها بعد ذلك في حوض الزهور في فناء بيتي الخلفي. شعائر جليلة، وصلبان خشبية مصنوعة يدويا، وغير مسموح بالضحك. بيلي كان يكره البنات، ويرفض تلوين الشخصيات الأنثوية في كتب التلوين، ولأن الأخضر كان لونه المفضل، فقد كان مقتنعا أن الدماء التي تجري في عروق دُبِّه الدمية خضراء. تصوَّر الشخصية! ولمّا بلغنا السادسة والنصف أو السابعة، رحل وأسرته إلى بلدة أخرى. وانفطر قلبي، فظللت أسابيع، بل شهورا، أشتاق إلى صديقي الغائب. لان لي قلب أمي على الأقل، وسمحت لي بالاتصال ببيلي في بيته الجديد برغم ارتفاع سعر المكالمات. تشوّشت تماما ذكرياتي عن المواضيع التي كنا نتكلم فيها، ولكنّ مشاعري نفسها حاضرة في ذاكرتي حضور مكوّنات إفطاري هذا الصباح. كنت أشعر وقتها بما سأشعر به في مراهقتي حينما أتصل بالفتاة التي أحبها.

أنت تميّز في رسالتك بين الصداقة والحب. ولكن في صغرنا، قبل أن تبدأ حياتنا الإيروتيكية، لا يكون ثمة فارق. تكون الصداقة والحب شيئا واحدا.

٣) ليست الصداقة والحب شيئا واحدا. الرجال والنساء. الفرق بين الزواج والصداقة. ومقتطف أخير من جوبير (١٨٠١): "لا تتخيَّرْ زوجة إلا المرأة التي لو كانت رجلا لاتخذتها صديقا" صيغة أخرى

عبثية، في تصوري (إذ كيف لامرأة أن تكون رجلا) ولكن الفكرة تصل على أية حال، وهي جوهريا غير بعيدة عن ملاحظة فورج مادوكس في "**نهاية الموكب**" وتأكيده الظريف النزق على أن "المرء يصطحب المرأة إلى السرير كي يتسنى له الكلام معها".

الزواج في المقام الأول حوار. وإذا لم يعرف زوج وزوجة كيف يكونان صديقين، فليس للزواج إلا فرصة ضئيلة للبقاء. الصداقة من مكوّنات الزواج، ولكن الزواج مهمة في طور التنفيذ طول الوقت، دائم التطور، مسعى مستمر لبلوغ المرء أعماق نفسه وإعادته اختراع ذاته في علاقتها بالآخر، بينما الصداقة نقية بسيطة (أعني الصداقة بعيدا عن الزواج) تميل إلى أن تكون أكثر ثباتا، وتهذيبا، وسطحية. ونحن نتوق إلى الصداقة لأننا كائنات اجتماعية، وُلدنا من كائنات ومقدور لنا أن نعيش وسط كائنات إلى يوم أن نموت، ومع ذلك تأمَّل الشجارات التي تقع حتى في أفضل الزيجات، الخلافات المحتدمة، الإهانات الملتهبة، الأبواب المصفوقة والأطباق المتهشمة، فكِّر في ذلك وسوف ترى على الفور أن أمثال هذه السلوكيات لا يمكن أن تكون مقبولة في غرف الصداقة الرزينة. الصداقة احترام، وطيبة، وثبات شعوري. والأصدقاء الذين تعلو أصواتهم على بعضهم البعض نادرا ما يبقون أصدقاء. في حين أن الأزواج والزوجات الذين تعلو أصواتهم على بعضهم البعض غالبا ما يستمرون في زيجاتهم، بل وتستمر زيجاتهم هذه في سعادة.

هل يمكن أن تقوم صداقات بين الرجال والنساء؟ أعتقد أنه ممكن. ما لم يكن ثمة انجذاب جسدي. ولا يكاد الجنس يدخل المعادلة، حتى يتوقف قبول الرهانات.

٤) يُتبع. لكن هناك جوانب أخرى من الصداقة بحاجة إلى النقاش أيضا. أ) الصداقة التي تذبل وتموت. ب) الصداقات بين من لا يشتركون بالضرورة في نفس الاهتمامات (صداقات العمل، صداقات الدراسة، صداقات الحرب). ج) صداقات المجموعات [الشلل]، الأصدقاء الحميميون للغاية، الأصدقاء الأقل حميمية والأكثر تشابها، الذين يعيشون بعيدا عن بعضهم البعض، المعارف الظرفاء وما إلى ذلك. د) كل النقاط الواردة في رسالتك ولم أناقشها بعد.

مع أدفأ الأفكار من
نيويورك الساخنة
بــول

١٢ سبتمبر ٢٠٠٨

عزيزي بـــول

رداً على رسالتك المؤرخة في التاسع والعشرين من يوليو ـ أنا آسف على كل هذا التأخير.

دوروثي كانت مسافرة في أوربا (في السويد والمملكة المتحدة) لحضور مؤتمرات أكاديمية. وكان الجزء الأخير من الرحلة كابوسيا، إذ أصيبت بالتهاب رئوي فكان لزاما عليها أن تلغي خططها للسفر داخل المملكة المتحدة ثم وقعت بالأمس فباتت الحركة صعبة عليها. ومن المنتظر أن ترجع إلى أستراليا الأسبوع القادم.

الخبر السعيد أنها سوف ترافقني إلى إستوريل [في البرتغال]. وأنا وهي مشتاقان إلى هذا، وإلى رؤيتك أنت وسيري مرة أخرى.

مع أطيب أمنياتي

جـــون

١١ سبتمبر ٢٠٠٨

عزيزي بـــول

تكتب أن " أفضل الصداقات وأبقاها ما يقوم على الإعجاب " .

وذلك ما لا أقبله، إلا بحذر، كقانون عام، إذ يبدو لي أصدق على الرجال منه على النساء، ولكني أوافق على ما وراء قولك هذا من مشاعر. يقول أفلاطون إن رغبتنا في أن تكون موضع احترام أندادنا هي دافعنا إلى الامتياز. غير أن ثمة نزوعا ـ في عصر لم يزل يسيطر عليه داروين ونيتشه وفرويد ـ إلى اختزال الرغبة في أن نكون موضع احترام لتصبح شيئا أقلَّ مثالية، كاشتهاء السلطة على سبيل المثال، أو اندفاع المرء إلى نشر جيناته. ولكن النظر إلى رغبة المرء في أن يكون موضع احترام باعتبارها إحدى قوى الروح الأساسية يثير أفكارا عميقة وقيّمة في ما يبدو لي. منها على سبيل المثال أن الألعاب الرياضية ـ التي لا نظير لها في بقية مظاهر الإبداع ـ شديدة الأهمية للبشر، لا سيما الرجال. فالرجال يجرون أسرع أو يقذفون الكرة أبعد لا رغبة منهم في اجتذاب البنات ذوات الجينات الجميلة إلى مرافقتهم، بل رغبة في أن يثيروا الإعجاب في نفوس أندادهم، أعني غيرهم من الرجال الذين يرتبطون وإياهم بأواصر

الإعجاب. ومثل هذا ينطبق ـ بعد إدخال التعديلات اللازمة ـ على مجالات أخرى.

أوافق أيضا أنه يصعب الاستمرار في اعتبار شخص ما صديقا بمجرد أن تفقد احترامك له أو لها. ولعل هذا يساعد على تفسير الحفاظ على الاحترام في العصابات الإجرامية التي لا نصيب لأفرادها في غير هذا من الأخلاق: فالعصابة لا تستمر إلا طالما استمر أفرادها في الحفاظ على الاحترام في ما بينهم وعدم سقوط بعضهم من أعين بعض.

تكتب عن صداقات الطفولة. لقد بهتني أخيرا تساهلنا الشديد كآباء، لا سيما آباء الأبناء الصغار، في إطلاع أبنائنا عن مشاعرنا تجاه أصدقائهم، سواء كنا نقبل بصديق جديد أو كنا نعتبره "رفيق سوء". ولو كان لي أن أعيش من جديد حياتي كأب، لصرت أكثر حذرا في هذا. فليس من العدل أن نحْمل الابن/ الابنة على تخمين ما الذي في الصديق الجديد يجعله غير جذابَ في عيني الأب. فما يجعل الصديق غير لائق لدى الأب هو في أغلب الوقت شيء خارج تماما عن رادار الابن: كالتعالي الطبقي على سبيل المثال، أو هي ربما حكاية ما متداولة عن أبوي الصديق. وأحيانا تكون السمة التي تحول بين الصديق والأب هي بالذات سر غواية هذا الصديق الجديد ـ ككونه ضليعا في أمور الجنس على سبيل المثال.

أما عن الصداقات بين الرجال والنساء، فيدهشني ويثير فضولي أن ترتيب الأحداث المعتاد في أيامنا هذه هو أن يتحاب الرجل والمرأة في البداية

ثم يصبحان صديقين بعد ذلك، بدلا من البدء بالصداقة ثم الحب. لو صحَّ هذا التعميم، فهل لنا أن نرى الصداقة بين الرجل والمرأة أرقى - بمعنى ما - من الحب الإيروتيكي، وأنها مرحلة قد يتدرجان إليها من التجربة الجنسية المحضة؟ هناك بالتأكيد من يفكرون على هذا النحو، ويقولون إن مسار الحب الإيروتيكي غير قابل للتنبؤ، ولا يدوم، ويمكن أن يتحوّل على حين غرة إلى نقيضه، بينما الصداقة باقية دائمة قادرة على دفع الأصدقاء إلى أن يكونوا أفضل (بحسب وصفك).

أعتقد أننا ينبغي أن نحترس من الإسراع بقبول هذا الزعم، وما ينجم عنه ويترتب عليه. فالرأي الرائج - على سبيل المثال - يذهب إلى أنه ليس من الحكمة لرجل وامرأة بينهما صداقة طويلة (صداقة "محضة") أن يخطوا إلى الحب الفيزيقي. ويذهب الرأي الرائج إلى أن النوم مع صديق تجربة مروَّضة، إذ الصديق الحق يفتقر إلى عنصر الغموض الذي يستوجبه إيروس. فهل هذا صحيح فعلا؟ من المؤكد أن غواية زنا المحارم بين الأخ والأخت تكمن على وجه التحديد في هذه الخطوة من المعروف تمام المعرفة إلى المجهول الغامض.

ولقد كان زنا المحارم من مواضيع الأدب الكبرى (كما عند موزيل ونابوكوف) لكن لا يبدو أنه كذلك إلى الآن. ولا أعرف السبب. ربما لأن فكرة الجنس بوصفه تجربة شبه دينية - فيكون زنا المحارم بالتالي تحديا للآلهة - قد تبخرت في الهواء.

مع أطيب أمنياتي

جـــون

بروكلن

٢٢ سبتمبر ٢٠٠٨

عزيزي جـــون

أرجو أن تطلب من دوروثي أن تتحلّى بمزيد من الحذر. الالتهاب الرئوي كاف وحده، فما كان أغناها عن الوقوع أيضا. ولكني أثق أن عظامها لم تتكسر (أو أرجو ذلك). أنا وسيري في غاية السعادة لمجيئها المرتقب إلى البرتغال في نوفمبر.

كنت مسافرا في الفترة الأخيرة، وأوشك في غضون يومين أن أقلع من جديد. فلا وقت لديّ الآن لردٍّ تفصيلي، ولكنّني أعدك أن أرسل إليك بمجرد رجوعي في منتصف أكتوبر.

إشارتك إلى زنا المحارم بين الأخ والأخت في رسالتك الأخيرة مثيرة لفضولي. فثمة شيء من هذا القبيل يجري في كتابي الجديد (وأتمهّل أمامه بشيء من الإسهاب) والحق أن الجنس تجربة شبه دينية لكلتا الشخصيتين (على حدّ تعبيرك). فهل يعني هذا أنني غير مساير للعصر ولا رجاء مني على الإطلاق؟ ربما.

أما عن الإعجاب فقد كنت أتكلم عن الصداقة بين الرجال. والمزيد عن ذلك لاحقا بعدما أرجع . . .

ولك مني مصافحة

بـــول

٢٨ أكتوبر ٢٠٠٨

عزيزي جـــون

كنت أريد أن أكتب إليك قبل هذا ولكني رجعت إلى نيويورك وأنا أعاني من فيروس معوي أبقاني مستلقيا حتى صباح اليوم. كان من حسن حظي أنني أمضيت سبعة عشر يوما في سفر متصل ومستعر دون أن أمرض إلا في الليلة الأخيرة بعدما انتهيت من آخر مهامي السخيفة. وتلك نتيجة متوقعة ولا شك. يعيش المرء منا على الأدرينالين النقي، وتأتي لحظة يتناقص فيها الأدرينالين، فنعرف أننا لا بد قد قسونا على أنفسنا أكثر مما ينبغي. لذلك أتلهّف على البرتغال طلبا للراحة، ولفترة من الهدوء والاتزان، وهذا ثاني أفضل شيء بعد الإجازة.

تكلمت في رسالتك الأخيرة عن "الألعاب الرياضية ـ التي لا نظير لها في بقية مظاهر الإبداع ..." فذكّرني كلامك بحوارات تبادلناها عن المباريات حينما كنا نتنقّل في فرنسا في الصيف الماضي. تراك مهتما بالتمعن في هذه المسألة؟ لقد قرأت لك "[أربع] ملاحظات عن الرجبي" قبل نحو ثلاثين سنة. مثيرة ومحكمة الحجج، فلو أنك تبالي بالرجوع إلى هذه المنطقة، سيكون من دواعي سعادتي أن أذهب إليها معك. (لي في المسألة

إسهام بسيط بعنوان "خير بديل للحرب" وهو منشور في "الأعمال النثرية الكاملة"، وكنت قد كتبته بتكليف من مجلة نيويورك تايمز لعدد أصدرته بمناسبة الألفية قبل عقد من الزمن. كان تكليفي هو التالي: اكتب بإيجاز شديد عن أفضل لعبة في الألفية الماضية. واخترت كرة القدم).

نقاط ممكنة للنقاش: ١) الرياضات والعدوان، ٢) اللعب في مقابل مشاهدة لعب الآخرين، ٣) فينومينولوجيا الفرجة وغموضها، ٤) الرياضات الفردية (التنس، الجولف، السباحة، الرماية، الملاكمة، سباقات المضمار والميدان) في مقابل الألعاب الجماعية، ٥) تراجع الملاكمة البطيء والقهري. وظاهرة موازية: اللامبالاة العالمية بأرقام سباقات المضمار والميدان. قبل أربعين عاما أو خمسين كان العالم كله ينتظر بلهفة أول قفزة بارتفاع سبعة أقدام، وأول قفزة بالزانة بطول ستة عشر قدما، وأحدث عَدْو للميل في أقل من أربع دقائق. ما سر عدم الاهتمام حاليا؟ ٦) الرياضة بوصفها دراما، وسردية، وإثارة، ٧) الرياضات الموقوتة (كرة القدم، كرة السلة، الرجبي) في مقابل الرياضات الأخرى غير الموقوتة (البيسبول، الكريكيت)، ٨) الرياضة والتجارة، ٩) الرياضة والقومية، ١٠) الإنسان اللاعب[1].

مع أطيب الأفكار

بـــول

---

[1] باللاتينية أصلا *Homo ludens*، وهو عنوان كتاب للمؤرخ الهولندي يوهان والمنظِّر الثقافي يوهان هويزنجا Johan Huizinga ويتعرض فيه لأهمية عنصر اللعب في الثقافة والمجتمع.

٦ ديسمبر ٢٠٠٨

عزيزتي سيري*

كيف حالك؟ بدأت أخيرا أتعافى من الإنفلونزا التي أصابت لجنة التحكيم في البرتغال. كان وقتا بائسا. أرجو أن تكوني أفلتِّ.

لست بحاجة إلى أن أقول لك كم كان قضاء الوقت كله بصحبتك أنت وبول شيئا ظريفا.

أرفق رسالة تحتوي الفكرة المرعبة التي وعدتك بها أنت وبول في أيامنا الأخيرة في كاسكايس. هل تسمحين بطباعتها وتوصيلها لبول؟ من المؤكد أنني من أنصار طراز الرسائل القديمة ذات الطوابع، ولكنني هذه المرة أشعر بالعجز لدرجة أن أحتاج إلى الاعتماد على طاقة الإنترنت.

مع حبي

جـــون

* رسالة إلكترونية إلى سيري هوستفيدت (زوجة أوستر).

رسالة إلى ب. أ.

عزيزي بـــول

قرب نهاية ٢٠٠٨، وقع شيء ما في عالم التمويل، ونتيجةً له ـ حسب ما يقال لنا ـ صار أغلبنا أفقر (أعني أفقر ماليا) مما كنا عليه قبل شهور قليلة. لم يُكشف لنا عن ذلك الذي وقع على وجه التحديد، ولعله ليس معلوما بدقة، وإن يكن موضع نقاش محتدم بين الخبراء. ولكن لا أحد يشكك في أن شيئا ما قد وقع.

والسؤال هو: ما ذلك الشيء الذي وقع؟ هل كان شيئا حقيقيا، أم كان من تلك الأشياء الخيالية ذات العواقب الحقيقية مثل تجلّي العذراء الذي جعل من بلدة لورديس [الفرنسية الصغيرة لدى سفح البيرانس] مركزا سياحيا مزدهرا.

دعني أسرد عليك أحداثا حقيقية قد نستيقظ يوما ما نتيجةً لها ـ كدولة وكمجتمع لا كأفراد مشتتين فقط ـ وقد بتنا أفقر بين عشية وضحاها.

جراد يأتي على محاصيلنا.

جفاف يدوم من عام إلى عام .

طاعون يبيد قطعاننا .

زلزال يقوّض طرقنا وجسورنا ومصانعنا وبيوتنا .

غزو تتعرض له بلدنا من جيش أجنبي ، فإذا بمدننا مجتاحة ، ومؤننا مغتنمة ، ومتاجرنا منهوبة ، ونحن عبيد .

قد نستدرج إلى حرب خارجية لا تنتهي ، نبعث إليها آلافا من شبابنا الأقوياء ونهدر ما يتبقّى لنا من موارد على شراء السلاح .

قد تنتقل السيادة على البحار إلى بحرية أجنبية تحول دون أن تمدنا مستعمراتنا بسفن الغذاء وشحنات المعادن الثمينة .

برحمة من الله ، لم تحلّ علينا أي من تلك الكوارث في ٢٠٠٨ . فمدننا لم تُمسّ ، ومزارعنا منتجة على حالها ، ومتاجرنا عامرة بالأطعمة .

ما الذي حدث إذن فجعلنا أفقر ؟

الإجابة المقدَّمة لنا هي أن أرقاما معينة تغيّرت . أرقام معينة كانت مرتفعة وفجأة انخفضت ، ونتيجة لذلك بتنا أفقر .

لكن الأرقام ٠ و١ و٢ . . . و٩ هي مجرد علامات لا تقلّ في ذلك عن ألف وباء وتاء . . . وياء . فلا يمكن أن يكون انخفاض الأرقام ذاتها هو الذي أفقرنا . لا بد أن شيئا آخر هو الذي فعل ذلك ، وهو الذي يشير إليه انخفاض الأرقام .

فأيُّ شيء بالضبط ذلك الذي يشار إليه بالأرقام المنخفضة وهو الذي جعلنا أفقر؟ الإجابة هي: مجموعة أخرى من الأرقام. الأرقام المدونة إذن رموز لأرقام أخرى، وتلك رموز لمجموعة أخرى، وهكذا دواليك.

أين ينتهي هذا المنحدر من مجموعات العلامات؟ أين الشيء نفسه الذي يشار إليه: الجراد أو الغزو الأجنبي؟ لا أراه في أي مكان. العالم لا يزال كما كان من قبل. لم يتغيّر شيء إلا الأرقام.

فلو أن شيئا لم يحدث فعلا، ولو أن الأرقام ليست انعكاسا لواقع بل هي على العكس تشير ببساطة إلى أرقام أخرى، فإنني أتساءل: لماذا علينا أن نقبل القرار بأننا الآن أفقر وأن علينا أن نبدأ في تغيير سلوكنا بما يتفق مع ازديادنا فقرا؟ وأتساءل لم لا نطيح ببساطة بهذه المجموعة المعيّنة من الأرقام، الأرقام التي تشقينا ولا تعكس واقعا بأية حال، ونؤلّف أرقاما جديدة لأنفسنا، لعلها ترينا أنفسنا أغنى مما كنا، وإن يكن الأفضل أن نؤلف أرقاما ترينا بالضبط ما نحن إياه، بما لنا من ثلاجات عامرة وأسقف متينة ومناطق صناعية وزراعية منتجة؟

الردّ الذي أتلقاه على هذه المقترح (المقترح "الساذج") لا يعدو هزة رأس مشفقة. ويقال لي إن الأرقام التي نواجهها، والأرقام التي ورثناها، تصف في حقيقة الأمر الأوضاع كما هي، والمنطق الداخلي الذي ينطوي عليه توالي الأرقام من الأعلى إلى الأدنى، ابتداء من مطلع ٢٠٠٨ وحتى أواخر ٢٠٠٨ يصف إفقارا حقيقيا حدث.

لدينا تعادل إذن. من ناحية، هناك أمثالي ممن لا يصدقون أن شيئا حقيقيا قد حدث ولا يرضون بغير دليل على حدوث شيء. ومن ناحية مقابلة، هناك العارفون ببواطن الأمور الذين لا يملون قولهم: "واضح تمام الوضوح أنكم لا تفهمون كيف يعمل النظام".

في الكتاب السابع من الجمهورية يطلب منا أفلاطون أن نتخيّل مجتمعا ينفق فيه الناس ساعات صحوهم جالسين في صفوف داخل كهف معتم، محملقين في شاشات تجري عليها صور مختلفة. لم يحدث أن خرج أيٌّ منهم من الكهف، ليس بينهم من تعرَّف على أي شيء إلا الصور المهتزة على الشاشات. وكلهم يقبلون بأن ما يشاهدونه على الشاشات هو الموجود كله.

ويوما ما يحدث أن يقوم واحد من هؤلاء ويتحامل على ساقيه خارجا من الكهف. فإذا بعينيه اللتين لم تألفا ضوء الشمس تعميان، لكنه يرى لمحات من الشجر والزهر والكثير من الأشكال التي لا تشبه في شيء ما درج عليه قبل ذلك من صور.

يقي عينيه بيديه ويستدير إلى رفاقه. ويقول إن هذا المكان الذي نعيش فيه كهفٌ في واقع الأمر، وثمة ما هو خارج الكهف، وكل شيء خارج الكهف مختلف أشد الاختلاف عما داخل الكهف. هناك حياة حقيقية بالخارج.

ويضحك رفاقه، ويقولون أيها المسكين ألا تعرف الحلم عندما ترى الحلم؟ الحقيقة هنا، ويشيرون إلى الشاشات.

ذلك كله عند أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٨ ق م)، بكل تفاصيل الأكتاف المحدودبة، والشاشات المهتزة، وقصر النظر.

أطيب أمنياتي

جــون

ملحوظة: لست غافلا أنني إذ أقترح تأليف مجموعة "جيدة" جديدة من الأرقام لتحلَّ محلَّ المجموعة "السيئة" القديمة وزرعها في جميع كمبيوترات العالم، فإنني لا أقترح أقلّ من نبذ الاقتصاد السيء القديم وإحلال آخر جيد جديد، أي بعبارة أخرى، أقترح الشروع في عدالة اقتصادية عالمية. وهذا مشروع يفتقر قادتنا الراهنون إلى ما يستوجبه من استعداد، وإرادة، أو حتى رغبة.

٩ ديسمبر ٢٠٠٨

عزيزي جـــون

ظهرت رسالتك المعنونة بـ "رسالة إلى ب . أ . " في كمبيوتر سيري، وطبعتها لي قبل قليل. لا أعرف متى كتبت أو بعثت، وهل أنا متأخر في الرد أياما أم أسابيع، فمن فضلك سامحني.

قبل التطرق إلى كهف أفلاطون والانهيار التام للحضارة التي نعرفها، أريد أن أقول لك ودوروثي كم كانت متعة هائلة لنا أن قضينا معكما تلك الأيام في البرتغال. الشمس، والأحاديث، والوجبات، والإيقاع المتراخي لكل شيء - كلها أشياء لا تنسى. صحيح أننا اضطررنا إلى مشاهدة بعض الأفلام البشعة، ولكن فرصة مشاهدة فيلم عبقري واحد كانت تعويضا لنا عن المعاناة كلها.

رسالة إلى ج. ك.

ما نتكلم عنه هنا هو في تصوري قدرة الخيال على التأثير في الواقع، والخيال الجليل في عالمنا هو المال. ما النقود بجانب كونها أوراقا تافهة؟ لو اكتسبت تلك الأوراق قيمة، فما ذلك إلا لأن أعدادا هائلة من البشر رأت أن تهبها القيمة. النظام يقوم على الإيمان. فلا حق ولا حقيقة، إنْ هو إلا الإيمان الجمعي.

الأرقام التي تشير إليها هي ابنة هذا الإيمان. الأرقام تمثل الورق، وفي المعاملات المالية الكبرى (كتجارة الأسهم والأعمال المصرفية في مقابل شراء البقالة مثلا) اختفى الورق وتحوّل إلى أرقام. الأرقام تكلّم الأرقام، ويُلقَى بنا نحن إلى عالم من التجريد المحض. ومن هنا فإن إشارتك إلى كهف أفلاطون في مكانها. فالأرقام هي الظلال المرتعشة على الجدار. أو على رأي والد سيري: هناك نوعان من الناس، من يعملون من أجل المال، ومن يعمل المال من أجلهم.

الآن دخلنا مرحلة بدأت الأرقام فيها تفزعنا. أوافقك على أن الأزمة تبدو غير حقيقية، غير راسية في حقائق ملموسة. البنوك تنهار

بسبب استثمارات خطرة وحمقاء في التكلفة المستقبلية للرهونات العقارية (الأرقام تكلم الأرقام)، حزم إنقاذ حكومية ببلايين الدولارات، والإيمان بالنظام (الإيمان الجمعي بالخيال الذي اخترعناه) يترنّح بغتة. وهدوء الأمس، ذعر مستشرٍ اليوم.

ومن سوء الحظ أن هذا الذعر، الذي لا أساس له في أرض الواقع شأن هدوء الأمس بالضبط، يفضي إلى نتائج ملموسة، فهو نظير الجراد الذي تكلمت أنت عنه، أو الوباء.

وأنا هنا أشير إلى ما يعرف بالأزمة الائتمانية. باتت البنوك تخشى إقراض النقود لأحد. تعال نفترض أنك تمتلك مصنعا صغيرا لإنتاج الكراسي، وأنك بحاجة إلى شراء معدات جديدة للحفاظ على استمرار نشاطك، ولأنك لا تمتلك القدر الكافي من النقد لشراء المعدات، فإنك تقصد البنك طالبا قرضا، ويخذلك البنك، ولأن نشاطك لا يمكن أن يستمر بغير المعدات الجديدة، فإنك تضطر إلى تسريح نصف عمالك، وإشهار إفلاسك، وإغلاق مصنعك إلى الأبد.

في الشهر الماضي وحده، فقد أكثر من نصف مليون شخص وظائفهم في أمريكا. لقد أدى الذعر إلى مشكلة بطالة مستمرة في الانتشار، والناس الذين فقدوا وظائفهم فقراء بالفعل، برغم أن ثلاجاتنا ـ بصفة عامة وعلى حد تعبيرك ـ عامرة.

ولن تنتهي الأزمة إلا لو انتهى الذعر. ولكن ما سينهي الذعر لغز بالنسبة لي.

فكرتك المتعلقة بتأليف مجموعة جديدة من الأرقام قد تكون البداية.

وثمة حلّ آخر خطر لي قبل يوم مثلا وهو أن تبدأ الحكومات في طبع كميات هائلة من النقود وتوزع عشرات آلاف الدولارات على كل شخص في العالم. قد يكون ثمة خلل في تفكيري (تراني أتجاهل إمكانية التضخم المنفلت؟)، لكن كيف يتمّ تمويل حزم الإنقاذ - لو لم أكن مخطئا يعني - إلا من خلال هذه الطريقة على وجه التحديد: أعني طبع مزيد من النقود.

ولك أطيب أمنياتي

بــول

١٤ ديسمبر ٢٠٠٨

عزيزي جـــون

بالأمس فقط، أي بعد أسبوع من إرسالك "رسالة إلى ب. أ."، ظهر على سطح كمبيوتر سيري خطاب الإرفاق. حدث بطريقة ما أن نسيتْ طبعه (ونحن اثنان لا رجاء فيهما في ما يتعلق بالحياة الرقمية)، وفرحت لما علمت أنك استمتعت بالبرتغال مثلما استمتعت أنا بها وأسفت لإصابتك بالإنفلونزا. (أصابتني الإنفلونزا السخيفة في الخريف وأعرف أيّ حقارة يمكن أن تتدنّى إليها تلك الميكروبات). أثق أنك لا بد أن تكون شفيت الآن. فدقة المشرط التي في رسالتك لا يمكن أن تتهيأ لمريض.

إشارتك إلى مهرجان السينما ذكّرتني بقصة مثيرة أحب أن أطلعك عليها. ترجع إلى سنة ١٩٩٧، حينما كنت عضوا في لجنة تحكيم مهرجان كان. تصادف أن كانت الدورة الخمسين من المهرجان، وقرر المنظمون أن يجمعوا أكبر عدد ممكن من الحاصلين على الجائزة في الماضي وأن يجلسوهم في صورة جماعية كبيرة. ولسبب ما طولب أعضاء لجنة التحكيم بالمشاركة أيضا، وهكذا انتهيت في تلك الصورة ذات المائة شخص وأكثر.

أطالع الصورة الآن، ومن بين المخرجين الذين أتعرف عليهم أنطونيوني، وألمودوفار، ووادجا، وجون بورمان، وديفيد لينش، وتيم بيرتن، وجين كامبيون، وألتمان، وفندرز، وبولانسكي، وكوبولا، والأخوان كوهين، ومايك لاي، وبيرتولوتشي، وسكورسيزي. ومن الممثلين جينا لولوبريجيدا (!)، ولورين باكال، وجوني ديب، وفيتوريو جاسمان، وكلوديا كاردينالي، وليف أولمان، وشارلوت رامبلنج، وبيبي آندرسن، وفانيسا ريدجريف، وإيرين جاكوب، وهيلين ميرين، وجين مورو، وأنجيليكا هاستن.

قبل أن نتخذ أماكننا لالتقاط الصورة، أقيم حفل كوكتيل استمر قرابة ساعة. لا أعتقد أني وقفت في غرفة تغص بقدر أكبر من الكهرباء البشرية. شعرت أن الجميع يريدون أن يقابلوا الجميع ويتكلموا مع الجميع، وأن الإثارة التي يولّدها هذا الجمع حوّلت أولئك النجوم إلى حشد من التلاميذ موفوري الطاقة.

تعرفت بعدد من الناس، وأجريت حوارات قصيرة مع البعض منهم، ثم وجدت نفسي في لحظة اضطراب دوامية أصافح يد تشارلتن هيستن. ومن بين جميع الحاضرين في الغرفة، كان ذلك أقلّ من يهمني الحديث إليه. فلم أكن أعتقد فقط أنه ممثل رديء (جامد، غير مقنع، مدّعٍ)، لكنني كنت أكره مواقفه السياسية. ولعلك تعرف بعلاقته مع الاتّحاد الوطني للسلاح وتصريحاته اليمينية العفنة التي يبدو أنها محطّ اهتمام دائم من الصحافة الأمريكية. لكن ما الذي كان بيدي؟ لم يكن

المكان ولا الزمان ملائمين لتحدِّيه، فأدركت أنني وقعت في شرك. وطبعا لم تكن لدى هيستن أدنى فكرة عمَّن أكون، لكنه بدوره أصيب بمسٍّ من كهرباء الغرفة، فارتفعت معنوياته، وبدا أنه يستمتع بالحديث إليّ. تكلم وأصغيت، وعلى مدار الدقائق العشرة أو الخمس عشرة التالية كان يستدعي ذكريات زياراته الأولى إلى كان، ومشواره الطويل مع السينما، وكيف يبدو له هذا الجمع رائعا، ومدى إحساسه بالصغر وسط كل هؤلاء الحاضرين من أصحاب المواهب البارزة. وبرغم مآخذي عليه، كان لزاما عليّ أن أعترف أنه بطريقة ما "رجل لطيف فعلا".

انتهى المهرجان بعد أيام قليلة، ورجعت إلى بيتي في نيويورك، وبعد يومين أو ثلاثة من ذلك ذهبت إلى شيكاغو، وكنت قد وعدت ناشري الأمريكي بحضور معرض بوك إكسبو السنوي والمشاركة بقراءة من كتابي الذي كان مخطَّطا أن يصدر في الخريف. وصلت السبت. وبعدما انتهيت من تسجيل بياناتي في الفندق، أخذت تاكسي إلى مركز مكورميك، فاكتشفت أنه مكان هائل الحجم لعله في مثل سعة خمسين من حظائر الطائرات وقد تكدست في كل بوصة منه أكشاك الناشرين، مئات ومئات من الأكشاك، بل لعلها آلاف. ولما وصلت أخيرا إلى كشك هنري هولت كانت مثانتي توشك أن تنفجر. أشار لي شخص باتجاه حمام الرجال (على بعد ميل تقريبا أو ميل ونصف الميل)، فمضيت على الفور وأنا أسير بسرعة من ممرٍّ إلى آخر، عابرا أكشاك عشرات الناشرين في ثنايا ذلك، وما كدت أقترب من مقصدي، حتى التفت إلى يميني، وهناك، كان تشارلتن هيستن يجلس إلى منضدة يوقّع كتبا، تشارلتن هيستن نفسه الذي كنت

قابلته قبل أسبوع في كان. وعلى اللوحة التي تعلوه ثلاث كلمات: **الاتحاد الوطني للسلاح**. لست بحاجة إلى أن أقول لك إنني لم أتوقف لتبادل التحيات. كان "الرجل اللطيف فعلا" قد عاد إلى طبيعته، فلم تكن بي رغبة في محادثته. ومع ذلك توتّرت. وتساءلت عن احتمال مقابلة رجل في مهرجان سينما فرنسي، ثم مقابلته بعد أيام قليلة بالصدفة في معرض للكتاب بشيكاغو؟

أنهيت قراءتي وطرت إلى البيت في الصباح التالي، صباح الأحد. وفي اليوم التالي، أي الاثنين، كان عندي موعد غداء في منهاتن مع الممثلة الفرنسية جولييت بينوشيه التي كانت تفكر في قبول دور في فيلم كنت أجهز له هو "لولو على الجسر". (وهذه قصة أخرى، أشدّ تعقيدا من أن أتناولها هنا). وصلتُ إلى فندقها بعد الظهر بقليل، وهو فندق صغير أنيق وباهظ للغاية في شارع ماديسن يدعى **ذي مارك**. أخبرت موظف الاستقبال بوصولي وتمهلت في البهو قليلا في انتظار نزول ج. ب. ولم يكن أحد في البهو. فباستثنائي وموظف الاستقبال، كان البهو مهجورا. وبعد نحو دقيقة انفتح باب المصعد، وخرج منه رجل: عجوز ضخم، منحن بعض الشيء، يخطو خطوات بطيئة متثاقلة. ومضى يتحرك نحوي، وبعد لحظة أدركت أن الذي أنظر إليه هو . . . تشارلتن هيستن.

رفع عينيه مسجّلا حضوري، فتوقف. التمعت عيناه كمن تعرف عليّ. أشار بسبابته مبتسما وقال "أنا أعرفك من مكان ما، صح؟"

قلت "تقابلنا في كان الأسبوع الماضي، وتكلمنا قليلا قبل الصورة الجماعية" .

"آه، طبعا" وابتسم، بجدية هذه المرة، ومد يده لمصافحتي. "لطيف جدا أن أقابلك من جديد" .

لم أبال بالإشارة إلى شيكاغو.

سألني عن حالي. قلت بخير، بخير ولم أزد. سألته وأنت، كيف حالك؟ قال بخير، بخير فقط، ثم مضى إلى الخارج عابرا الباب الدوّار.

ما الذي أخرج به من هذا يا جون؟ هل تحدث لك مثل هذه الأشياء، أم أنني الوحيد؟

بــول

٣٠ ديسمبر ٢٠٠٨

عزيزتي سيري

عندي سؤالان (رجاءان)، أولهما لك/ منك، والثاني لبول/ أو منه. فهل تتفضلين بنقل الثاني إليه؟

(١) أكتب استعراضا نقديا لطبعة جديدة من رسائل صمويل بيكيت في السنوات من ١٩٢٩ إلى ١٩٤٠. في منتصف الثلاثينيات كان بيكيت يخضع لعلاج نفسي مع ولفريد بايُن. فهل أصيبُ حين أظن أنك تعلمين شيئا غير قليل عن بايُن؟ هل هناك كتاب جيد أو حتى مقالة يمكن أن أعرف منها شيئا عن منهج باين في العلاج؟

(٢) يبدو أن الطبعة المعنية قائمة على تمييز دقيق بين مراسلات بيكيت الأدبية ومراسلاته الشخصية. والأخيرة لا وجود لها في الكتاب. يبدو أيضا أن المحررين مصرون على الصمت التام عن حياة بيكيت الشخصية. ومما يترتب على ذلك أن قارئ الرسائل لا يعرف لماذا يظل بيكيت يتنقل بين دبلن وباريس وهامبورج ولندن (ويذهب المرء في الغالب إلى أن إيروس هو الدافع).

يعرب المحررون أيضا عن امتنان وافر لابن أخت بيكيت وورثة بيكيت. وسؤالي: هل لديك معرفة بإدوارد بيكيت؟ هل ثمة أي أجندة تحكم طريقة سيطرته على تركة بيكيت الأدبية؟

مع أطيب تمنياتي

جـــون

٣٠ ديسمبر ٢٠٠٨

عزيزي بــول

الظاهر أن "الأزمة المالية العالمية" التى كتبت لك عنها المرة الماضية سوف تحتدم في السنة الجديدة. وعليه فإننى أتصور أننى لا بد أن أكف ـ فى هذه المرحلة ـ عن لعب دور معلق الشئون الاقتصادية. أنا لم أنس إزرا باوند، الذى بدأت صواميل عقله تتراخى فى فترة الكساد فى الثلاثينيات، حينما أقنع نفسه أنه يرى سبلا إلى نجاح الاقتصاد عمى غيره من الناس أن يروها لغرقهم فى الأوهام، باختصار، جعل من نفسه بتعبير جرترود شتاين "علّامة القرية" العم إز.

الصيف في ذروته في هذا النصف من الكوكب، وقد قضيت أغلب يوم الأحد جالسا أمام شاشة التليفزيون (حيث تخيّم ظلال وول ستريت!) أشاهد ثالث يوم في مباراة الكريكيت خماسية الأيام بين منتخبى أستراليا وجنوب أفريقيا الوطنيين. استلبتنى تماما، انغمست فيها عاطفيا، فما عدت أقدر على انتزاع نفسى إلا بشق الأنفس. وكنت لكي أشاهد المباراة قد أزحت الكتابين أو الثلاثة التي كنت أقرأ فيها.

الكريكيت تلعب منذ قرون. ومثل جميع الألعاب، هناك الكثير جدا من الحركات التى يمكنك أن تقوم بها، كثير جدا من التأثيرات التى يمكنك أن تحدثها. محتمل جدا أن لا تكون مباراة الأحد الثامن والعشرين من ديسمبر في ملبورن بجميع تفاصيلها إلا صورة طبق الأصل من كل ناحية ذات شأن لجميع تفاصيل مباراة كريكيت فى مكان آخر. لا بد أن كل متابع جاد لا يبلغ الثلاثين من عمره إلا وقد مر بلحظات ديجافو، بل لعل الأمر يتجاوز اللحظات إلى الفترات الكاملة. وإذن فثمة مبرر قوي للقول بأن كل شىء قد حدث من قبل. فى حين أن هناك شيئا واحدا يمكنك قوله في حق كتاب جيد، وهو أنه لم يكتب من قبل.

ما الذي يجعلنى إذن أضيّع وقتى مرمياً أمام شاشة التليفزيون أشاهد الصغار يلعبون؟ إننى أقرُّ بأنها مضيعة للوقت. صحيح أننى أجنى خبرة (خبرة من الدرجة الثانية)، ولكننى لا أجد في هذه الخبرة نفعا من أي نوع كان. أنا لا أتعلم شيئا. لا أخرج بأي شيء.

هل أيٌّ من هذا مألوف لديك؟ هل يمس فيك وترا تعرفه؟ هل الرياضة ببساطة كالخطيئة: يستهجنها المرء لكنه يتوق إليها بدافع من ضعفه البشري؟

صديقك إلى الأبد

جـــون

١ يناير ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

ستكتب لك سيري رسالة منفصلة بشأن باين . . . لكن بخصوص ابن أخت بيكيت، فللأسف ليس لي اتصال مباشر به. عندما كنت أجهز طبعة المئوية [من أعمال بيكيت] قبل سنوات قليلة، علمت من محرر مطبعة جروف أن إدوارد فرِحٌ جدا بالمشروع وأنه يقرّه من كل قلبه. إذا رغبت في الاتصال به شخصيا، يمكنني بسهولة أن أرتّب لك ذلك من خلال ناشري البريطاني، فيبر آند فيبر، وهم كما تعلم يملكون حقوق مسرحيات بيكيت منذ سنين، لكنهم استطاعوا أخيرا بفضل جهود رئيسهم الشاب ستيفن بيج أن يشتروا جون كولدر فباتوا يمتلكون حقوق نشر بيكيت أيضا. ومن المؤكد أن إدوارد كان طرفا في تلك المفاوضات.

في حدود معلوماتي، فإن سلوك إدوارد المضطرب إلى حد ما على مدار سنين في ما يتعلق بالموافقة على نشر أو تمثيل أعمال خاله هو محاولة منه لاحترام أمنيات ص. ب، ولتخيل ما كان ليفعله ص ب نفسه ـ ولم يكن يخلو هو شخصيا من الاضطراب ـ لو كان لا يزال على قيد الحياة. ولكن التمييز بين المراسلات الأدبية والشخصية لا يبدو لي ذا معنى على

الإطلاق. لقد حدث قبل سنوات أن اتصلت بي واحدة من محرري رسائل ص ب (أستاذة في جامعة إيمروي لو لم أكن مخطئا) وأرسلت لي نسخا من جميع الرسائل والملاحظات التي تلقيتها من بيكيت، وقالت لي إنهم يسعون إلى نشر المراسلات كاملة وإنهم مقبلون على ما يثقون أنه سيكون جهد سنين كثيرة.

مَن الناشر، ولمن تكتب الاستعراض النقدي؟

أما عن أسفار بيكيت، فلست متأكدا أن الحب كان العامل الدافع إليها. سيرة نولسن مصدر جيد للمعلومات عن هذه التنقلات. ومع أن كثيرا من الأحداث غير واضح لي الآن، ولكنني أعتقد أن بيكيت سافر إلى باريس للمرة الأولى بغرض التدريس بعد تخرجه في ترينيتي. ومكث هناك سنة أو اثنتين ثم رجع إلى دبلن حيث اشتغل بالتدريس وبدأ يتصدّع. والسبب الرئيسي لذهابه إلى لندن كان العلاج لدى باين (في ما أعتقد). ورحلات ألمانيا كانت في الغالب لمشاهدة الفن. والمرأة الوحيدة التي عرفها هناك كان اسمها بيجي سينكلير (وهي قريبة لزوجته، وجذوته الأولى التي ماتت في شبابها بالسل).

أخشى أنك لن تنتفع بشيء من هذا، ولكنك قد تغوص في كتاب نولسن وترى إن كانت المعلومات اختلطت عندي بالذكريات. ولو لم أكن مخطئا، فإنه يتعرض لباين بإسهاب.

سنة سعيدة عليك أنت ودوروثي

بــول

٥ يناير ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

شكرا على تصحيحك معلوماتي بشأن ابن أخت بيكيت. لقد بدا لي أن محرري الرسائل يقيمون فاصلا بين الشخصي والأدبي، وافترضت ـ مخطئا ـ أن السبب في ذلك هو الورثة.

الناشر كمبردج، ومقالتي ستنشر في نيويورك رفيو أوف بوكس.

أما عن تشارلتن هيستن، فلا يبدو لي غريبا وأنت تعمل في الوسط السينمائي أن تظل تصادف شخصا من الوسط نفسه. الغريب أن يكون الشخص هو تشارلتن هيستن. الأمر أشبه بحلم من كتاب فرويد في تفسير الأحلام.

كل التمنيات الطيبة

جـــون

فدق دابوسون - باريس

١٠ يناير ٢٠٠٩

عزيزي جــون

وصلتنى رسالتك المفاجئة الطريفة المرسلة فى الثلاثين من ديسمبر قبل ساعتين من اتجاهى إلى المطار. أنا الآن فى أوربا من جديد، في باريس القارسة، والساعة الثانية عشرة ظهرا بالضبط، جالس فى غرفتى فى الفندق، غير قادر على الاستمرار فى قيلولة كنت أرجو أن تزيح عنى آثار ليلة بلا نوم. سامحنى على الورق المضحك هذا، وعلى القلم الجاف السخيف. فغرف الفنادق في باريس، لسبب ما، غير مزودة بآلات كاتبة.

سعادتي لا توصف بانتهائنا من المناقشة في الاقتصاد. فهو موضوع لست مؤهلا للحديث فيه. وأنا في غنى عن القول بأنني مؤمن أشد الإيمان بالسعادة المطلقة، وأنني أريد لكل شخص في العالم أن يحظى بعمل مرضٍ ومشبع، وأن يجني كل شخص في العالم ما يهرب به من شبح الفقر، ولكنني لا أعرف كيف يمكن تحقيق هذه الأهداف الثمينة. ولذلك سوف أمرٌ على هذه المواضيع في صمت.

وكلمات أخيرة في ملحمة تشارلتن هيستن. أنت ترى أن هذه الصدف وقعت لأن كلينا نتحرك في الوسط السينمائي، ونتنقّل في نفس الدائرة. لكن الحقيقة أن اللقاء الأول وحده هو الذي يتعلق بالسينما. أما الثاني فكان في معرض للكتاب في شيكاغو، والثالث في بهو فندق في نيويورك. ومن هنا حيرتي وارتباكي، وإحساسي بأن اللقاءات كانت غريبة بالمطلق، وكأنها أحداث (كما تشير أنت) من الحلم لا من الحياة الواقعية.

الأسبوع الماضي، قرأت "الجريمة والعقاب" للمرة الثالثة أو الرابعة، وبهت من كثرة ألاعيب الحبكة الشبيهة بقصة تشارلتن هيستن. إذ يتبيّن أن أبعد الناس عن بعضهم البعض جيران لبعضهم البعض. فيتصادف أن يكون خطيب دونيا مقيما في نفس المبنى الذي تقيم فيه زوجة أم سونيا. الرجل الذي دمّرها تقريبا (أي دونيا) يتصادف أنه يعيش في الشقة المجاورة لسونيا. صعب التصديق؟ نعم، لكن له أثرا هائلا في خلق مناخ الحلم المحموم وهو سرُّ قوة الكتاب الهائلة. ما أقوله هو أنني أفترض أن هناك أشياء تحدث لنا في العالم الواقعي وهي أشبه ما تكون بالخيال. وكأنما يتبيَّن أن الخيال واقع، أو أننا ربما نكون بحاجة إلى إعادة النظر في تعريفنا للواقع . . .

مشاهدة المباريات على التليفزيون

أتفق معك أنه نشاط تافه، مضيعة حقيقية للوقت. ومع ذلك ما أكثر الساعات التي ضيَّعتها من حياتي بهذه الطريقة على وجه التحديد،

وكم من أصائل بددتها كما فعلت أنت في الثامن والعشرين من ديسمبر. الحسبة كلها لا بد أن تكون صادمة، ومجرد التفكير فيها يملؤني بالخجل.

تتكلم (مازحا) عن الخطيئة، لكن ربما المصطلح الحقيقى هو "المتعة المصحوبة بإحساس بالذنب" أو ربما "المتعة" وحسب. فى حالتى أنا، الرياضات التى أهتم بها هى التى كنت ألعبها بانتظام فى صباى. يجد الواحد نفسه فاهما اللعبة فهما حميميا، ومن ثم يكون قادرا على تقييم براعة المحترفين ومهاراتهم المدوِّخة فى كثير من الأحيان. لا أبالى مطلقا بهوكى الجليد على سبيل المثال لأننى لم ألعبه قط ولا أفهمه حقا. وفى حالتى أيضا، أميل إلى التركيز على فرق معينة ومتابعتها. وانغماس المرء في المشاهدة يزداد عمقا حينما يكون اللاعبون مألوفين له فردا فردا، فكلٌّ منهم شيء معلوم، وهذه الألفة تزيد المرء قدرة على احتمال الملل، في كل تلك اللحظات السقيمة التي لا يحدث فيها أي شيء من أي نوع.

لا شك أن فى الرياضة مكوّنا سرديا قويا. نحن نتابع التفافات الصراع وانعطافاته لنعرف النتيجة النهائية. لكن لا، ليست بالضبط كقراءة كتاب ـ على الأقل ليست كالكتب التى نكتبها أنت وأنا. لكنها قد تكون على علاقة وثيقة ببعض أنواع الأدب. فكِّر مثلا في روايات الإثارة، والروايات البوليسية . . .

[حالا: اتصال من صديق ينتظرني بالأسفل. أنا مضطر أن أذهب، وسأكمل عندما أعود]

. . . التى تبقى دائما نفس الكتب، تتكرر بلا نهاية، آلاف التنويعات البسيطة على نفس القصة، ومع ذلك تجد الجمهور جائعا إلى هذه الروايات جوعا رهيبا. وكأنما كل واحدة هي أداء جديد لطقس ما.

نعم، الجانب السردي هو الذى يبقينا حتى اللعبة الأخيرة، حتى دقة الساعة الأخيرة، ولكننى بصفة عامة أميل إلى أن أنظر للرياضة بوصفها نوعا من الفن الأدائى. أنت تشكو من إحساس الديجافو فى كثير من الألعاب والمباريات. لكن ألا يحدث لك مثل هذا عندما تذهب إلى حفل يقدم سوناتا البيانو المفضّلة لديك من أعمال بيتهوفن؟ أنت تعرف المقطوعة عن ظهر قلب ولكنك تريد أن تسمع كيف سيكون تفسيرها لدى عازف البيانو هذا بالذات. فهناك عازفو بيانو مشّاؤون، وهناك عدّاؤون، ثم يأتي من يجعلك تحبس أنفاسك.

لا أعتقد أن حفلين موسيقيين تشابها يوما تمام التشابه، فى كل حركة. ربما. ندف الثلج جميعها تبدو متشابهة، ولكن الحكمة السائرة تذهب إلى أن لكلٍّ منها فرادتها. أكثر من ستة بلايين إنسان يسكنون هذا الكوكب، ويفترض أن بصمة أصابع كل واحد منهم تختلف عن أى شخص سواه. وفي مئات مباريات البيسبول التى شاهدتها ـ وربما الآلاف ـ هناك فى كل واحدة تقريبا تفصيلة صغيرة أو حدث ما لم يمرّ بي من قبل في أي مباراة أخرى.

الجديد فيه متعة، والمعروف أيضا فيه متعة. متعة تناول طعام يعرفه المرء، متعة الجنس. مهما تكن غرابة الحياة الإيروتيكية للواحد منا، الأورجازم أورجازم، ونحن ننتظره بمتعة منبعها المتعة التي عرفناها فيه والتي منحها لنا في الماضي.

ومع ذلك، يظل المرء يشعر بالغباء بعد أن ينفق يوما كاملا أمام التليفزيون يشاهد الصغار يتدافعون بأجسادهم. الكتب الموضوعة على المنضدة لم تقرأ بعد. لا تعرف فى أى شىء مضت الساعات، والأسوأ، أن فريقك خسر. لذلك أقول لك من باريس، وأنا عارف أن عمالقة كرة القدم في نيويورك سوف يلعبون غدا مباراة مهمة وحاسمة ضد فريق قوي من فيلادلفيا، إنني لن أتمكن من المشاهدة، وإن هذا يملؤني بالندم.

مع سلام هائل لك عابر
للمحيطات والقارات

بــول

٢٦ يناير ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

الظاهر أنك تتعامل مع الرياضة بوصفها مسألة جمالية بالأساس، ومع متع مشاهدة الرياضة بوصفها متعا جمالية بالأساس. وأنا تراودني شكوك إزاء هذا النهج، ولجملة من الأسباب. لماذا تكون كرة القدم تجارة ضخمة في حين لا بد للباليه ـ وهو ذو جاذبية جمالية أرقى بالتأكيد ـ من الدعم؟ لماذا تبقى المنافسة "الرياضية" بين الروبوتات شيئا بغير أهمية؟ لماذا النساء أقل اهتماما بالرياضة من الرجال؟

ما يتجاهله النهج الجمالي هو الاحتياج إلى الأبطال، ذلك الاحتياج الذي تشبعه الرياضة، والذي يكون أمسّ ما يكون لدى الصبية الصغار فيُنشئ فيهم حياة فنتازية منتعشة، وإنني أشك في أن تكون بقايا هذه الفنتازيا الطفولية هي التي تضرم في الكبار ارتباطهم بالرياضة.

وأنا حينما أستجيب ـ بقدر ما ـ إلى الجانب الجمالي في الرياضة، تكون لحظات الجمال (الجمال: يا لها من كلمة معقدة!) هي التي أستجيب لها، لحظات الحركات (كلمة أخرى مثيرة) التي لا يمكن أن

تكون موضوع تخطيط منطقى بل تبدو وكأنها نوع من البركة التى تحل من أعلى على اللاعبين الفانين، لحظات يتخذ فيها كل شىء وجهته الصحيحة، فكل الضربات فى مواضعها، لحظات لا يرغب المشاهدون خلالها حتى في التهليل، إنما هو حمد صامت على أنهم كانوا على ذلك من الشاهدين.

لكن أي رياضى هذا الذي يريد ثناء على جماله في الملعب؟ حتى الرياضيات سوف يلقين عليك نظرة قاسية. الجمال، والجميل: تلك مصطلحات مخنثة.

لو أننى أنظر في قلبى نفسه وأسأل لماذا وأنا في مغرب أيامى لا أزال فى بعض الأحيان مستعدا لقضاء ساعات فى مشاهدة الكريكيت على الشاشة، لا بد لى أن أقول ـ مهما بلغ هذا من عبث ومن إفراط فى الطموح ـ إننى لا أزال أبحث عن لحظات البطولة، لحظات النبل. بعبارة أخرى، أساس اهتمامي أنا أخلاقي أكثر منه جمالي.

عبثى الأمر، لأن أكثر الرياضة الاحترافية الحديثة لا يبالى بالأخلاق: إنما هو يستجيب لتوقنا إلى البطولة بمنظر البطولة لا أكثر. "صرخنا طالبين الخبز فأعطيتنا الحجارة" [إنجيل متى].

في حوار ما بعد المباراة. نرى ذلك الذي ظلّ على مدى ساعة أو اثنتين يهدّدنا بأنه سوف يتركنا ليرتقى وحده إلى مملكة ـ هى أدنى بخطوة واحدة من الجنة ـ يعيش فيها الأبطال، إذا به [فى حوار ما بعد المباراة] مرغم على استئناف وجوده البشري المجرد، أي أن يتحلى طقسيا

بالتواضع. يجد نفسه مرغما أن يقول "نعم، لقد عملنا وتعبنا من أجل هذا، وتعبُنا أثمر هذه النتيجة، والفضل لعمل الفريق" .

المرء لا يعمل لكى يكون بطلا. أقصد أن ما تقوم به استعدادا للمنافسة البطولية ليس "عملا" ، لا ينتمى إلى دائرة الإنتاج والاستهلاك. الاسبرطيون فى تريموبولاى كانوا يتقاتلون معا ويموتون معا، وكانوا أبطالا جميعا، ولكنهم لم يكونوا "فريقا" من الأبطال. فريق الأبطال عبارة لا تستقيم بما تنطوي عليه من تناقض بين الكلمتين.

أطيب الأمنيات

جــون

بروكلِن

٢ فبراير ٢٠٠٩

عزيزي جــون

أعتقد أننا لسنا مختلفين في هذا. كانت رسالتى من باريس فى أغلبها تتناول آراءك أنت فى مشاهدة الرياضة على شاشة التليفزيون (وهو موضوع ضيِّق لا يعدو أن يكون موضوعا فرعيا فى الحوار الواسع للغاية حول الرياضة بصفة عامة) وعن السبب الذى يجعلنا نختار ـ نحن الرجال الراشدين افتراضا ـ أن نهدر أصيل يوم أحد كاملا في متابعة أنشطة خالية جوهريا من المعنى يقوم بها رياضيون صغار فى ملاعب كرة نائية. هذا ما يشيع وصفه بالمتعة المصحوبة بإحساس الذنب، لكنها متعة غالبا ما تتركنا ونحن نشعر أننا فارغون، بل ونشعر بالاشمئزاز من أنفسنا بعدما تنتهي المباراة.

حينما ألقى أوسع نظرة ممكنة، يدهشنى أن موضوع الرياضة يمكن تقسيمه إلى فئتين كبيرتين: الإيجابى والسلبى. من ناحية هناك خبرة المشاركة فى الرياضة نفسها. ومن ناحية أخرى، هناك خبرة مشاهدة الآخرين إذ يلعبون. ولمّا كنا بدأنا ـ كما هو واضح ـ بمناقشة الفئة الثانية، فسوف أبذل أقصى جهدي للبقاء حاليا في حدود هذا الشقّ من الأمر.

المكوّن المعنوي الذي تشير إليه أمر في غاية الحيوية بالنسبة للصغار جدا. فأنت تعبد آلهتك وتريد أن تحاكيها، وكل منافسة هى مسألة حياة أو موت. غير أن هذه الجوانب ضعفت كثيرا فى سنّى المتقدمة هذه، وبتّ أنزع إلى اكتشاف أننى أتابع المباريات من مسافة أبعد كثيرا، باحثا عن "المتعة الجمالية" أكثر منّى ساعيا إلى إضفاء الشرعية على وجودى من خلال أعمال الآخرين. وليس بهدف التأكيد على النقطة، تعال نسقط منظور الشيخ حاليا من حساباتنا. تعال نرجع إلى البدايات ونتذكر ما الذي كان يجري لنا في ماضينا البعيد.

أنت تستخدم كلمة "البطولى" في موضعها الصحيح، بل إن استخدامك لها أمر لا غنى عنه من أجل فهم طبيعة هذا الهوس الذى يبدأ حتميا فى فجر الحياة الواعية. لكن ما معنى الكلام عن البطولى فى ما يتعلق بالطفولة المبكرة؟ أظن أن الأمر يتعلق في حالة الصبية الصغار بفكرة الذكورة، بتحديد الهوية الجنسية، بتهيئة المرء نفسه لأن يكون رجلا . . . لا امرأة.

ولقد ربّيت طفلين ـ صبيا وفتاة ـ فكان يذهلنى (ويسلينى تسلية كبيرة في غالب الأحيان) أن أشاهد هويتيهما الجنسيتين إذ تتبدّيان وهما في حوالى الثالثة. فى كلتا الحالتين، كان ذلك يبدأ من خلال محاكاة مفرطة ـ وشديدة المبالغة ـ لما يعنيه أن يكون المرء رجلا أو أن يكون امرأة. فى حالة الولد، كان الأمر يدور حول سوبر مان والرجل الأخضر وتقمّص الشخصيات الخيالية ذات القدرات السحرية الساحقة. وبالنسبة للفتاة (التي سألتنا وعمرها سنتان عما إذا كان سيحدث لاحقا أن يطلع لها

قضيب) كان الأمر يتعلق بأحذية الحفلات، والكعوب العالية المنمنة، والجيبات بالغة القصر، والتيجان البلاستيكية، والهوس باقتناء دمى راقصات الباليه وأميرات الحواديت. تلك بضاعة كلاسيكية ولا شك، لكن لأن الصبية والفتيات يحتاجون لفترة حتى يفهموا أنهم صبية وفتيات، تكون خطواتهم الأولى نحو تحديد الهوية الجنسية متطرفة بالضرورة، وموسومة بالولع بالرموز والحليّ الخارجية المرتبطة بجنس كل منهما. ولا يكاد الموضوع ينتهي (في الخامسة تقريبا) حتى ترى الفتاة التي كانت تصرّ على لبس الفساتين طول الوقت وهي تتقبل بكل سرور أن ترتدي البنطلون دونما خوف من أن تتحول صبيا.

وأنا طفل أمريكي في أوائل الخمسينيات، بدأتُ تقليد حياة رعاة البقر الذكورية. ومرة أخرى كان الأمر كله يتعلّق بالمظاهر الخارجية، الحذاء طويل الرقبة، القبعة، المسدسان المعلقان في جرابيهما. ولأنه ما كان يمكن لراعى بقر يحترم نفسه أن يرضى باسم بول فقد كنت أصر كلما ارتديت زيى الغربى المتوحش أن تنادينى أمى بـ جون ولا أرد عليها إن حصل مرة ونسيت. (أنت لم يحدث أن كنت طفلا أمريكيا يا جون، أم حدث؟)

ثم حدث ـ لا أتذكر بالضبط فى أية لحظة، ولكن من المؤكد أنه حدث فى ما بين الرابعة من عمرى والخامسة ـ أن استولى عليّ حبٌ جديد، وطائفة جديدة من الرموز، وعالم جديد أثبت ذكورتى فيه: كرة القدم (فى نسختها الأمريكية). لم أكن لعبت مباراة قط، ولا أظننى كنت أفهم أي شيء من قواعد اللعبة، ولكن حدث في مكان ما، بطريقة ما

(ربما من خلال الصور الصحفية أو التليفزيون) أن استقر في رأسى أن لاعبى كرة القدم هم أبطال العالم الحديث عن حق. ومرة أخرى اقتصر الأمر على المظاهر الخارجية. لم أرد أن ألعب كرة القدم بقدر ما أردت أن ألبس زي لاعب كرة قدم، أن يكون عندي زي اللعب، وحققت لى أمى السمحة دائما أمنيتى واشترت لى الزى. الخوذة، وواقيى الكتفين، وقميصا ذا لونين، والبنطلون المخصوص الذى يصل إلى الركبتين، وذلك كله مع الكرة الجلدية، فبتّ قادرا على النظر إلى نفسى في المرآة وتمثيل أننى لاعب كرة قدم. بل إن هناك صورا فوتوغرافية توثّق الاستغلال الخيالى لهذا الصبى الصغير فى زيّه الأصلى، وهو الذى لم يلمس قط كرة في ملعب حقيقى، والذي لم يخرج بزيه هذا خارج نطاق حديقة الشقة الصغيرة التي كان يعيش فيها مع أبويه.

وفي النهاية، بطبيعة الحال، بدأت ألعب كرة القدم، والبيسبول أيضا. وينبغى لى أن أضيف أننى كنت متفانيا تفانى المتعصبين، وكلما كنت أزداد اهتماما بالقيام بهذه الأشياء، كنت أزداد اهتماما بمتابعة أداء العظماء، المحترفين. وقد حكيت لك في البرتغال عن تلك الرسالة المتهورة شبه الجنونية التى بعثتها إلى أوتو جراهام (أفضل ظهير فى تلك الفترة ونجم كليفلاند براونز فريق البطولات) أدعوه فيها إلى حفل عيد ميلادي الثامن، والردّ الذي أوضح لى فيه أنه لن يتمكن من الحضور. منذ أن حكيت لك تلك القصة وأنا أفكر فيها، وأبحث عن مزيد من التفاصيل، محاولا أن أصل إلى فهم أعمق لدوافعى فى ذلك الزمن. أتذكر الآن بوضوح كيف أنني تخيّلت مجيء أوتو جراهام إلى منزلي وذهابي وإياه

إلى الفناء الخلفى حيث مضينا نلعب الكرة. تلك ما يقال لها حفلة عيد ميلاد. لم يحضر أى ضيوف آخرين، لا أطفال ولا حتى أبواي، ليس إلا شخصي ذا السنوات الثماني والخالد أوتو.

أرى الآن - بل إننى على أكبر قدر من اليقين - أن هذا الخيال ما كان يمثل غير رجاء فى أب بديل. ففى أمريكا عقلى الطفولى كان يفترض بالآباء أن يلعبوا الكرة مع أبنائهم، ونادرا ما كان أبى يلعب معى، ونادرا ما كنت أجده متاحا بأى من الطرق التى كنت أتخيل أنه يفترض أن يجد عليها الأبناء آباءهم، فدعوت إلى بيتى بطل كرة القدم راجيا الرجاء الخائب في أن يمنحنى ما عجز أبى دوما عن منحى إياه. فهل الأبطال جميعا آباء بدلاء؟ وهل لهذا السبب يبدو الأولاد أحوج إلى الأبطال من البنات؟ ألا يعدو تركيز الصغار على الرياضة مثالا آخر للنضال الأوديبى الدفين؟ لا أعرف. لكن جنون جماهير الرياضة وهوسهم - لا أقول جميعهم، ولكن عدد هائل منهم على أية حال - لا بد أن يكون نابعا من موضع عميق في الروح. ثمة في هذا الصدد ما هو أكثر من التلهِّي العابر أو التسلية.

لا أعنى هنا أن فرويد هو الوحيد الذى يمكن أن يكون لديه ما يقوله في هذه المسألة، لكن لديه ولا شك ما يضيفه إلى حوارنا هذا.

أعرف أننى أرد على ملاحظاتك فى الغالب بحكايات عن نفسى. لكن افهم: أنا غير مهتم بنفسي. إنما أقدم لك دراسات حالة، قصصا عن مجرد شخص.

مع أدفأ الأفكار

بـــول

١٥ مارس ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

تكتب عن تعلق الطفل الذكر الصغير بالأبطال الرياضيين، وتمضي فتفرق هذا عن نزوع الكبار إلى طلب الجمالي في الفعاليات الرياضية.

وأنا مثلك أعتقد أن مشاهدة الرياضة على شاشة التليفزيون تضييع للوقت في أغلب الحالات. ولكن هناك لحظات لا تكون وقتا ضائعا، كتلك التى كانت تظهر لنا بين الحين والآخر فى أيام [لاعب التنس] روجر فيديرر ـ على سبيل المثال. وفى ضوء ما تقوله، أعيد الرجوع فى الذاكرة لأدقق في هذه اللحظات، أعود إلى فيديرر إذ يضرب بظهر المضرب كرة عابرة للملعب. وأسأل نفسي: هل الجمالي حقا، أو الجمالي وحده، هو الذي يحيي لي هذه اللحظة؟

يبدو لى أن فكرتين تعبران بذهنى إذ أشاهد: (١) لو أننى قضيت مراهقتى فى التدرُّب على مثل هذه الضربات الخلفية بدلا من . . . إذن لأمكننى أنا الآخر أن ألعب ضربات كهذه فأجعل الناس فى شتّى أرجاء العالم يحبسون أنفاسهم من فرط الذهول؟ وتليها: (٢) وحتى لو كنت

قضيت مراهقتى كلها أتدرب على اللعب بظهر المضرب ما كنت لأقدر على ضربة كتلك، ليس فى ظل توتر المنافسة، ليس وقتما أشاء. ومن بعد: (٣) لقد رأيت للتوّ شيئا هو فى الآن نفسه إنساني ومجاوز لما هو إنساني، لقد رأيت للتوّ شيئا أشبه ما يكون بمثال تحقَّق.

ما أود أن ألاحظه فى هذه المجموعة من ردود الفعل هو الطريقة التى يسبق فيها الحسد إلى الظهور في رأسى ثم تبدُّده. يبدأ المرء يحسد فيديرر، ثم ينتقل من هذا إلى الإعجاب به، ثم ينتهى المرء لا حاسدا ولا معجبا بل فخورا بإدراك ما لبشر ـ بشر مثلي ومثلك ـ أن يفعله.

وذلك ما أجده شديد الشبه بردود أفعالى على الروائع الفنية التى قضيت فيها (تأملا وتحليلا) وقتا كثيرا إلى حد أن أصبحت عندى فكرة جيدة عن طريقة إنتاجها: يمكننى أن أرى كيف تم عملها، ولكن ما كان بوسعى أن أنتجها بنفسى، ذلك يتجاوز قدرتى، ولكن الذي أنتجها رجل مثلى (أو امرأة بين الحين والآخر)، فيا له من مجد أن أنتمي للسلالة التي يمثّلها هذا الرجل (وبين الحين والآخر هذه المرأة).

وفي تلك المرحلة لا يعود بوسعي أن أميِّز الأخلاقي عن الجمالي

وعلى سبيل الحاشية على أفكاري حول الأزمة المصرفية الراهنة، هل أستشهد بتعليق صادفته لجورج سوروس؟ "السمة الخارجية في الأزمة المالية الراهنة هي أنها لم تنتج عن صدمة ما خارجية... لقد تولّدت

الأزمة عن النظام نفسه" . يدرك سوروس ولو بصورة ضبابية أن شيئا لم يحدث ، وأن الأشياء الوحيدة التي تغيّرت هي الأرقام .

مع أطيب الأمنيات

جون

بروكلِن

١٦ مارس ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

في ضوء ما نقلته عن جورج سوروس، هذه جمل من بروفة كتاب تلقيته قبل أيام، لصديق وأستاذ جامعي هو مارك سي تايلور، وسيصدر عن مطبعة جامعة كولمبيا: "منذ سبعينيات القرن العشرين نشأ شكل جديد من الرأسمالية التمويلية. في أشكال الرأسمالية السابقة (أي الرأسمالية الصناعية أو الاستهلاكية) كان الناس يجنون المال بشرائهم وبيعهم العمل أو الخامات. أما في الرأسمالية التمويلية، في المقابل، فالثروة تنشأ عبر تداول علامات لا يدعمها شيء غير علامات أخرى، في حالة انتكاس ـ هي لأسباب عملية ـ غير محدودة. باتت الأسواق المالية لعبة ثقة معقدة، وبات أربابها الكبار هم النسخ المحدثة من 'رجل الثقة' عند ملفيل. . . ".

إليك منعطفا جديدا في تاريخ بيكيت قد يكون مسليا لك. تلقيت قبل أسبوعين دعوة لحضور مهرجان أدبي جديد يقام خارج دبلن في سبتمبر وأن ألقي ـ تخيّل هذا ـ كلمة صمويل بيكيت السنوية الأولى. عذّبت نفسي بهذا الأمر أياما ثم وافقت في نهاية المطاف على قبول الدعوة. أرجو ألا أكون اقترفت خطأ رهيبا. وأرجو، بطريقة ما، أن نقدر عليها معا.

وفي هذا الشأن، اشتريت نسخة من الجزء الأول من رسائل بيكيت الأسبوع الماضي ومضيت أنقِّب فيها بشيء من الافتتان المقبض. لم يسبق لي قط أن رأيت كتاب مراسلات بهذا الحجم وهذا الثقل. وأفهم الآن شكوكك وارتباكك إزاء الكتابة عنه. فالتمييز بين "العمل" و"الحياة" أوجد كتابا ينقصه الكثير. وإنه يحبطني في أوقات (أعترف بهذا) بدلا من أن يضجرني. وأشتاق فعلا إلى قراءة مقالتك.

. . . يمكن أن ننحِّي الرياضة جانبا لو أحببت، ولو أنه كان فى نيتى أن أسهب كثيرا فى الجزء الثانى من السؤال (أى المشاركة فى الرياضة بدلا من مشاهدة الآخرين وهم يمارسونها): عن لذّة المنافسة، وتوتر التركيز اللازم الذى يمكنّك فى بعض الأوقات من تجاوز حدود وعيك، ومفهوم الانتماء إلى فريق، وضرورة تقبّل الفشل، ومواضيع أخرى كثيرة. ولعلى فى مرحلة قادمة أجلس فأكتب تلك الرسالة حتى لو كنا في غمار شيء آخر. فلا يزال هذا الموضوع يثير اهتمامي كثيرا.

أما عن إحساسك بالفخر وأنت تشاهد فيدرر فى أيام مجده، فأنا معك تماما. إحساسك بالرهبة إذ ترى إنسانا مثلك يحقق مثل هذه الأشياء، إذ ترى أننا (كسلالة) لسنا مجرد هذه الديدان التى غالبا ما نبدو أننا لا نزيد عنها، بل نحن قادرون أيضا على تحقيق المعجزات - فى التنس وفى الموسيقى، وفى الشعر، وفى العلم - وأن الحسد والإعجاب يذوبان فى إحساس طاغ بالبهجة. نعم، أتفق معك تماما. وهنا هو الموضع الذى يمتزج فيه الجمالى والأخلاقي. وليست لديَّ حجة معارِضة، فأنا عن نفسي غالبا ما شعرت بمثل هذا.

مع أروع الأفكار

بــول

٦ أبريل ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

قبل أن تقول لي أفكارك عن لذة المنافسة، عندي تعليق استباقي.

في مطلع العشرينيات من عمري، كنت منغمسا في الشطرنج حتى أذنى. وكنت ـ على مدار سنوات ـ قد قضيت أغلب أيام عملى فى كتابة الأكواد للكمبيوتر، وكنت أشعر أننى مستلب في هذه المسألة استلابا كان يشعرني في بعض الأحيان أنني أهوي إلى جنون يستولي فيه المنطق الآلي على عقلي.

وأدركت نفسى فتركت الكمبيوتر وسافرت إلى الولايات المتحدة للدراسات العليا. وعلى متن السفينة العابرة للأطلنطى (نعم، في ذلك الزمن كان بوسع المرء أن يسافر بالبحر إذا لم يكن لديه ما يكفى من المال، فى رحلة كانت تستغرق خمسة أيام) اشتركت فى مسابقة شطرنج وصلت فيها إلى الجولة النهائية وكان خصمي فيها طالب هندسة من ألمانيا اسمه روبرت.

بدأت مباراتنا عند منتصف الليل. وطلع الفجر وكنا لم نزل منحنيين على الرقعة. كان روبرت يزيد عنى بقطعة، لكننى كنت أشعر أن الأفضلية التكتيكية لي أنا. أخذ آخر المتفرجين القلائل المتبقين حول

المنضدة ينسحبون راغبين في أن يحظوا بنظرة إلى تمثال الحرية. وبقينا وحدنا أنا وروبرت.

وكان أن قدّم لى روبرت عرضا. "سأمنحك التعادل". قلت "أوكيه". وقفنا، تصافحنا، ونحّينا الرقعة.

كان هو متقدما بقطعة، وأنا كانت لي الأفضلية التكتيكية، كان التعادل إذن تسوية منصفة، صح؟

رسونا. صرت فى مدينة نيويورك الخرافية. ولكن حالة المسابقة لم تزايلنى، حالة الإثارة الدماغية، حالة الحمّى، والقليل من الغثيان، وكأنما أعانى التهابا حقيقيا فى المخ. لم يثر شيء انتباهي من كلٍّ ما كان حولي. كان ثمة ما لا يكف عن الطنين بداخلي.

مررت أنا وزوجتى من الجمرك ثم وجدنا طريقنا إلى محطة الأتوبيسات. كان علينا أن نستقلّ أتوبيسين مستقلين، هى إلى جورجيا لتقيم مع أصدقائها وأنا إلى أوستن لأبحث عن مكان نعيش فيه. ودّعتها شارد الذهن. كل ما كنت أريده هو أن أكون وحدي، فأعيد مباراة الشطرنج على الورق وأدحض الشك الذى كان ينخسنى. طوال الطريق إلى تكساس فى أتوبيس جريهاوند (يومان؟ ثلاثة؟) وأنا أدرس خربشاتى، متحققًا من هاجس يقول لى إننى ما كان ينبغى أن أقبل بالتعادل ـ وإنه في غضون ثلاث نقلات أو أربع أو خمس كان روبرت الألماني سيجد نفسه مرغما على الاستسلام.

كان ينبغى في ذلك الوقت أن يكون على شفتى أول كأس من مشاهداتى فى العالم الجديد. كان ينبغى أن أكون مستغرقا فى التخطيط لحياتى الجديدة الممتدّة أمامى. لكن لا، كنت فى قبضة الحمّى. كنت أصارع الجنون في هدوء. كنت رجلا مجنونا في آخر الأتوبيس.

تلك الواقعة هى التى تخطر على ذهنى عندما تكتب عن لذّة المنافسة. ما يرتبط بالنسبة لى بالمنافسة ليس اللذة إطلاقا، بل حالة استلاب يكون فيها تركيز العقل منصباًّ على هدف واحد عبثى: أن يلحق الهزيمة بغريب ليس له أيُّ اهتمام به، ولم يقابله من قبل ولن يراه من جديد.

ذكرى معاناتى نوبة الجذل تلك، قبل نحو نصف قرن، هى التى حصَّنتنى إلى الأبد من الرغبة فى أن أكون الفائز مهما يكن الثمن، فى أن أهزم هذا الخصم أو ذاك وأتربَّع على القمة. لم ألعب الشطرنج منذ ذلك اليوم. لعبت رياضات أخرى (التنس، والكريكيت) وركبت الدراجة كثيرا، ولكنى لم أكن أطمح فى كل ذلك إلى أكثر من أن أبذل أقصى ما أستطيع بذله. أما الفوز والخسارة ـ فليست لأيٍّ منهما أية أهمية؟ وحكمى على إجادتى من عدمها مسألة شخصية، أمرها بين نفسي وما يحلو لي أن أسميه ضميري.

لا أحب من الرياضات ما تحمل نفسها على محاكاة الحرب، فيكون المهم فيها هو الفوز، ويكون الفوز مسألة حياة أو موت، تلك الرياضات التي تخلو من الجمال، مثلما تخلو الحرب من الجمال. وفي أعماق عقلي،

رؤية مثالية ـ لعلها ملفَّقة ـ لليابان، حيث شخص يحجم عن إلحاق الهزيمة بخصمه لأن ثمة عارا في الهزيمة وعارا في إلحاق الهزيمة.

أفضل الأمنيات

جـــون

٨ أبريل ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

شهور وأنا أعيش حالة من الكآبة والحزن. في موسم موت وجنازات ومراسم وخطابات عزاءات، وحتى في حين تعلن العناوين انهيار عالمنا المهلهل المعيب، فإن هذه الخسائر الشخصية تؤثر فيّ تأثيرا أعمق من اضطرابات العالم الأكبر المضطرم.

في يوم الكريسماس انتحار فتاة في الثالثة والعشرين هي ابنة أحد أعز أصدقائي. في فبراير، وفاة صديقة وحبيبة عرفتها منذ أن كنت في السابعة عشرة. وفي الشهر الماضي، وفاة عبثية لصديقة في الخامسة والأربعين من العمر إثر سقطة عادية. كلهن نساء، وكلهن ذهبن قبل أن يعشن الوقت المخصَّص لأغلب الناس. أقول لنفسي إنني رأيت ما يحصنني من الاندهاش، وإن هذا هو العالم، وإننا جميعا كائنات فانية، وإن نهايتنا قد تأتي في أي وقت، وليس في اتساع الرؤية أتفه نتفة من العزاء. ويتوجع القلب. وذلك ببساطة داء لا دواء له.

قصة الشطرنج التى حكيتها ـ وهى أيضا قصة رعب من نوع ما ـ تجعلني أعيد النظر في ما أعنيه بـ "المنافسة".

(لى سنوات لم ألعب الشطرنج، لكننى في مرحلة من حياتى، في مطلع العشرينيات من عمرى كنت منغمسا فيه، مثلك. هى بلا جدال اللعبة الأكثر استحواذا، وأكثر لعبة اخترعها الإنسان تدميرا للعقل. بعد فترة وجدت أنى أحلم بالنقلات في نومي، فقررت أنني لا بد أن أتوقف عن اللعب وإلا أصابني الجنون).

عندما استخدمت عبارة "لذة المنافسة"، أظن أننى كنت أشير إلى إحساس الانطلاق الذى ينتابك عندما تمنح نفسك كاملةً للعبة، والنفع الذى يجنيه الجسم والعقل من جراء التركيز المطلق فى مهمة معينة فى لحظة معينة، إحساسك بأنك "خارج نفسك"، وتخفُّفك مؤقتا من عبء وعيك بذاتك. الفوز والخسارة لازمان لكنهما عاملان ثانويان، ما هما غير مبرر لكى يبذل المرء أقصى جهده فِى إجادة اللعب، لأنه بغير بذل أقصى الجهد، لا يمكن نيل اللذة الحقيقية.

كان المران بهدف المران، ولا يزال، مضجرا لى. الثنى والمد، والهرولة فى التراك "حفاظا على اللياقة"، ورفع الأثقال، واللعب هنا وهناك بكرة طبية، كل هذه الأشياء لا تترك الأثر الصحى الذي تحققه المنافسة. أنت إذن تحاول الفوز بمباراة تلعبها، تنسى أنك تجرى وتقفز، تنسى أنك فعليًّا تنال جرعة صحية من المران. تفقد نفسك فى ما تفعله، ولأسباب لا أفهمها فهما كاملا، يبدو أن هذا الفعل يبثُّ فيك سعادة بالغة. وثمة أنشطة أخرى فوق بشرية بالطبع ـ من بينها الجنس، وإنتاج الفن أيضا، وتلقِّي الفن أيضا، ولكن الواقع يقول إن العقل يتجوّل أحيانا

أثناء الجنس ـ الذي لا يكون في جميع الحالات مجاوزا ـ وأثناء إنتاج الفن (وانظر إلى كتابة الروايات) ويمتلئ بالشكوك، والتوقفات، والإزالات، ولا يكون بوسعنا طوال الوقت أن نمنح تركيزنا كله لسونيتا شكسبير التى نقرؤها أو أوراتريو باخ التى ننصت إليها. أما إذا لم تكن منغمسا تماما في المباراة التي تلعبها، فإنك في الحقيقة لا تلعبها.

ولا ينبغى أن نتغاضى عن مسألة الإنهاك. لو أن جسمك تعب في غمار مباراة، فقد فقدت تركيزك ورغبتك فى الفوز (أى المقدرة على بذل أقصى الجهد). ولذلك لا يلعب الرياضات الشاقّة التنافسية إلا الشباب، ولذلك أيضا ينتهى أغلب الرياضيين المحترفين دون أن يبلغوا منتصف الثلاثينيات. ولكن ثمة لذة أكيدة فى محاولة المرء تجاوز حدوده التي يعرفها، ومواصلته بذل أقصى الجهد حتى بعد زوال طاقته.

وإننى أتذكر بصورة جلية آخر مآثري في المجد الرياضى. قبل أكثر من عشرين عاما كنت ألعب فى دورى ناشرى نيويورك للبيسبول مرة كل أسبوع فى حديقة سنترال بارك ضمن فريق فايكنج بنْجون (ناشرك الحالى، وناشري السابق). كانت الفرق مختلطة، والمباريات متهاونة، وكنت أقترب من الأربعين أو تجاوزتها، فكنت أستمتع بإعادة تنشيط عضلاتى الكروية ولكننى (بقوة العادة أو الحالة المزاجية) كنت ألعب بجدية. وذات مساء، وأنا واقف في موقعى من الملعب (في القاعدة الثالثة)، ألقى اللاعب الكرة بعيدا جهة اليمين. ولما رأيت منحنى الكرة عرفت أنه لا فرصة لي في نيلها، ولكن (ومرة أخرى بقوة العادة أو الحالة

المزاجية) تتبعتها على أية حال. دافعا بأسرع ما استطعت ساقين تجاوزتا الشباب، أخذت أجرى لمدة بدا لى أنها تبلغ عشر دقائق، وأدركت أن نعم، هناك فرصة، وفى اللحظة الأخيرة، وقبل أن ترتطم الكرة بالأرض، اندفعت بأقصى ما أستطيع، والتقطت الكرة بأقصى طرف قفازى، وأنا أزحف ببطنى على العشب. لا تنس أنها كانت مباراة لا قيمة لها، فما هى إلا منافسة ودية بين محررى كتب هازلين، وموظفى سكرتارية واستقبال وصادر ووارد، ومع ذلك أردت أن أندفع وراء تلك الكرة لا تدفعنى غير رغبة بسيطة فى أن أدفع نفسى، أن أرى إن كانت بداخلى القدرة على الإمساك بها. انقطع نفسى طبعا، وتألمت ركبتاي ومرفقاي بشدة، ولكنني كنت أشعر بالسعادة، بسعادة رهيبة وغبية.

أريد من هذا أن أقول إننى معك. ليست الفكرة فى الفوز، بل فى الأداء، أدائك أقصى ما في وسعك. مباراتك في الشطرنج مع ذلك الغريب على متن السفينة وضعتك وجها لوجه أمام جزء شيطانى من نفسك، فلمّا رأيت ما صرت إليه، تراجعتَ مشمئزاً. أنا لم أر مثل هذا قط. ولا أعتقد في حقيقة الأمر أننى شعرت يوما بمثل ذلك الجوع إلى الفوز الذى شعرت به أنت فى مباراتك مع الألمانى سنة ١٩٦٥. فهل للأمر علاقة بالفارق بين رياضات الفرق والرياضات الفردية؟ لقد ظللت طوال فترة صباي ومراهقتى ألعب ضمن فرق (للبيسبول وكرة السلة بالأساس) ونادرا ما نافست فى مسابقات فردية (كالجرى، والملاكمة، والتنس). ومن بين مئات المباريات التى شاركت فيها، أظن أن الفرق التى لعبت لها كانت تكسب بقدر ما تخسر تقريبا. كان الفوز دائما، وطبعا، أكثر

إمتاعا من الخسارة، ولكنني لا أذكر حتى إحساسى أن الخسارة دمرتنى، اللهم إلا فى المرات القليلة التى كنت أتسبّب فيها في إفساد لعبة حاسمة فأشعر بالمسئولية وقد خذلت زملائي.

غير أننى أتصورّ أن الرياضات الفردية تزيد الأنا تورطا، ومن ثم تزيدها تعرضا للمخاطرة. ومن هنا اضطرارك رغم أنفك إلى إعادة مباراة الشطرنج في تلك الرحلة الرهيبة إلى تكساس. لقد كنت تشعر أنك اللاعب الأفضل، ثم أثبتّ ذلك، ولمت نفسك لأنك قبلت بالتعادل. ولكن ما الحال لو أن العكس هو الصحيح، عندما تعرف أنك لست اللاعب الأفضل؟

إننى أفكر فى التنس، وهى رياضة لم أقض معها وقتا كبيرا ولم أبرع فيها قط (ضرباتى الخلفية بشعة) ولكننى مع ذلك أحب أن ألعبها. أبى، الذي كان يعيش التنس ويتنفسه، بل الذي يتحدّد مجرد وجوده نفسه بحبه للعبة (لسنوات طوال كان يستيقظ فى السادسة صباحا ليقضى معها ساعتين قبل أن يذهب إلى شغله)، أبى هذا كان لا يزال قادرا أن يفوز علىّ وهو في الستينيات وأنا في العشرينيات. وبرغم أننى كنت أعلم أننى فى الغالب لن أستطيع أن أفوز، كنت أبذل أقصى الجهد فى لعبى معه، وأقيس نجاحى بمدى قدرتى على الاحتفاظ بالكرة داخل الملعب، على مدى إحساسى بتحسُّن مستواي، إلخ. لم تكن الخسارات تؤلم. في المقابل، أرى بعض الانتصارات جوفاء، بل وكريهة. قبل خمسة عشر عاما أو ثمانية عشر، لعبت التنس مع كاتب صديق تبيَّن أن مستواه ضعيف

للغاية، مأساوي الرداءة، لدرجة أنه لم يتمكن من الحصول على نقطة واحدة مني. لم أشعر بلذة فى الفوز. لم أشعر إلا بالرثاء لخصمي الشجاع البائس الذي قفز إلى طرف المسبح العميق وهو لا يجيد العوم.

وإذن، لذة المنافسة تبلغ ذروتها عندما يتساوى الخصمان.

مع أفضل الأفكار

بـــول

٢٤ أبريل ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

شكرا على إرسالك "الخفي" التي قرأتها في جلستين طويلتين، أو قل قضمتين كبيرتين.

كنت قد قلت لي في نوفمبر الماضي إن في كتابك التالي زنا محارم، ونظرا للتعقيد المضاف الذي تقدمه لا سيما ما يتعلق بسؤالك: أين يجري تحديدا فعل زنا المحارم، في السرير أم في العقل أم في الكتابة؟، لم أفهم كيف يكون زنا المحارم قريبا من جوهر الكتاب.

هو موضوع مثير، زنا المحارم، موضوع لم أوله الكثير من التفكير الواعي حتى الآن، (وكيف لأحد أن ينكر ـ في زمن ما بعد فرويد ـ أنه لم يوله تفكيرا غير واع؟) يبدو لي مدهشا ومثيرا أننا، حتى في لغتنا الدراجة، نستخدم نفس الكلمة للدلالة على الجنس بين الأخ والأخت مثلما نستخدمها للدلالة على الجنس بين الأب والابنة أو الأم والابن (ولننحِّ جانبا الآن أيَّ احتمالات مثلية). يصعب أن نشعر بالانفعال والاشمئزاز في الحالة الأولى مثلما نشعر بهما في الحالتين الأخيرتين. أنا لا

أخت لي، ولكنني أجد من السهل للغاية أن أتخيل مدى غواية ألعاب الجنس بين أخ وأخت متقاربين في العمر ـ أعني ألعاب الجنس التي تتطوّر إلى ما هو أكثر من ألعاب الجنس ـ كما في كتابك. في حين أن ممارسة المرء للجنس مع أحد من نسله تبدو خطوة وأي خطوة. أعتقد أنه كان يجدر بنا أن نوجِد مصطلحيْن مختلفين للفعلين الأخلاقيين المختلفين.

شهدت السنة الماضية قضية في ريف جنوب أستراليا حوكم فيها رجل وابنته عاشا لعقود عيش رجل وامرأته في شيء من العزلة. لا أتذكر التفاصيل كلها، لكن القاضي حكم بالتفريق بينهما، وبأن لا يقترب الأب/ الزوج من حيث تعيش الابنة/ الزوجة وإلا كان مصيره السجن. وهي عقوبة تبدو لي قاسية، خاصة وأن الشكوى لم تأت من أيٍّ من الشريكين بل من الجيران.

والحق أن ممارسة الجنس بين الآباء والأبناء توشك أن تكون آخر ما يبقى في مجتمعنا من التابوهات الجنسية. (وإنني أتنبّأ مطمئنا بأن "الخفي" لن تجابه صرخات غضب، بما يؤكد إحساسي بأن الجنس بين الأخ والأخت مقبول، أو أن الحديث والكتابة عنه مقبولان على أقل تقدير). لقد مرَّ عهد طويل بيننا وبين المجتمعات التي كانت تنقسم إلى طوائف اجتماعية لا بد أن يتحدَّد الجنس بداخلها ولا يخرج عنها. وأفترض أن ظهور وسائل منع الحمل اليسيرة كانت علامة على زوال التابوهات الجنسية: فلم تبق من قوة لشبح احتمال أن تنجب المرأة مسخا مشوها.

أحسب أنه لم يولَ القدر الكافي من الانتباه للدور الذي لعبته تقاليد تربية الحيوانات في خلق التابوهات الجنسية والعرقية، فهذه التقاليد تحدِّد أيّ السلالات هي التي يمكن السماح بالتزاوج بينها، أو حجم درجات الفصل التي لا بد منها في نسل معين، وقد تطوَّرت هذه التقاليد على مدار مئات الأجيال من تربية الماشية.

على أية حال، في يومنا هذا يبدو أن أشياء كثيرة تمرّ. فالسعار الديني الذي كان يحتدم حول نطاق كامل من الأفعال الجنسية المحرمة (بما فيها الزنا!) بات اليوم يتركز على فعل واحد، هو على وجه التعيين ممارسة الجنس مع الأطفال وهي ـ في ما أفترض ـ طريقتنا لتوسيع نطاق تابو الأب والابن.

المثير أنه عندما يتعرض الزناة للعقاب في أركان العالم الظلامية (وأبرزها الأركان الظلامية في العالم الإسلامي) فإننا ننتقد القانون الذي يعاقبهم بدعوى تجاهله حقوق الإنسان. أي نوع من العالم هذا الذي نعيش فيه ويكون من حقوق الإنسان فيه أن نكسر التابو؟ أيُّ معنى لوجود تابو (كما قد يتساءل عندك آدم ووكر البيروني [نسبة إلى لورد بايرُن]) إذ لم يكن من كسره بأس؟

مع أطيب الأمنيات

جـــون

٢٥ أبريل ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

سعيد جدا أن " الخفي " وصلتك وأنك أتيت عليها بهذه السرعة.

لا، لم أول الكثير من التفكير الواعي أنا الآخر لموضوع زنا المحارم، إلى أن كَتبت الرواية على الأقل. وخلافا لك، لي أخت، ولكنها أصغر مني بقرابة أربع سنوات، وفكرة المضي معها على ذلك الطريق لم تخطر لعقلي ولو مرة واحدة. في المقابل، حلمت مرة وأنا في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة بأنني أمارس الحب مع أمي. واحترت وقتها في الحلم مثلما أنا حائر فيه اليوم، إذ يبدو أنه يقوّض المعادلة الفرويدية الكلاسيكية: التسامي بالرغبات من خلال رموز غامضة ومجاز مراوغ في الغالب، حيث يرمز كل شيء إلى شيء آخر. لا مجال لنظريته في ما اختبرته. وبحسب ما أتذكر، فإنني لم أنزعج مما جرى في الحلم، ولكنني بعدما استيقظت صدمت وثرت.

صدمت لأنني في العمق أفترض أنني أقبل بالتابو ولا أراه قابلا للكسر. ولا أعني فقط زنا المحارم بين الآباء والأبناء بل وبين الأخ

والأخت أيضا. ويبقى السؤال معلّقا حول ما إذا كان الذي يجري في روايتي بين ووكر وجوين هو فعل حقيقي أم غير ذلك، لكنني كان لا بد أن أكتب الفقرات من موضع الإيمان المطلق، وأعترف أنه كان صعبا عليّ، كما لو كنت قطعت السلك الشائك القائم بين سلامة العقل وظلمة الانتهاك. ومع ذلك فإنني أوافقك تماما على أن الكتاب لن يصادف صرخات غضب (ليس لهذا السبب على الأقل). بل أظن أن لديّ في واقع الأمر دليلا على ذلك. ففي مطلع الأسبوع الحالي، أقيمت قراءة مشتركة لي أنا وسيري في جامعة براون في بروفيدنس بدعوة من روبرت كوفر (وهو صديق قديم لم نره منذ فترة). قرأت صفحات من الجزء الثاني (تضمنت "التجربة الكبرى" وإن لم تتضمن واقعة ١٩٦٧ الخاصة بزنا المحارم الكامل) وبرغم أن سيري أخبرتني أن بعض الطلبة تضاحكوا في توتر، لم أجد شخصا واحدا يشير إلى هذه الفقرات بعد انتهاء القراءة. قالوا "قراءة لطيفة" أو مثيرة للغاية، كلنا لهفة إلى قراءة الكتاب"، دون أن يقول أحدهم شيئا عن محتوى ما استمعوا إليه.

وتأكيدا لكلامك عن تربية الحيوانات، تذكرت كتابا ترجمته قبل سنوات كثيرة لعالم الأنثروبولوجيا الفرنسي بيير كلاسترز ـ هو "سجل هنود جواياكي" ـ وكان عبارة عن دراسة ممتازة رشيقة اللغة لقبيلة بدائية صغيرة تعيش في أحراش أمريكا الجنوبية. في هذه القبيلة مثْليٌّ واحد، هو كريمبيجي، وفي ما يلي سرد مذهل لمن يمكن أن ينام معَه أو معهم، وأسباب ذلك:

القواعد النهائية للحياة الاجتماعية لدى الأتشي (الجواياكي) هي التحالف بين الجماعات الأسرية، والعلاقات التي تتشكَّل وتتحقَّق من خلال التبادل الزوجي، أو التبادل المستمر للنساء. فالمرأة موجودة بهدف التداول، لتصبح زوجة رجل ليس أباها، أو أخاها، أو ابنها. وبهذه الطريقة تقام البيتشا أي الأحلاف. لكن هل يمكن "تداول" رجل، وإن تواجد في القبيلة كامرأة؟ فكيف يمكن ردٌّ هدية هي على سبيل المثال كريمبيجي؟ هذا شيء لا يمكن تخيّله، لأنه ليس امرأة، بل مثليّ. إن القانون الأساسي لدى جميع الجماعات هو حظر زنا المحارم. ولكونه كايراباب مينو (وتعني حرفيا: محب الجماع الشرجي)، فقد كان كريمبيجي خارجا على هذا النظام الاجتماعي. وفي حالته، كان منطق النظام الاجتماعي ـ أو ما يقوم مقامه، وهو منطق النقيض، قد وصل إلى ذروته: كان شركاء كريمبيجي هم إخوته. 'بيتشا كيابي (وتعني كايراباي مينو) مينويا. والرجل الكايرابايمينو لا يمارس الحب مع حلفائه" . وهذه الوصية هي النقيض التام للقواعد الحاكمة للعلاقات بين الرجال والنساء. فالمثلية الجنسية لا تكون إلا بين الأقارب، فيضاجع الرجل أخاه، وفي استعارة زنا المحارم هذه يتأكد أنه لا يمكن وقوع أي زنا محارم حقيقي (بين رجل وامرأة) دون تدمير يتأكد ويتعزز للجسد الاجتماعي.

استثنائي، أليس كذلك؟ تشجيع زنا المحارم بهدف محاربة زنا المحارم. شيء يجعل الرأس يدور . . .

وملاحظة أخرى، أريد أن أهنئك على مقالتك في نيويورك رفيو عن رسائل بيكيت. عميقة، ومحبة، ومنصفة. سيري سعدت خصوصا بالمساحة التي أفردتها لـ بايون. وغداة مقالتك، وقبيل الكلمة التي وافقت على إلقائها في أيرلندا في سبتمبر القادم، مضيت بإخلاص أخوض في الكتاب، وها أنا إذ أوشك على الانتهاء منه أريد أن أنقّح تعليقاتي التي كتبتها لك مسبقا. هو ليس مملا. بل هو أبعد ما يكون عن ذلك، وأكثر ما أثّر فيَّ هو ذلك التطور البطيء المضني من السخيف المتغطرس العارف بكل شيء إلى الإنسان الأرضي البسيط. هناك ملاحظة على إحدى الرسائل الأخيرة (وليس الكتاب أمامي الآن فأحسن النقل عنه) تنقل عن رسالة من ماريا جولاس إلى زوجها حيث تقول شيئا من قبيل: إن بيكيت الآن أفضل، وهو ما يوحي في ظني بأنهما كانا لا يباليان به على المستوى الشخصي نهائيا ثم تغيّر الحال وتغيَّر رأيهما فيه.

ونعم، في الهوامش جهد استثنائي. لكن هل نحن بحاجة حقا إلى أن يقال لنا إن اسم هاربو ماكس الحقيقي هو آرثر؟

أتمنى لك أفضل الأفكار

بـــول

١١ مايو ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

ملاحظة إضافية عن الرياضة: يبدو أن أغلب الرياضات الأساسية - أي التي تجتذب حشودا من الجماهير وتثير كثيرا من المشاعر - قد انتخبت ونظِّمت قواعدها في فترة قصيرة قرب نهاية القرن التاسع عشر في إنجلترا. ما يدهشني بحق هو مدى صعوبة اختراع واستحداث رياضة جديدة فعلا (فلا تكون مجرد تنويعة على رياضة قديمة) أو ربما يجدر بي أن أقول استحداث لعبة جديدة (فالرياضات تنتخب من ربرتوار الألعاب). والبشر كائنات عبقرية، ومع ذلك فقليل من كثير من الألعاب الممكنة (وأعني هنا الألعاب البدنية لا الذهنية) هو الذي يبدو قابلا للتحقق.

كنت أقرأ أخيرا كتاب جاك دريدا الصغير عن اللغة الأم (**الأحادية اللغوية للآخر**١٩٩٦). وبعضه تنظير رفيع، وبعضه سيَرِيٌّ يتناول علاقة دريدا باللغة في طفولته وهو الذي ولد لأسرة فرنسية يهودية أو فرنسية ويهودية أو ناطقة بالفرنسية في الجزائر في ثلاثينيات القرن العشرين. (يذكِّرنا أن حكومة فيشي سحبت من المواطنين الفرنسيين ذوي الإرث اليهودي جنسيتهم، فصاروا بذلك مشرَّدين عمليا لسنوات عديدة).

ما يثير اهتمامي هو زعم دريدا بأنه على الرغم من أن الفرنسية كانت ولا تزال لغته الواحدة (وهي لغته الواحدة وفق معايير، فقد كانت إنجليزيته ممتازة، مثلما كانت ألمانيته - بحسب ما أنا واثق - ناهيك عن يونانيته) لكن الفرنسية لم تكن وليست لغته الأم. حينما قرأت هذا، أدهشني أنه كان يمكن أن يكتب عني وعن علاقتي بالإنجليزية، ثم لم يمض يومٌ حتى ازددت دهشة من أنه لا أنا ولا هو نمثل استثناء، وأن لكثير من الكتاب والمفكرين علاقة زائلة أو غير محسومة مع اللغة التي يتكلمون بها أو يكتبون، بل إن مجرد وصف المرء لغته التي يستخدمها بـ اللغة الأم (*langue maternelle*) بات في واقع الأمر شيئا عفا عليه الزمن.

فحينما يكتب دريدا ذلك، وبرغم أنه محب للفرنسية، متشدد في الفرنسية الصحيحة، إلا أنها لا تخصه، ليست "له". ويذكّرني ذلك بتجربتي مع الإنجليزية، لا سيما في الطفولة. كانت الإنجليزية بالنسبة لي ببساطة مادة من قائمة مواد المدرسة. في المدرسة الثانوية كانت القائمة تضم الإنجليزية، والأفريكانية Afrikaans، واللاتينية، والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا، وتصادف أن كنت متفوقا في مادة اسمها الإنجليزية، وبليدا في مادة اسمها الجغرافيا. ولم يخطر لي قط أنني متفوق في الإنجليزية لأنها لغتـ"ـي"؛ بل ولم يخطر لي قط أن أتساءل كيف يكون شخص بليدا في الإنجليزية لو الإنجليزية لغته الأم (وبعد عقود، وبعد أن أصبحت - ضمن أشياء كثيرة أصبحتها - أستاذا للغة الإنجليزية وبدأت أتأمّل قليلا في تاريخ المادة التي أدرّسها، سألت نفسي عما يمكن أن يعنيه تحويل الإنجليزية إلى مادة أكاديمية في بلد ناطق بالإنجليزية).

وبوسعي إلى حد ما أن أتذكر الطريقة التي كنت أفكر بها في طفولتي، فقد كنت أفكر في الإنجليزية بوصفها ملكية للإنجليز، أي الذين يعيشون في إنجلترا، والذين بعثوا كذلك نفرا من قبيلتهم ليعيشوا لفترة، بل وليحكموا جنوب أفريقيا. وضع الإنجليز قواعد الإنجليزية على النحو الذي ارتأته نزواتهم، ومن بينها قواعد براجماتية (من قبيل العبارات الإنجليزية التي لا بد من استخدامها في مواقف معينة)، فعلى أمثالي النائين أن يتبعوها ويتصرفوا بموجبها. كان تفوقي في الإنجليزية غير قابل للتفسير بقدر بلادتي في الجغرافيا. كان سمة في الشخصية، في التركيبة العقلية.

ولما ذهبت وقد بلغت الحادية والعشرين لأعيش في إنجلترا، ذهبت وأنا أتبنّى ذلك الموقف من اللغة الذي صار يبدو لي بالغ الغرابة. فمن ناحية، كنت متأكدا أنني قادر بحسب المعايير المدرسية أن أتكلم اللغة، أو أكتبها على أقل تقدير - خيرا من أغلب أبنائها. ومن ناحية أخرى، كنت بمجرد أن أفتح فمي أخون نفسي كأجنبي، وأعني بالأجنبي شخصا هو بحكم التعريف لا ينبغي أن يعرف اللغة معرفة أهلها بها.

وحللت هذه المفارقة من خلال التمييز بين نوعين من المعرفة. قلت لنفسي إنني أعرف الإنجليزية معرفة إيراسموس Erasmus باللاتينية، معرفة من خلال الكتب، في حين أن المحيطين بي جميعا يعرفونها من خلال "عظامهم". كانت لغتهم الأم ولم تكن لغتي الأم، هم امتصوها مع الحليب من أمهاتهم، وأنا لم أفعل.

وهذا بالطبع، بالنسبة لعالم لغويات، لا سيما إن كان من طراز تشومسكي، تفكير مغلوط تماما. فاللغة التي تكتسبها في سنوات تكوينك تكون لغتك الأم، ولا مزيد.

ومثلما يتساءل دريدا: كيف لامرئ أن يرى لغة لغته؟ قد لا تكون الإنجليزية في نهاية المطاف ملكية إنجليز إنجلترا، ولكن من المؤكد أنها ليست ملكيتي. فاللغة دائما لغة الآخر. والمضي إلى لغة هو دائما انتهاك. وما أسوأ أن تبلغ براعتك في اللغة أن تسمع في كل عبارة تسقط من قلمك أصداء استعمالات أسبق تذكّرك بمن امتلك العبارة من قبلك.

مع أطيب التمنيات

جـــون

١١ مايو ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

أشكرك على فاكس الأمس. أعتقد أننا وقعنا أخيرا على نظام ناجح. رسالة بطيئة تعبر البحار من أمريكا إلى أستراليا ثم إرسالية ورقية إلكترونية سريعة من غرفة في منزل في أديليد إلى غرفة في بيت في بروكلين.

لعل الحوارات المتعلقة بالألعاب تبلغ منتهاها، ولكن السؤال عن السبب في عدم ظهور ألعاب جديدة لسنوات عديدة سؤال وجيه، أعترف صادقا أنه لم يخطر لي أن أطرحه من قبل. أنت ذكرت إنجلترا ونهاية القرن التاسع عشر ولكن مثل هذا ينطبق على أمريكا كذلك. لقد تألّف أول فريق بيسبول للمحترفين في عام ١٨٩٦، وفي العام نفسه لعبت برنستن وروتجرز أولى المباريات الجامعية في كرة القدم. الاستثناء الوحيد الذي يخطر لي هو كرة السلة التي لم تخترع حتى سنة ١٨٩١ ولم تشع إلا قبل مرور أربعين عاما على ذلك التاريخ حينما ألغى تغيير في القواعد القفزة المركزية بعد النقطة فأسرع من إيقاع اللعبة. كرة السلة الآن تلعب في كل دول العالم، ومثلما لم تعد إنجلترا تمتلك الكريكيت وكرة القدم، لم تعد أمريكا تمتلك كرة السلة. مثال على ذلك: قبل سنتين أو ثلاثة،

خسر الفريق الوطني الأمريكي رفيع الأجر شديد الثقة في نفسه أمام منتخب اليونان في دور قبل النهائي لبطولة كأس العالم.

ولكنك في الجوهر على حق. فما من شي جديد ترك أثرا منذ أجيال. وأنت حينما تفكر في السرعة التي تُبَدِّل بها التقنيات الحديثة الحياةَ اليومية (كالقطارات والسيارات والطائرات والأفلام وأجهزة الراديو والتليفزيون والكمبيوتر)، ترى استعصاء الألعاب على التغيير مربكا للوهلة الأولى. ولا بد أن يكون هناك سبب لهذا، والإجابة التي تقفز إلى الذهن هي أن الألعاب بمجرد التقعيد لها تتوقف عن كونها اختراعات وتتحول إلى مؤسسات. والمؤسسات توجد لتأبيد أنفسها، والسبيل الوحيد إلى القضاء عليها هو الثورة. ولقد أصبحت هناك أشياء كثيرة اليوم تعتمد على الألعاب الاحترافية، ففيها الكثير للغاية من المال، والكثير للغاية من الربح الذي يتحقق من تكوين فريق ناجح بحيث أن المسيطرين على كرة القدم وكرة السلة وغيرهما من الألعاب الكبرى باتوا في مثل قوة أصحاب الشركات الكبرى، بل وفي مثل قوة رؤساء الحكومات. ولم يعد هناك ببساطة مجال لابتكار لعبة جديدة. فالسوق متشبع والألعاب القائمة بالفعل أصبحت احتكارات مستعدة لعمل أي شيء لتحطيم أي منافس في مهده. ولا يعني هذا أن الناس توقفوا عن اختراع ألعاب جديدة (فالأطفال يفعلون ذلك كل يوم) ولكن الأطفال لا يمتلكون من الأدوات ما يطلقون به مشاريع تجارية فيها بلايين الدولارات.

منذ نحو عشرين عاما، كنت أشاهد النشرة المسائية، فأذيع خبر عن بلدة صغيرة في الجنوب قررت إدارتها التعليمية ـ لمصاعب في الميزانية في ما أعتقد ـ أن تستغني عن تدريس اللغات الأجنبية. وأجريت حوارات مع مواطني البلدة سئلوا فيها عن ردود أفعالهم إزاء هذا التطور الجديد، فقال أحدهم وما يلي نص كلامه الحرفي إذ حفرت كلماته نفسها في مخي وظلت هنالك منذ ذلك الحين: "لا أرى مشكلة في هذا، لا مشكلة على الإطلاق. لو أن الإنجليزية كانت كافية ليسوع، فهي كافية بالنسبة لي".

كلامه غبي ومزعج (وظريف أيضا بطبيعة الحال)، لكن يبدو أنه يلمس شيئا ما أصيلا في فكرة اللغة الأم. لغة المرء منا تستشري فيه بعمق يجعل إحساسه بالعالم يصاغ بقوة اللغة التي يتكلمها، ويجعل كل متكلم بلغة أخرى يعد بربريا، أو بالعكس، يبدو عصيا على خيال المرء أن تكون لابن الرب لغة أخرى غير لغته، ذلك أنه العالم، والعالم لا يوجد إلا في لغة واحدة، ويتصادف أنها لغة المرء لا سواها.

لقد حدث قبل مجرد ثلاثة أجيال لا أكثر أن كان أجدادي يتكلمون الروسية والبولندية واليديشية. وتبدو لي نشأتي في مجتمع ناطق بالإنجليزية محض واقعة عرضية تماما، أو صدفة تاريخية. لقد قضت أم أبي ـ وهي جدتي القاتلة المجنونة ـ أغلب حياتها في أمريكا ولكنها كانت تتكلم الإنجليزية بلكنة ثقيلة حتى أنني كنت أعاني في فهمها. ولم يحدث أن رأيتها تقرأ شيئا غير ديلي فوروارد، وهي جريدة كانت تصدر باليديشية. والأكثر إثارة من ذلك هو حالة والد سيري. وهو أمريكي

نرويجي ولد سنة ١٩٢٢ فكان ينتمي إلى الجيل الثالث من مهاجرين نرويجيين. ونشأ في مجتمع ريفي معزول ـ لا يكاد يسكنه غير المهاجرين النرويجيين ونسلهم ـ فظل طول حياته يتكلم الإنجليزية بلكنة نرويجية فجة. فماذا كانت لغته الأم؟ أما والدة سيري نرويجية المولد فلم تنتقل إلى هذا البلد إلا وهي في الثلاثين، ولأن أمها جاءت لتقيم مع آل هوستفيدت في مينيسوتا بعد ميلاد سيري (فكان معنى ذلك أن أصبحت النرويجية مؤقتا لغة المنزل) فقد كانت اللغة الأولى التي تكلمتها سيري هي النرويجية. فماذا تكون لغتها الأم؟ هي أمريكية، وكاتبة عظيمة باللغة الإنجليزية، ولكن لسانها يزلّ بين الحين والآخر، وغالبا ما يكون ذلك في حروف الجر (وهي العنصر الأشد رعبا في أي لغة). ماء تحت الجسر. ماء وراء السد. تعبيران لهما المعنى نفسه: في ذمة الماضي. ولكن سيري هي الشخص الوحيد الذي قال: ماء وراء الجسر.

أنت ولدت في بلد يتكلم لغتين، وهو ما يعقّد الأمور تعقيدا غير هيّن. لكنك لو كنت تتكلم الإنجليزية في بيتك طفلا، فأنت في المقام الأول ناطق بالإنجليزية. إنجليزية جنوب أفريقيا التي هذَّبتها إقاماتك الطويلة في أراضي الإنجليزية البريطانية، والإنجليزية الأسترالية. هناك أيضا الإنجليزية الأيرلندية والإنجليزية الهندية، والإنجليزية الكاريبية، وما لا يعلم إلا الله من إنجليزيات أخرى. ومثلما لم يعد الإنجليز يمتلكون كرة القدم اليوم، فهم ما عادوا يمتلكون الإنجليزية. واسخرْ من فكرة "الأمريكية" كما تشاء، لكن الحقيقة أن الفرنسيين حينما يطبعون مؤلفات الكتاب الأمريكيين فإنهم يكتبون في صفحة العنوان: traduit

مترجم من الأمريكية، [de l’americain, not traduit de l’anglais بدلا من **مترجم من الإنجليزية**] . وإن لديّ مآخذ كثيرة على أمريكا، لكن الإنجليزية في تجسُّدها الأمريكي ليست من بين هذه المآخذ .

من ناحية أخرى، علينا نحن الكتّاب ـ مهما تكن لغتنا ـ أن نتقوّى بهذه الكلمات لـ جروتشو ماركس : " خارج الكلب، يكون الكتاب خير صديق للإنسان. أما داخل الكلب، فالعتمة لا تسمح بالقراءة" . وأشير هنا طبعا إلى شقيق هاربو، واسمه الحقيقي يوليوس .

مع أحرّ التحيات لك ولدوروثي

بـــول

٢٧ مايو ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

تقول إنهم يكتبون في صفحات العناوين في ترجماتك إلى الفرنسية "*Traduit de l'americain*" [مترجم من الأمريكية]، عندي أنا يكتبون "*Traduit de l'anglais (Sud-Africaine)*" [مترجم من الإنجليزية (الجنوب أفريقية)]. وليت أحدا ينبئني متى تتحول my *anglais* [إنجليزيتي] إلى "*sud-africaine*" [الجنوب أفريقية]. تبدو لي هذه العبارة وكأنها تقول الإنجليزية وقد تخلّصت من علامات بلد المنشأ، فهي لهذا السبب منزوعة الحياة.

أعتقد أنني أختلف معك في مسألة اللغة الأم (وإن كنت ألاحظ أنك تميل إلى اجتناب تلك العبارة ذات الشحنة الشعورية العالية مفضلا عليها "اللغة الأولى"). أوافق على أن نظرات المرء إلى العالم تتشكّل من خلال اللغة التي يتكلمها ويكتب بها بسهولة، بل ويفكر بها إلى درجة ما. ولكنها لا تتشكّل بالعمق الذي يجعله يعجز إلى الأبد عن الخروج عنها بالقدر الكافي للنظر إليها نظرة نقدية، لا سيما إذا كان المرء يتكلم أو حتى

يفهم لغة أخرى. لذلك أقول إنه من المحال أن تكون لأحد لغة أولى ولا يشعر فيها بأنه في بيته، فهي من ثم لغته الأساسية لا لغته الأم.

وهذه الظاهرة أكثر انتشارا مما قد يتصوَّر المرء. ففي أوربا على سبيل المثال، وقبل ظهور الدولة الوطنية وانتصار اللغات الوطنية، كانت اللاتينية ـ التي لم تكن لأحد لغته الأم ـ هي العملة المتداولة في الحياة الفكرية. ومثل هذا قائم اليوم في أفريقيا مع الإنجليزية (والفرنسية والبرتغالية إلى حدٍّ أقل). ليس من الممكن عمليا لأحد في أفريقيا أن يكون مثقفا بلغته الأم، بل ولا أن يكون كاتبا. والإنجليزية في الهند وباكستان ـ وكلتاهما موطن لغة أقلية صغيرة ـ هي وسيط أغلب الأدب وكل العلم.

تشير إلى أن هناك شيئا اسمه الإنجليزية الأمريكية أو الإنجليزية الهندية، وتوحي بأن لهاتين "الإنجليزيتين" وضعية اللغة الأم في الولايات المتحدة والهند على الترتيب. ولكن الحقيقة هي أنهما تختلفان على الورق (ولا أقول على اللسان أو في الشارع) عن الإنجليزية اختلافات تافهة: في التعبيرات الاصطلاحية الغريبة هنا أو هناك، لا في المعجم (الذي له سطوة على ابستمولوجيا المتكلم) أو التركيب (الذي يفرض قوالب التفكير).

ولقد سبق أن قلتُ إنني بدأت التفكير في موضوع اللغة الأم بعد قراءتي لدريدا. بدأت أشعر بوضعي الخاص أكثر دقة بعدما انتقلت إلى أستراليا، التي تبقى ـ برغم حقيقة أنه في حدودها عشرات اللغات المحلية التي لم تزل متشبثة بالحياة، وأنها تشجِّع منذ عام ١٩٤٥ على الهجرات الكثيفة من جنوب أوربا وآسيا ـ أكثر "إنجليزية" من بلدي أنا، أي

جنوب أفريقيا. فالحياة العامة في أستراليا أحادية اللغة. وأهم من ذلك، أن وسيط العلاقة بالواقع ـ بصورة لا لبس فيها ـ هو لغة واحدة: وهي الإنجليزية.

لقد كان لعيشي في بيئة مشبَّعة بالإنجليزية هذا التشبُّع تأثير معين انطبع عليّ، فجعلني أكثر تشكُّكا وبعدا عما يمكن أن أسميه بكثير من التساهل بالنظرة الأنجلوفونية للعالم بما تنطوي عليه من قوالب جاهزة للطريقة التي يفكر بها المرء، ويشعر، ويقيم علاقات مع الآخرين، وما إلى ذلك.

مع أطيب الأمنيات

جـــون

٦ يوليو ٢٠٠٩

عزيزي بــول

زرت بلدك الشهر الماضي للمرة الأولى منذ خمس سنين، لأرى شقيقي الذي يعيش في واشنطن أثناء مرضه.

قبل أن أبدأ الرحلة مضيت أفكر بعمق شديد في مسألة الانطباعات الأولى وما الذي أسمح بأن يعد الانطباعات الأولى، لا سيما ما إذا كنت سأسمح لإدارة الهجرة لديكم، والتي أعيدت تسميتها أخيرا بـ "أمن الوطن"، بتشكيل هذه الانطباعات.

ذلك أن لي، كما لا يخفى عليك، تاريخا شقيًّا إلى حدٍّ كبير من العلاقات مع إدارة الهجرة الأمريكية، ولن أكرِّره. ولم أجد بنفسي اللهفة على النكوص والغوص في ذلك التاريخ فيتعكّر مزاجي من مرارته.

وفي أرض الواقع، كان اللقاء في إدارة الهجرة بمطار لوس أنجلس بمثل السوء الذي خشيت أن يكون عليه. اقتادوني من الصف وذهبوا بي إلى مكتب خلفي، فقضيت هناك ساعة أنتظر دوري وسط عرائس

مبعوثات بالبريد والطلبة حاملي شهادات الكليات المشكوك في أمرها، قبل أن يستجوبني ضابط له وجه لاعب بوكر: من أنا؟ وهل زرت الولايات المتحدة من قبل، وإن كان فمتى؟ ومضى الاستجواب واستمر يدور في حلقات مفرغة، فقلت له عند نقطة معينة "لم لا تقول لي فقط ما المشكلة فلعلي أستطيع أن أحلها لك" فرد الضابط "معذرة يا سيدي. ليس لي أن أفشي هذا".

وفي النهاية ختموا جوازي وسمحوا لي بالدخول. فيم كان ذلك كله؟ لا أعرف حتى الآن. لعلي كنت مجرد قوقازي كبير السن اختير عشوائيا من بين الواصلين لإثبات أن المضايقات لا تقصد فقط الشباب "ذوي المظهر الشرق أوسطي".

"ليس لي أن أفشي لك الأمر". لا يمكن أن تكون هناك متعة في اللغو بمثل هذا الكلام. ولكن منذا الذي يعزف عن العمل في جهاز ترتقي فيه لا بعدد من تسمح بدخولهم بل بعدد من تعيدهم من حيث أتوا؟

ولكني كنت أنوي أن أكتب لك عن الانطباعات الأولى، لا عن مسؤولي الهجرة ومساوئهم. كنت أنوي أن أكتب لك بانطباعاتي الأولى عن أمريكا بعد غياب طويل. ولكن ما يبهتني اليوم هو مدى تفاهة الانطباعات الأولى، وأقل أهمية منها ما يمكن أن أقوله عن البلاد الأجنبية الأخرى، برغم عمر من الترحال.

فرنسا على سبيل المثال: برغم أنني طفت في أغلب أرجاء فرنسا على دراجة، لا أستطيع أن أزعم أن لديَّ أي شيء يمكن أن أقوله عن

البلد ويكون طازجا وجديدا أو جديرا بالقول. إنجلترا التي عشت فيها لسنين، أو أمريكا التي عشت فيها أكثر من ذلك، نفس الشيء. ناهيك عن جنوب أفريقيا التي تكوَّنت فيها وقضيت أغلب حياتي العملية أو أستراليا التي عشت فيها السنوات السبع الماضية. ذكريات، كثير من الذكريات. وصور، بعضها حيوي للغاية. ولكن أغلبها غارق في الخصوصية، غير قابل للتعميم. يبدو أن تجاربي تبقى تجاربي وحدي، لا تعني شيئا لغيري من الناس.

يبدو أني مبتلى بنوع خاص من العمى. لا أقول إنه اللامبالاة. بل على العكس، فعيناي في كل مكان أذهب إليه تكونان مفتوحتين على اتساعهما، وأكون منتبها للعلامات. ولكن العلامات التي ألتقطها لا تبدو ذات معنى عام. وقابلية الخاص للتعميم هي جوهر الواقعية، أم ماذا؟ الواقعية في ذهني وسيلة لرؤية العالم وتسجيله على نحو تبدو معه الخصوصيات ـ مهما التقطت بكل ما لها من تفرد ـ ذات معنى، أو منتمية لنظام متماسك.

ما الذي تعنيه ظاهرة كهذه: شخص مثلي يمكن أن يوصف بالذكاء، يعيش في عصر يسهل فيه السفر، وهو يقترب من حياته ولا بد أن يعترف أن تجربته العريضة في العالم المرئي لا تضيف شيئا جديرا بالحكي، فكأنه قضى عمره في مكتبة؟

أم ربما يكون السبب هو أنني كنت أجمع العلامات الخاطئة، أي العلامات الوحيدة التي أراها، بسبب من عماي الفريد، هي علامات

تقول لي إن الحياة هي الحياة في كل مكان، بدلا من علامات تفرد كل مكان مهما ضؤل من العالم؟

لو أن كاتب أدب الرحلات بالفطرة يكون منتبها لعلامات الاختلاف، فهل أكون "لاكاتب" أدب الرحلات بالفطرة الذي ينتبه فقط لعلامات التماثل؟

المسألة كلها تربكني. أقول لنفسي: **أنت راجعٌ للتوّ من زيارة للولايات المتحدة، فما انطباعاتك؟** ومرة بعد مرة، أستبعد كل صورة أخرى، لتبقى ذكرى شاب في ملبس غير مميز على دراجة نارية قديمة متهالكة، لا يبالي، يسير عكس اتجاه السير، عكس المرور، في شارع بمنهاتن. ما معناها، هذه الصورة الوحيدة الطاغية؟ لماذا حينما أقول لنفسي **سجِّل انطباعاتك أو لخِّص صورك**، تكون هذه هي الصورة التي تطرأ بذهني. هل بداخلي مَلَكَة عبثية تحاول إخباري بأن الشاب السائر عكس الاتجاه يقول شيئا عن أمريكا في ٢٠٠٩؟

أنا أسافر ولكني لا أكتب أدب رحلات. ولا أنت، أم تراك تفعل وتنشر باسم مستعار: بيتر ويسترمات، نيكول بريبيس. هل لديك ما تثق فيه من الانطباعات الأولى؟ أنا شخصيا لا أثق في انطباعاتي الأولى على الإطلاق.

المخلص إلى الأبد

جـــون

٢٤ أغسطس ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

أفكر منذ فترة في الأسماء، في ملاءمتها أو عدم ملاءمتها. وأخمِّن أن الأسماء تثير اهتمامك أنت أيضا، ولو في حدود العثور على أسماء جيدة، أو "صحيحة" لأشخاصك المتخيلين. فلا يبدو أن أحدا منا يسمي شخصياته ألف أو باء أو بيم أو بوم.

لقد نشأت وسط أرثوذكسية لغوية ترى أن الدال اعتباطي، برغم أن الدوال في لغة لا تنجح ـ لأسباب غامضة ـ كدوال في لغة أخرى (فـ **النجدة! إني أموت من العطش!** لن تحقق لك أي شيء في المنجولية) وينبغي أن يكون هذا أصدق مرتين في حالة أسماء الأعلام: فسواء كان شارع يدعى شارع ماريجولد أو شارع ماندراجورا أو الشارع الخامس والخمسين لا ينبغي أن يكون هناك فارق (أعني فارقا عمليا).

في عالم الشعر (بأوسع المعاني) لم يحظ الإيمان باعتباطية الدال قط بالكثير من الاعتبار. ذلك أن ظلال معاني المفردات في الشعر ـ أي تراكم الدلالات الثقافية المحيطة بها ـ لها وزنها. فـ "ماندروجارا" لكيتس

توحي بالبركة والموت، و"الشارع الخامس والخمسون" الذي يبدو للوهلة الأولى مجهولا ثم يتبيّن أنه يوحي فقط بالمجهولية.

ومن خلال فعل الطاقة الشعرية الأسمى، منح فرانتز كافكا لحرف أبجدي قوة (إيحائية) مراوغة. وكتاب روبرتو كالاسو الأخير يحمل ببساطة عنوان كاف K. ونحن ننظر إلى غلافه فنعرف عن أي شيء سوف يكون.

وأنا مرة أطلقت على شخصية اسم كاف k (مايكل ك) في محاولة لاسترداد حرف الأبجدية الذي استولى عليه كافكا، وإن لم أصادف في ذلك نجاحا كبيرا.

إن قليلا منا هم الذين يكتبون الرواية، ولكن الكثيرين ينجبون أبناء، بطريقة أو بأخرى، ثم يجبرهم القانون على منح هؤلاء الأبناء أسماء. فمن الآباء من يتقبل هذا الواجب عن طيب خاطر، ومنهم من يتقبله بارتياب. هناك آباء يشعرون أنهم أحرار في تأليف الاسم الذي يشاؤون، ومنهم من يلتزم (بحكم القانون أو العادة أو القلق) بالاختيار من قائمة.

يحاول الآباء المرتابون أن يمنحوا الطفل اسما محايدا، اسما بلا إيحاءات، اسما لا يسبب له حرجا في حياته بعد ذلك. ومن هنا: إينيد.

وهنا مزلق. أطلق اسم إينيد على كثير من البنات، فإذا الاسم يعني نوعا من الفتيات اللاتي يرتاب آباؤهن في واجب تسمية بناتهم فأسموهن

بأكثر اسم لا يعني وجوده أي شيء. فيصبح "إينيد" بمثابة القضاء الذي ينتظر الطفلة حينما تكبر: الشخصية المهتزة، الحذرة، المتحفظة.

أو شخص ما بعيد، شخص لم تسمع عنه قط، يلوِّث اسمك. كأن تنشأ في الغرب الأوسط بالولايات المتحدة، حيث كل شيء على ما يرام إلى أن يأتي اليوم الذي يسألك فيه شخص "هل لك قرابة من أي نوع بأدولف هتلر؟" ويكون عليك أن تغيِّر اسمك بإجراء قضائي إلى هتلر أو هيلر أو سميث.

اسمك قدرك. أوديب، متورم القدمين. المشكلة الوحيدة أن اسمك لا يبوح بقدرك إلا مثلما تبوح به ديلفي سيبيل: على شكل أحجية. فلا تعرف إلا وأنت على فراش الموت ما الذي كان يعنيه "تيمورلنك"، أو "جون سميث" أو "ك". تجليات بورخيسية.

مع أطيب أمنياتي

جـــون

٢٩ أغسطس ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

أولا، اسمح لي أن أقفز على مسألة الشارع الخامس والخمسين الذي "يتبيّن أنه يوحي بالمجهولية". وتعال نفترض، على سبيل الجدال، أن الشارع الخامس والخمسين المعنيَّ موجود في نيويورك، في أحراش منهاتن على وجه الدقة، وإن لم يكن معلوما أهو في الجانب الشرقي أم الجانب الغربي، لكنه في وسط منهاتن على أية حال، ثم إن أي شخص يعيش في هذه المدينة سوف يقدر على استحضار صورة حية وفيض من الذكريات الشخصية عن الشارع الذي لا يحمل اسمه كلمة بل مجرد رقم مجهول. تكتب أنت "الشارع الخامس والخمسين" فأفكر على الفور في فندق سان ريجز ولقاء إيروتيكي لي فيه وأنا شاب، واصطحابي الكاتب الفرنسي إدموند جابيس وزوجته إلى هناك لتناول الشاي ومشاهدة [لاعب التنس الأمريكي] آرثر آش يدخل غرفته وهو مرتد زي اللعب، ومقابلة فانيسا ريدجريف ومناقشتها في الدور الذي كانت توشك أن تلعبه في فيلمي "لولو على الجسر". الأرقام تحكي قصصا، ومن وراء جدار مجهوليتها الخاوي تراها حية ومثيرة بقدر الشانزليزيه في باريس. اذكر لأحد أبناء نيويورك هذه

الشوارع وستحتشد في دماغه الصور: الشارع الرابع (جرينتش فيليدج)، الشارع الرابع عشر (أرخص متاجر المدينة)، الشارع الرابع والثلاثين (ميدان هيرالد، وماكيز، وديكورات الكريسماس المضيئة)، الشارع الثاني والأربعين (ميدان تايمز، المسارح "الشرعية"، مع احترامي لبرودواي)، الشارع التاسع والخمسين (فندق بلازا ومدخل سنترال بارك المهيب)، الشارع الخامس والعشرين بعد المائة (هارلم، مسرح أبولو، أغنية ديو إيلنتن عن القطار ألف). وعلى بعد جادتين فقط من الشارع الخامس والخمسين، أي في الشارع السابع والخمسين هناك المبنى الذي كان جدي يتناول فيه القهوة (ذكريات طفولة مشحونة عن الذهاب إلى ذلك المكان الذي كان يسمح لي باللعب بالآلات الكاتبة والحاسبة) والذي يتصادف أنه المبنى الذي استضاف لسنوات كثيرة نيويورك رفيو أوف بوكس (ذكريات مشحونة من أول الشباب حينما كنت أجلس مع بوب سيلفرز فنناقش مقالاتي التي كنت أكتبها له) ـ ويستدعي ذكر الشارع السابع والخمسين فقط لديَّ أركيولوجيا كاملة من الماضي والذكريات المتراكمة على الذكريات، وأعمال الحفر البدائية.

ولكن الدال كما تقول اعتباطي، وإلى أن أو ما لم يمتلئ بارتباطات شخصية، فسوف يبقى الدال غير قابل للتميز عن أي دال آخر. بالأمس فقط حينما عدت أنا وسيري من نانتوكيت (أي قبل أن أقرأ رسالتك)، سلك سائق التاكسي طريقا مختصرا عبر حي في بروكلين لم أكن على معرفة به، وفيما كنا منطلقين عبر أوشن باركواي اجتزنا ستة وعشرين تقاطعا تحمل أسماء الحروف بالأبجدية ابتداء من طريق آيه وحتى طريق

زد، ففكرت أن أيًّا من هذه جميعا لا يعني لي أي شيء، خلافا للطريق آيه فِي منهاتن (بـ إيست فيلدج) الذي أعرفه ومن ثم أرتبط به بصورة شخصية، أما الطريق آيه في بروكلن فشفري تماما. وجدت نفسي أتأمل كم هو مملٌّ أن يعيش المرء في شارع اسمه إي أو إل. وفي المقابل فكرت أنه لا بأس بطريق اسمه كيه (لكل الأسباب الواردة في رسالتك)، وفكرت في حروف أخرى يمكن التسامح معها مثل أوه وإكس وزد [ذلك أنها تعني على الترتيب]: اللاشيء، والمجهول، والنهاية. ثم دخلت البيت الواقع بدوره في شارع يشار إليه برقم، وقرأت الفاكس المرسل منك عن الحرف كيه والشارع الخامس والخمسين. فيا له من توقيت مثالي.

أول كتاب صدر لجورج أوبن، وهو شاعر أمريكي أنا مغرم به غراما شديدا، كان عنوانه "السلسلة المنفصلة *Discrete Series*" (حوالي سنة ١٩٣٠)، وهو ـ كما أثق أنك تعلم ـ مصطلح رياضي، والمثال الذي كان يوضح به أوبن دائما السلسلة المنفصلة هو هذا: ٤، ١٤، ٢٣، ٣٤، ٤٢، ٥٩، ٦٦، ٧٢ .... للوهلة الأولى تبدو هذه مجموعة لا معنى لها من الأرقام، لكنك حينما تعلم أن هذه الأرقام هي في حقيقة الأمر أسماء محطات قطار الأنفاق في خط منهاتن، فإنها تكتسب قوة تجربة معيشة: اعتباطية نعم، لكنها في الوقت نفسه ليست عديمة المعنى.

قبل سنوات كثيرة، عندما كتبت روايتي الصغيرة "أشباح"، منحت جميع الشخصيات أسماء ألوان: أسود، وأخضر، وأزرق، وبني إلى آخر ذلك. نعم، أردت أن أمنح القصة سمة تجريدية تقربها من الحواديت، ولكنني في الوقت نفسه كنت أفكر في ثبات الألوان، فتكون

وسيلتنا الوحيدة لنعرف ونفهم ما الألوان هي أن نخوض تجربتها، وأفكر في أن وصف "الأزرق" أو "الأخضر" لأعمى شيء يتجاوز قدرة اللغة، وتماما كما أن الألوان عصية على الوصف، فكذلك الناس، وليس بوسعنا أن نعرف أو نفهم أي شيء عن شخص ما لم "نختبر" ذلك الشخص، بمثل ما نتكلم عن اختبار الألوان.

ونحن نكبر في أسمائنا التي تُعطى لنا، نختبرها، ونصارعها، إلى أن نقبل بها أسماء نحملها. هل تتذكر تدربك على توقيعك وأنت مراهق؟ لا يكاد يمر وقت يذكر على إجادتنا الكتابة حتى ينفق أغلب الأطفال ساعات وهم يملؤون الورق بأسمائهم. وليس هذا بالمسعى الخائب. إنما هي محاولة، في ما أشعر، لإقناع أنفسنا بأننا أسماؤنا، وبأن تكون لنا هويتنا في أعين العالم.

في بعض الثقافات، يمنح الناس أسماء ثانية بعد وصولهم مرحلة البلوغ، وربما أسماء ثالثة في بعض الأوقات بعد قيامهم بعمل عظيم أو مشين في رشدهم.

ومن الناس طبعا من يتكبّدون أسماء وحشية، أو أسماء كوميدية، أو أسماء عميقة التعاسة. وأشقى الأسماء التي صادفتها كان يخص رجلا تزوّج قريبة له من بعيد تدعى إيلمر دويتلباوم Elmer Deutlebaum. تخيّل حياتك وأنت إيلمر دويتلباوم.

جدي كندي المولد، ابن المهاجرين البولنديين اليهود، أطلق على أمي ـ بوازع ولاء غير مفهوم للتاج البريطاني ـ اسم كويني [من كوين أي

الملكة] . احتاجت سنين طويلة لكي تتلاءم وذلك الاسم . حينما كانت في الثامنة أو التاسعة ، بعد سنين من غيظ زميلاتها في المدرسة لها ، قررت أن تغيّر اسمها إلى إستيل . ربما لا يكون مملا بقدر إينيد ، ولكنه ليس أحسن كثيرا . واستمرت التجربة نحو ستة شهور .

ولا يجدر بنا أن ننسى وسط ذلك كله جدنا المشترك آدم . يقول العهد القديم إن الرب أوكل إلى آدم أن يمنح الأشياء أسماءها ، سواء الأحياء منها أو الجمادات . ووفقا لتفسير ميلتُن في "الفردوس المفقود" كان بوسع آدم في عهد براءته ـ في النعيم الذي كان يعيشه قبل أن يعرف الخير والشر ويطرد من الجنة ـ أن يصل إلى جوهر كل شيء أو كائن يسمّيه ، ويكشف باللغة حقيقة العالم . وبعد السقوط ، انفصلت الكلمات عن الأشياء ، وباتت اللغة جملة من العلامات الاعتباطية ، بعدما انقطعت الصلات بالرب أو بالحقيقة الكونية .

ولست بحاجة إلى القول إنني أنفقت حياتي كلها أستكشف اسمي نفسه وأتأمله ، وكان أقصى أمنياتي أن أولد من جديد هنديا أمريكيا . بول : صغير باللاتينية ، أو قليل . أوستر : ريح الجنوب باللاتينية . ريح الجنوب . ريح الجنوب : تورية أمريكية قديمة للضراط . لذلك سوف أعود إلى هذا العالم وقد حملت باعتزاز اسمي الملائم : الضرطة الصغيرة .

اكتب لي بسرعة

المخلص أبدا

بـول

١٣ سبتمبر ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

رجعت للتو من أيرلندا (أمس فقط) وقد صار ورائي الارتياح الهائل بعد إلقاء "خطبة بيكيت" . كان هناك عشاء مع إدوارد بيكيت، ابن الأخت ومنفذ الوصية، مواليد ١٩٤٣، عازف فلوت محترف ومدرس موسيقى متقاعد، مختبئ في لندن منذ سنين كثيرة، شخص خجول، ظريف، بسيط في شؤون الأدب، طيب القلب، جاد، أكثر ارتباطا بخاله كخال لا كنجم أدبي. أسعدته كلمتي، وقال ذلك مرات عديدة، وذلك في نهاية المطاف أقصى ما كنت أرجو أن أحققه: أن لا أقع على وجهي أمامه هو وخمسمائة من الحاضرين في القاعة. تشبَّثت في المنصة بقوة، وقد تيبَّست ركبتاي من فرط التوتر طوال خمسين دقيقة استغرقتها الكلمة، فلمّا حان الوقت لمغادرتي الخشبة كانت ساقاي متيبّستين بحيث كنت أتحرك بمشقة فأوشكت حرفيا أن أقع على وجهي.

يخططون للقيام بذلك كلَّ عام. وقد اقترحت عليهم اسمك للعام القادم، فأبدى المنظِّمون حماسا. فلعلك تتلقى اتصالا منهم خلال الشهور

القادمة. ويرجع لك بالطبع أن تقبل أو ترفض، لكنك لو قبلت، فتأكّد أنك سوف تلقى معاملة طيبة.

علمنا ونحن هناك أنك مرشّح لبوكر. فبالنيابة عنك أشبِّك أصابعي، وتهانينا.

ثم، هذه الورطة المؤلمة. لقد دعينا إلى عرض "العار" في السابع عشر، وهو فيلم أتلهف لمشاهدته، على الرغم من تحفظاتك، لكن يبدو أن هناك تعارضا. التزام مسبق وافقت عليه قبل شهور كثيرة، ولما اقترحت أن نتجاهله لنحضر العرض، قالت سيري إنها لن تكلمني بعدها أبدا، وربما تقتلني. ولا أشك في أنها تعني ما تقول. ولكنني أرى في نيويورك تايمز اليوم قائمة بالأفلام الوشيكة، وأرى أن "العار" سيفتتح يوم الجمعة. سنحضره نهاية الأسبوع القادم إذن. هل تريدني أن أجمع لك القصاصات الصحفية بالعروض النقدية لفيلمك، أم تفضل أن لا تعرف بها؟

مع أحضان كبيرة لك ولدوروثي

بــول

٢٦ سبتمبر ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

تكتب عما يرتبط باسم "الشارع الخامس والخمسين" لديك، وتذكر في معرض ذلك الطرق من آيه إلى زد في منهاتن. لوهلة قادتني أفكاري إلى قصيدة جالواي كينيل الطويلة عن جادة سي. يا لها من لقطة يقع عليها شاعر: غريب من أفريقيا البعيدة، يسمع إشارة إلى طرق تحمل أسماء حروف الأبجدية أثناء نقله إلى "طريق نسيه الله ويحمل أول حرف في اسم المسيح" (تخيَّل أني كدت أكتب "نقده" بدلا من "نقله").

أعتقد أن هذه من السمات التي تمتاز بها مدينة عظيمة: بمرور الزمن، تصبح أسماء مقاطعاتها وأحيائها وشوارعها وبناياتها جزءا أصيلا من نسيج قصائد وقصص حتى أن القراء الذين لم يزوروا هذه المدينة قط يكونون قادرين على السير فيها معصوبي الأعين: عبر الشارع الثاني والأربعين ووصولا إلى شارع بيكر، ثم الانعطاف يسارا في نيفسكي بروسبيكت.

تبدو لي الخمسينيات والستينيات [من القرن العشرين] الآن عصرا عظيما في الشعر الأمريكي، بعده أخذ كل شيء ينحدر. هل أنا مخطئ؟ هل هناك ما هو غائب عني؟

يغضب العقلانيون من الكلمات والتقاطها ـ حتى الحديثة منها ـ للمعاني وظلال المعاني بحيث تغيم حوافها الدلالية الحادة. كان من المشاريع الكبرى للجمعية الملكية ـ التي تأسست في إنجلترا في أواخر القرن السابع عشر ـ تأسيسُ لغة خالية من الارتباطات، لغة يصح أن يستخدمها الفلاسفة والعلماء. واللغة التي يستخدمها ورثة الجمعية الملكية العلميون اليوم تبدو لنا نقية بقدر كبير، ولكن سبب ذلك لا يرجع إلا إلى اعتمادها الشديد على كلمات يونانية تغيب عنا ظلال معانيها (كلمة إلكتريسيتي [كهرباء] من إلكترون *elektron*، ولكن من بوسعه أن يقول ما الذي كانت تثيره هذه الكلمة ـ التي تعني المزيج المعدني الثمين ـ من معان وظلال معان في ذهن أوديسيوس؟)

(وماذا عما تثيره لديَّ أنا كلمة الكهربائي *electric*، والتي أفسدها إلى الأبد قول إيميلي ديكنسن "حذاء الموت الكهربائي"؟)

برغم استهزاء سويفت من مشروع الجمعية الملكية، لم يكن المثال الذي توصل إليه المشروع تافها. لم أفهم قط بصورة تامة لماذا تخلى بيكيت عن الإنجليزية، ولكنني أشك أن جزءا من الأمر يرجع إلى أنه وجد اللغة مثقلة أكثر مما ينبغي بالإيحاءات الأدبية. كونراد في ما أعتقد كان له مأخذ

على كلمة oak [بلوط] التي قال إنه يتعذر استعمالها بدون إقحام تاريخ كامل من الإبحار البريطاني والإمبراطورية البريطانية.

وليس نادرا بين الكتَّاب، وهم يتقدمون في العمر، أن ينفد صبرهم تجاه ما يعرف بشعر اللغة فينزعون إلى نوع من الأسلوب المتجرد ("الأسلوب المتأخر"). وأشهر أمثلة ذلك في ما أفترض هو تولستوي الذي أعرب في أواخر حياته عن استهجان أخلاقي لقدرات الفن الغوائية وقصر نفسه على القصص التي لا يمكن أن لا تناسب فصلا دراسيا في مدرسة ابتدائية. وهناك مثال أسمى في باخ الذي كان يعمل حينما حضره الموت على "فن الفيج *Art of Fugue*"، أو الموسيقى المحضة التي لا يمكن ربطها بآلة معينة.

بوسع الواحد أن يفكر في حياة في الفن، تنقسم بصورة مبسطة، إلى مرحلتين أو ربما ثلاث مراحل. في الأولى تعثر على سؤال عظيم أو تفرضه على نفسك. في الثانية تناضل من أجل الإجابة عليه. وإن طال بك العمر تبلغ المرحلة الثالثة فتضجر من السؤال العظيم القديم، وتحتاج أن تنظر في مكان آخر.

أفضل أمنياتي

جــون

بروكلِن

٢٩ سبتمبر ٢٠٠٩

عزيزي جــون

ذهبنا إلى الفيلم ونحن لا نتوقع خيرا كثيرا (ليس فقط بسبب ملاحظاتك، بل لأن ترجمة الروايات سينمائيا مسألة غير مأمونة العواقب) وخرجنا ونحن في دهشة وفرح، شاعرين أن النتيجة لم تكن شبه سيئة على الإطلاق. صحيح أن إسناد الدور إلى "جون إم" لم يكن صائبا، ولكن أداءه كان أدق وأقل تكلفا من أغلب ما رأيته فيه على مدار السنوات القليلة الماضية، باختصار كان جيدا بصورة كافية لعدم تدمير مزاج القصة. بدت لنا الابنة ممتازة، أنحف وأكثر جاذبية من شخصية الكتاب بالطبع، ولكن هكذا هي السينما، وماذا ستفعل والسينما كلها تدور في فلك النساء الجذابات. الإخراج والتصوير والإنتاج ومواقع التصوير، مثيرة للإعجاب. مقالات نيويورك التي قرأتها عن الفيلم كانت إيجابية إلى حد كبير. جمهور الحاضرين في السينما كان مستمتعا، وفي ضوء تواضع أغلب أفلام هذه الأيام، كان مبهجا أن نرى شيئا فيه ذكاء ومقدرة. لا، ليست له قوة الكتاب، ولكنه يحاول إنصاف الكتاب، ولو كنت مكانك،

لشعرت بالرضا الكافي، لا بأنني تعرضت للخيانة. ولكي أضيف إلى مقتنياتك من الأشياء غير الهامة، أرفق لك كعبي تذكرتي سينما كواد في الشارع الثالث عشر بين الطريقين الخامس والسادس، تحسبا لاحتمال أن ترغب في عرضهما على أصدقائك.

تتكلم عن عصر الشعر الأمريكي الذهبي في الخمسينيات والستينيات ومن بعده سقوط هادئ. كان رد فعلي الأول هو "كلام فارغ"، لكنني الآن وقد أوليت الأمر بعض التفكير، يؤسفني أن أجد نفسي مضطرا إلى الاعتراف بأنني أوافقك الرأي. لقد كان أغلب الحداثيين العظماء لا يزالون يتنفسون آنذاك (ستيفنز مات سنة ١٩٥٤، لكن باوند وإليوت ووليمز عاشوا حتى الستينيات، ووليمز بالذات كتب بعضا من أفضل أعماله في ذلك الوقت)، والمعروفون بالموضوعيين Objectivists كانوا في عزهم (الجيل التالي يتضمن زاكوفسكي، وأوبن، وززنيكوف)، تشارلز أولسن كان في أقصى قوته (كم كنت أحب أولسن وأنا صغير) والجيل التالي لذلك (أي الشعراء من مواليد العشرينيات) كان يتخلَّق: كينل الذي تشير إليه، وأيضا كريلي، وآشبري، وأوهارا، ومرون، وسبايسر، وجينسبرج، والعديد غيرهم. كينيل وآشبري ومرون لاَ يزالون بيننا، لكنهم رجال مسنّون الآن، وما الذي جرى من بَعدَهم؟ هناك العديد من الشعراء من مواليد أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات وأكن لأعمالهم إعجابا كبيرا وأتابعها بشغف: مايكل بالمر (المنشور في نيو دايركشنز)، وتشارلز سيميك (هاركورت)، ورون بادجيت (مطبعة كوفي هاوس) من بينهم، ناهيك

عن بول مولدُن الأصغر منهم (ولد في شمالي أيرلندا، وهو الآن مواطن أمريكي)، وهم جميعا أصدقائي. رأيت أعمالهم تتطور عبر العقود، ولعل هذا الرابط الشخصي يؤثر على حكمي. عندي فضول أن أعرف رأيك فيهم، في أيٍّ منهم. هناك أيضا سوزان هاوي (نيو دايركشنز) وهي موضع إعجاب كبير، وجدل كبير، والغريب أن أفضل كتبها في نظري هو كتاب نثري "إيميلي ديكنسن الخاصة بي"، وهو نص أصيل وعبقري ومدهش فيه نفس من كتاب أولسن "نادني بإسماعيل" أو كتاب وليمز "في الحبة الأمريكية: الشاعر ناقدا، والنقد بوصفه شكلا من الشعر، مادة رائعة. لكن لا، ليس من هؤلاء الكتّاب من هو في قوة عمالقة الماضي القريب. نحن نعيش زمن ورش كتابة لا نهاية لها، وبرامج كتابة لطلبة الدراسات العليا (تخيل أن تحصل على شهادة في الكتابة)، فبات عدد الشعراء في كل بوصة مربعة أكبر مما كان عليه من قبل، وعدد أكبر من مجلات الشعر ودواوين الشعر (٩٩٪ منها مطبوع في دور نشر صغيرة ميكروسكوبية) وعروض أداء شعرية، ومنافسات شعرية، وإلقاء شعر، وشعراء رعاة بقر ـ ومع ذلك، وبرغم كل هذا النشاط، لا يلفت النظر مما يكتب إلا القليل. تبدو الأفكار الخارقة التي كانت وقود ابتكارات الحداثيين الأوائل كما لو كانت خبت. لم يعد أحد يؤمن أن الشعر (أو الفن) قادر على تغيير العالم. لم يعد أحد يرى نفسه في مهمة مقدسة. الشعراء الآن في كل مكان، ولكنهم لا يكلمون إلا بعضهم البعض.

إشارتك إلى "الأسلوب المتأخر" ذكّرتني أنني لم أقرأ بعد كتاب إدوارد سعيد. سأحاول أن أتعقَّبه خلال الأيام القادمة. تولستوي نموذج

جيد، لكن وماذا عن جويس؟ يبدو لي أن أسلوبه المتأخر هو أسلوبه المبكر (بحكم تعريفك، أو تعريف سعيد) وأنه مع تقدّمه من كتاب إلى كتاب أصبح أميل إلى الزخرفة، والتعقيد، والباروك، حتى وصل إلى ذروته في الكتاب الأخير الذي يبلغ من التعقيد أن لا أحد يستطيع قراءته (للأسف). لكن جويس مات في التاسعة والخمسين، وربما يمكن الذهاب إلى أنه لم يعش من العمر ما يكفيه لدخول المرحلة المتأخرة. على أية حال، اسمه هو الوحيد الذي يقفز إلى ذهني لمعارضة نظريتك. لا، وربما هنري جيمس أيضا، الذي تحتشد كتبه التي أملاها في آخر حياته ببعض من أكثر الجمل تعذيبا في الأدب الإنجليزي. وهناك كتَّاب آخرون، ربما بقية الكتّاب، أراهم متسقين إلى حد كبير من البداية إلى النهاية ـ فيلدنج، كونراد، أبدايك، واملأ أنت الفجوات. ليس بيكيت بالطبع، وبالتوازي مع باخ في أواخره، فكّر في ماتيس وأعماله الحسية المقتصدة. أكثر تجردا، أو أقل تجردا، أو لا فرق. هذه هي الاحتمالات الثلاثة، بمعنى أن كل شخص يسير في دربه. جويا قال إنه "ليست هناك قواعد في الرسم". فهل في حياة الفنان قواعد؟

يبدو أن الصيف انتهى. وها هي أيام الخطر، ففي الهواء لسعة. سيري مندفعة في روايتها، وأنا عدت عاطلا من جديد.

مع أدفأ أفكاري

بــول

١ أكتوبر ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

نسيت أن أذكر روبرت لويل. نسيت إليزابث بيشب. نسيت جون بيريمان. نسيت سلفيا بلاث. نسيت روبرت دنكان. نسيت جيمس رايت. نسيت وليم برونك. نسيت لاري أينر. نسيت هيلدا دوليتل (ماتت ١٩٦١) ومينا لوي (مات ١٩٦٦) وماريان مور (ماتت ١٩٧٢) ولورا رايدنج (١٩٩١) ولورين نيديكر (١٩٧٠). ناهيك عن ثيودور روذك، وميريل روسكاير، ودينيس ليفرتوف، وجيمس شوايلر، وريتشارد ويلبور، وباربارا جيست، وكينيث كوك، وجيمس ميريل. ولا شك أنني ناسٍ آخرين.

أمس اشتريت كتاب "عن الأسلوب المتأخر" لإدوارد سعيد. قرأت المقالة الأولى (وأغلبها عن بيتهوفن وأدورنو) وأرى أن الحجّة ليست بالبساطة التي كنت أتصوّرها في الأصل. سأستمر وأرسل لك بملاحظاتي لاحقا.

سعيد بالمناسبة كان مشرفا على أطروحتي للماجستير في كولمبيا ١٩٦٩ـ١٩٧٠، وبقينا على اتصال، متقطّع لكنه دافئ، حتى وفاته. والرجل الذي أشرف على تجميع هذا الكتاب، أي مايكل وود، أستاذ آخر من أساتذتي، ولا يزال صديقا لي. أمس فقط رأته سيري في برنستن (التي يدرّس فيها حاليا) حيث ذهبت تحاضر طلبته عن الرواية الحديثة. وأنا نفسي سوف أذهب إلى الفصل نفسه خلال أسبوعين. لا أعرف لماذا أذكر لك هذا، ربما الأمر ببساطة في ما أفترض، أن ذكريات كثيرة تسارعت إليّ منذ اشتريت الكتاب بالأمس.

كل الأفكار الطيبة

بــول

٩ أكتوبر ٢٠٠٩

بـــول

انظر ما يلي .

وقل لي ما العمل؟

جـــون

٢٢ سبتمبر ٢٠٠٩

جيه إم كوتزي عبر فينتيج بوكس

" عزيزي السيد كوتزي

يحبطني ويبدو لي من العار أن ينحدر كاتب في مقامك إلى استخدام افتراءات معادية للسامية، وكلُّ ذلك بلا أي مسوِّغ .

أشير إلى كتابك "الرجل البطيء"، الفصل الثاني والعشرين، الصفحة ١٦٧ والصفحة ١٦٨ . إشارتك إلى "اليهود" بهذه الطريقة المهينة التي لا تدعمها الرواية، وفي رأيي ما كان ينبغي استخدامها .

بالنسبة لي، تلوَّث كتاب جميل .

المخلصة

[اسم وعنوان]

١٠ أكتوبر ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

ما العمل؟ لا تفعل شيئا، أي شيء. أعني، تجاهل الخطاب الغبي ولا تفكر فيه أكثر مما فعلت. أو بدلا من ذلك، إذا كان الموضوع يؤرقك بمنتهى العمق فيستحيل عليك أن تتوقَّف عن التفكير فيه، اكتب إلى المرأة في إنجلترا وقل لها إنك كتبت رواية، وليس بحثا في السلوك الأخلاقي، وإن العبارات المهينة لليهود ـ ناهيك عن العبارات المعادية للسامية ـ جزء من العالم الذي نعيش فيه، وإن قول شخصيتك ما تقوله لا يعني أنك تقرُّ ما تقوله. هذا هو الدرس الأول في كيفية قراءة رواية. وهل كتّاب قصص القتل يقرّون القتل؟ وهل تكون أنت النباتي المخلص منافقا حينما تأكل شخصية لديك هامبرجر؟ خطاب المرأة عبثي، وأحمق. لكن الحقيقة المؤسفة هي أن جميع الروائيين يتلقَّون خطابات كهذه بين الحين والآخر. وردّي المعياري هو أنني أكوّر الورقة وأرميها في سلة القمامة.

أتخيّل أن تكون تلقيت رسالتي الأخيرة الآن، والبطاقة التي سردت فيها أسماء المزيد من الشعراء (لا يزال هناك المزيد، والمزيد من الأسماء التي خطرت لي). وسوف تسعدني أفكارك بخصوص فكرة

أدورنو/ سعيد عن الأسلوب المتأخر التي أعترف أنها تستعصي عليّ إلى حدّ ما.

أرجو أن تكون بخير.

محبتي

بـــول

١٤ أكتوبر ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

بعثت لك الأسبوع الماضي نسخة من خطاب تلقَّيته من قارئة في إنجلترا، مشفوعا بكلمة يائسة أسألك فيها: ماذا أفعل إزاء هذا؟

يشير الخطاب إلى فقرة في روايتي "الرجل البطيء" تقول فيها ماريانا جوكيتش وهي حبيبة البطل الكرواتية قولا معاديا للسامية في حق صاحب متجر معين. وكاتب الخطاب يتهمني بوصفي كاتب الرواية بمعاداة السامية.

كتبت تقول لي بمنتهى العقل إن هناك أشياء معينة يمكن للمرء أن "يفعلها" بشأن هذا الخطاب. أن يتجاهله مثلا. أو يكتب ردا عليه موضحا أن الشخصيات في الروايات لها درجة من الاستقلالية عن مؤلفيها ولا تنطق بالنيابة عنهم طول الوقت ـ لا سيما وهي في حالتي شخصية ثانوية.

أوضحتَ أيضا أنني ككاتب ذي حضور معين ينبغي أن أتوقع شتى أنواع الرسائل من القراء ومن بينها رسائل لا تعكس بالضرورة فهما محترما لماهية القص أو طبيعة عمله.

غير أن سؤالي لا يزال قائما: ما الذي يفعله المرء إزاء هذا؟ ففي العالم الذي نعيش فيه، وفي القرن العشرين بالذات وما كان إياه، يمكن لاتهام معاداة السامية ـ أو الاتهام بالعنصرية ـ أن يزجّ بالمرء في خانة الدفاع عن نفسه. فيود المرء أن يقول "لكنني لست من هؤلاء"، وهو رافع يديه، مبيّنا أن يديه نظيفتان.

لكن السؤال الحقيقي ليس السؤال عمن يداه نظيفتان ومن يداه غير ذلك. السؤال الحقيقي ينشأ لحظة يزج بك في خانة الدفاع، ومن هُوّتك هذه تستشعر القادم، تستشعر الإحساس بأن حسن النوايا بين القارئ والكاتب قد تبدّد، حسن النوايا الذي بدونه تفقد القراءة متعتها وتبدو الكتابة وكأنها عمل مضن غير مرغوب فيه. ما الذي يفعله المرء بعد ذلك؟ لماذا الاستمرار إذا كانت كلمات المرء تفتّش بحثا عن إساءات أو هرطقات خفية؟ كأننا رجعنا إلى زمن البيوريتانيين.

وكفانا في هذا. تسألني ماذا أفعل في أستاذك القديم إدوارد سعيد، وفي مسألة الأسلوب المتأخر. أعترف أنني لا أتذكّر الكثير مما قاله، إلا أنني وجدت نفسي ملتزما التزاما عنيدا بالفهم عتيق الطراز للأسلوب المتأخر الذي انهمك هو في الهجوم عليه. في حالة الأدب، يبدأ الأسلوب المتأخر، بالنسبة لي، بمثال اللغة البسيطة المدجنة الخالية من الزخارف والتركيز على مسائل ذات أهمية حقيقية، قد تصل إلى مسائل الحياة والموت. وإنك بطبيعة الحالة لا تكاد تتجاوز هذه النقطة الابتدائية حتى تسيطر الكتابة نفسها وتقودك إلى حيث تشاء. ثم إن ما تنتهي إليه يكون أي شيء إلا أن يكون بسيطا أو مدجنا.

تتعرض في رسالتك الأخيرة لسجل حضور الشعراء الأمريكيين في مرحلة ما بعد الحرب، أي الشعراء الذين تركوا بصمتهم في ما بعد عام ١٩٤٥، وهي بالفعل قائمة شديدة التميز. فهل نرى أمثالا لهم اليوم؟ أفترض أنني لا بد أن أحذر لئلا أتسرّع أكثر مما ينبغي في الرد: فالكبار معروفون بعماهم عن فضائل الصغار. ولكنني سأقول إنني أرى بين قراء اليوم قلة قليلة تمضي في حياتها على هدى مما يقوله شعراء أيامنا. في حين أعتقد بشدة أن كثيرا من الشباب في الستينيات وحتى لحظة ما من السبعينيات، بل وكثيرا من خيرة الشباب كانوا يتخذون الشعر هاديهم الحق في الحياة. وأنا أشير هنا إلى شباب في الولايات المتحدة، ولكنَّ مثل هذا ينطبق على أوربا، وينطبق بشدة في حقيقة الأمر على أوربا الشرقية كلها. فمن له اليوم قوة صياغة أرواح الشباب التي كانت لبرودسكي أو هربرت أو إنزنسبرجر أو (حتى بالطريقة المريبة التي كانت لـ) ألن جينسبرج؟

شيء ما جرى، في ما يتراءى لي، في أواخر السبعينيات أو مطلع الثمانينيات فترتّب عليه أن أصبحت الفنون تقودنا فقط في حياتنا الداخلية. وإنني مهيأ كثيرا للاهتمام بتشخيص ما جرى بين تلك اللحظة واللحظة الحالية فكانت له سمة سياسية أو اقتصادية أو حتى تاريخية عالمية، ولكنني مع ذلك أشعر أن الكتَّاب والفنانين بشكل عام قد عجزوا عن مقاومة التحدي الذي يواجهه دورهم القيادي، وأننا اليوم بسبب هذا العجز قد بتنا أشدّ بؤسا.

مع أطيب أمنياتي

جـون

٢٣ أكتوبر ٢٠٠٩

فقط لإدخال السرور على قلبك (لو أن كلمة السرور هي الأنسب في هذا السياق). شاركت الليلة الماضية في فعالية برعاية نادي القلم الدولي عنوانها "تأمل التعذيب" تهدف إلى توثيق انتهاكات حكومة الولايات المتحدة في ظل بوش (أرفق لك غلاف برنامج الفعالية)، وفي كلماته الافتتاحية استشهد أنطوني آبيا ـ الرئيس الجديد لنادي القلم الأمريكي ـ بفقرة من "يوميات عام سيء"ـ هي الفقرة التي تتناول سيبليوس وجوانتانامو، وعزَّة الإنسانية وعار الإنسانية، فأسعدَني (لو أن مفردة السعادة لائقة في هذا السياق) أن تكون بيننا في تلك الليلة وأن يظهر دليل ملموس على أن ناسا موجودون ومشتبكون اشتباكا حقيقيا مع عملك، خلافا على سبيل المثال للمرأة الإنجليزية التي آلمتك رسالتها بعمق شديد وبلا داع أيضا.

اغفر لي أن تباطأت في الرد على الفاكس الأخير الذي وصلني منك والمؤرخ قبل تسعة أيام. الحقيقة أنني كنت أكافح لأقول شيئا ملائما أرد به على ملاحظتك عن تراجع دور الفنون في حياتنا الداخلية منذ أواخر السبعينيات أو أوائل الثمانينيات. ملأت صفحات عديدة بارتجالاتي

وآرائي، لكنها لم ترضني. أجدها ضحلة ومملة، وأتردد في ابتلائك بها. وأيضا: كلما ازددت تأملا للسؤال، ازددت اكتئابا وقد طغى عليّ الإحساس بأنني أكتب نعي زماني، بل حياتي أنا.

من بين المداخل اتي حاولتها ما يلي: ١) تحليل انتصار الرأسمالية، ٢) انتصار ثقافة البوب على الثقافة "الرفيعة"، ٣) انهيار الشيوعية، ومعها انهيار المثالية الثورية، أي فكرة إمكانية إعادة اختراع المجتمع، ٤) موت الحداثة.

ربما توجد الإجابات من خلال البحث في هذه المواضيع، أما أنا فلم ألق إلا الحزن.

لكنك على حق. شيء ما ذهب الآن بعدما كان موجودا. لا أعرف إن كان الفنانون أنفسهم يلامون على هذه الخسارة. لعل هناك عوامل أكثر مما ينبغي للوم أي أحد بعينه. ولكن شيئا واحدا مؤكد، وهو أن الغباء ازداد على جميع الأصعدة. حينما يقرأ المرء رسائل الجنود المشاركين في الحرب الأهلية الأمريكية، يتبيَّن أن الكثيرين منهم أشدّ ثقافة، ودقةً، وحساسية تجاه فوارق اللغة الطفيفة من كتابة أغلب أساتذة اللغة الإنجليزية اليوم. رداءة المدارس؟ رداءة الحكومات التي تسمح للمدارس الرديئة بالتواجد؟ أم هي ببساطة كثرة المشتِّتات، وكثرة أضواء النيون، وكثرة شاشات الكمبيوتر، وكثرة الجلبة؟

عزائي الوحيد أن الفن يبقى، برغم كل شيء. فهو حاجة إنسانية لا تشبع، وحتى في هذه الأوقات الحالكة، هناك أعداد لا تحصى من الكتّاب

والفنانين الجيدين، بل الكتّاب والفنانين العظماء، وحتى لو أن جمهور أعمالهم تضاءل، فلا يزال هناك من يبالون بالأدب فيجعلون للمسعى قيمة.

آسف أنني لم أمنحك اليوم غير القليل. أنا في كرب. في المرة القادمة سأكون أفضل حالا، هذا وعد.

مع عظيم حبي

بــول

٢ نوفمبر ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

هل لي أن أعود قليلا إلى نقاشنا للرياضة؟

كنت أقرأ أخيرا كتابا عن تاريخ القياس، "الثقة في الأرقام" لثيودور إم بورتر (١٩٩٥). ينصبّ اهتمام بورتر على أن يبيّن أن شغفنا بالأرقام حديث المنشأ بعض الشيء، ويرجع بانبعاث الروح القياسية إلى منتصف القرن الثامن عشر.

يخطر لي أن نشوء الرياضات الجماهيرية وعقيدة الأرقام قد لا يكونان منقطعي الصلة، أي أنه قد يكون ثمة سبب لتقديم الرياضات لنا في أيامنا هذه داخل علب رقمية.

انظر مثلا إلى قواعد لعبة كرة القدم العديدة. في حدود ما أعرف، كان أساس كرة القدم في أوربا صراعا سنويا بين الشباب في قريتين متجاورتين للحصول على جائزة وأخذها إلى القرية. لم يكن المهم هو شكل الجائزة. إذ كان يصح أن تكون في مرة رأسا، لإنسان أو حيوان، لكنها في العادة كانت تتخذ شكل بالونة أو كرة. كانت القواعد قليلة

للغاية (فقد تكون "الفرق" مكونة من أي عدد، والملعب هو الريف كله، والتنافس على الجري أو المنع أو المصارعة ربما بقلع العيون أيضا) وكانت المباراة تنتهي عمليا عند إحراز الهدف الأول.

ولم يحدث إلا في منتصف القرن التاسع عشر أن وضعت قواعد هذه المنافسات لتحويلها إلى لعبة لائقة. ومع هذا التقعيد بدأت اللعبة تتخذ شكلها الرقمي الراهن: فعدد من اللاعبين، وحكم للملعب وتخطيط له، ومدة للعبة، ومعيار لإحراز الهدف، وتعريف للفوز إلى آخر ذلك.

أو تأمَّل ألعاب الكرة والمضرب. هذه في رأيي نشأت من لعبة يلقي فيها الرجل الحجارة على رجل فيدافع هذا عن نفسه بدرع أو عصا. وهذه اللعبة تصبح أقلَّ خطرا حينما يعاد تحديد الهدف (في الكريكيت) ليصير شيئا يدافع عنه الرجل ذو العصا، ثم يعاد تحديده (في البيسبول) ليصبح هدفا مجردا بحجم جذع إنسان يتواجد بصورة أو بأخرى وراء الرجل ذي العصا. والذي يفعله المصلحون في اللعبة الناتجة عن ذلك هو أنهم يضيفون إطارا رقميا كثيفا ـ مسافة بين الرجلين، حجما وشكلا لـ "الكرة" (الحجر)، حجما لـ "المضرب" (العصا) إلى آخر ذلك، ثم يضيفون المزيد، نظاما جديدا كاملا لجوائز رقمية مجردة عن ضرب الكرة وعقوبات للتخلِّي عن الموقع، إلى آخره.

ومن خلال هذا التصور الجديد للمنافسات البدائية وإخضاعها للقواعد الحاكمة، وإضفاء بعد مجرد على الفوز، يمكن القبول بها في الحياة الحديثة.

والملاكمة حالة مثيرة. إذ تبقى الأقرب روحا من المنافسات البدائية. وبرغم أن القياسيين بذلوا أقصى ما في وسعهم لتحديثها (من خلال المكافأة بنقاط على اللكمات على سبيل المثال، ولو في مستوى الهواة)، تبقى الملاكمة مروضة جزئيا لا أكثر، ومن ثم تحوم على أطراف الرياضة المهذبة.

ويخطر لي أكثر من ذلك أن نوعا معينا من الأطفال الذكور يكونون مشدودين إلى رياضات كالبيسبول والكريكيت لأنهما تتضمنان عبادة البطل المشتركة بين جميع الرياضات ("أتمنى لو كان أبي س" وتنويعات ذلك من قبيل "هذا الذي يدعي أنه أبي ليس أبي، أبي الحقيقي هو س") بنظام العقوبات القياسي الاجتماعي الذي يسمح للعقول السريعة وغير الناضجة أيضا أن تتملَّص من أسئلة صعبة من قبيل "هل الرجال الذين يطلقون على أنفسهم اسم الفريق أ أفضل أم الذين يطلقون على أنفسهم اسم الفريق ب؟" أو "هل ثمة سبيل يمكن به أن تتجاوز ميزة الفريق مجموع مزايا أعضاء الفريق؟".

هذه تأملات أثارتها قراءة الحوار الذي أجراه معك كيفين راباليس (ونشر الأسبوع الماضي في جريدة أستراليان") وفيه حكاية تحذيرية عما يمكن أن يحدث لولد إن لم يكن قلمه الرصاص جاهزا طول الوقت.

شكرا على رسالتك المؤرخة في ٢٣ أكتوبر. ليس بوسعي أن أجيب خيرا من إجابتك على السؤال عن سبب أهمية الفنانين في حياتنا قبل خمسين عاما وانتهاء ذلك الآن.

أما عن إحساسك بأنك ربما تكتب أو كتبت نعي زمنك وحياتك، فاسمح لي أن أذكر لك ما سمعته أخيرا عن مجال نشأ في رعاية المحتضرين: يلقى المحتضر رعاية ومعاونة من مستشار مدرب محترف لتسجيل تأملاته لحياته ـ ما أنجزه، وما يأسف عليه، وما يتذكره، وما عمله ـ ثم يتم تجميع ذلك لاحقا (على قرص مدمج ونسخة ورقية مطبوعة) يتم تسليمها لأسرته. تبيّن بحسب ما جاء في الإعلان الترويجي أن حكي القصة يمكّن المحتضر من الموت في مزيد من السلام.

أفضل أمنياتي

جـــون

١٣ نوفمبر ٢٠٠٩

عزيزي جــون

في اليوم التالي لإرسالي خطابي الأخير إليك، تلقيت مخطوطة ترجمة إلى الإنجليزية لرواية كتبها صديق لي ـ كتاب كجبل عظيم، أطول من ثلاثة أو أربعة أمثال أي شيء كتبه أيٌّ منا. مترجمتها جديدة على صديقي (بعد تقاعد مترجمه السابق)، ولأن صديقي يعتبر هذا أهمَّ كتبه (وهو كذلك)، ولأن استيعابه للإنجليزية محدود، فقد عرضت قبل شهور أن أقرأ الترجمة وأبدي ملاحظاتي للمحرر الأمريكي. وبالأمس أنهيت المهمة ـ التقدم البطيء المضني عبر آلاف وآلاف الجمل، حيران من البداية إلى النهاية في أخطاء المترجمة العديدة، إلى أن انتهيت أخيرا (وإن لم أتأكد بعد) أن الإنجليزية ليست لغتها الأولى. الأخطاء جميعها صغيرة: "مثل" بدلا من "كأنما"، "إياي وإياه" بدلا من "هو وأنا"، مصادر في غير مكانها، صفات بدلا من أحوال، وخلط مثير للجنون بين الأفعال اللازمة والمتعدية، لكن الأثر التراكمي صاعق، يجعل الكتاب غير صالح للنشر بحالته التي هو عليها. سوف تتم التصحيحات بالطبع، وكل شيء في النهاية سيكون على النحو الصحيح، لكنني طوال عنائي كنت أفكر في

النقاش الذي كان بيننا قبل شهور عديدة عن فكرة "اللغة الأم" وكم هي معقدة بحق مسألة إجادة لغة، وكم من القواعد والمبادئ واستثناءات القواعد والمبادئ التي يجب على المرء أن يستوعبها فتجري فيه مجرى الدم قبل أن يتمكن من "امتلاك" لغة واحدة معينة. أبسط الزلات تفضح العجز عن فهم كيفية عمل النظام كله. هفوة واحدة تدوّي على أثرها أجراس الأنذار. لا فارق بين هذا وما جرى قبل يومين حينما اتصلت بشركة سيارات الأجرة المحلية لتقلني إلى منهاتن. أعطيت السائقة العنوان، ولا بد أنها بحثت عنه في خريطة الكمبيوتر، وسألتني إن كان يقع بين شارع كذا وشارع هاوستن (ونطقتها هيوستن، كالمدينة التي في تكساس). كل من يعيش فيَ نيويورك يعرف أنه نطقها هو هاوستن، فقلت لها على الفور "أنت لست من نيويورك، صح؟" فقالت إنها ليست من نيويورك بالفعل، وإنها انتقلت إليها للتو. ذكّرني هذا بمشاهد في أفلام الحرب، أفلام الجاسوسية، حيث يدَّعي ألماني أنه أمريكي أو أمريكي أنه ألماني، لكنه يفضح نفسه بهفوة كهذه، إذ ينطق هيوستن بدلا من هاوستن كاشفا عن خداعه. تلي ذلك فصيلة الإعدام. وتذبح فصيلة كاملة. ثم هزيمة في الحرب. ما أدقّ معرفة اللغة الأم، وما أرهفها!

ملاحظتك عن هوس عصر التنوير بالقياس وتطور الرياضات المنظَّمة ملاحظة عبقرية. لا أعرف مدى معرفتك بالبيسبول، ولكن في ضوء الوقت الذي قضيته في أمريكا، لا بد أن تكون لك ولو معرفة عابرة باللعبة. فلعلك تعرف أنها لعبة تسيطر عليها الأرقام. فكل مباراة، وكل حركة في مباراة تتحول فورا إلى إحصائية، وبما أن هذه الإحصائيات

تسجَّل في ملف، فكل حركة في مباراة اليوم تقرأ في سياق تاريخ الرياضة كله. وفي حين لا يمكن إلا لقليل من الأمريكيين أن يتذكروا من كان الرئيس سنة ١٩٢٧، فإن أي متابع للعبة يمكن أن يخبرك أنه العام الذي أحرز فيه بيب روث ستين ضربة. ولكي أضرب لك مثالا على هذا الهوس شبه التلمودي بالأرقام، أرفق لك صورة من صفحة موسوعة البيسبول التي تضم ـ بجانب أشياء أخرى ـ سجلاً كلِّ لاعب شارك ولو في مباراة واحدة منذ اختراع اللعبة. ولاحظ أن مسيرة بادي مايز كلها تتكون من مجرد خمس مباريات، أقيمت جميعا في ١٩١١، في حين أن ويلي مايز، ويلي مايز الأسطوري (وبطل قصة قلم الرصاص الضائع) لعب في ما بين ١٩٥١ و١٩٧٣ وظهر في ٢٩٩٢ مباراة. قياس حقيقي. وجداول تبدو لمن ليس أهلا لها هراء محضا.

تذكر أن قواعد كرة القدم وضعت في منتصف القرن التاسع عشر. لكنني، حينما كنت أبحث من أجل كتابة نصي البسيط عن كرة القدم قبل أكثر من عشر سنوات، اكتشفت أن القواعد المعيارية وضعت مبكرا في عام ١٨٠١، بل قرابة منتصف القرن الثامن عشر وميلاد "الروح القياسية"، مما جعل من الممكن إلحاق الهزيمة بنابليون في "ميادين/ملاعب إيتن". ولكنك محقٌّ في ما يتعلق بقواعدنا الراهنة لكرة القدم، التي وضعت في جامعة كمبردج سنة ١٩٦٣.

أما عن ألعاب الكرة والمضرب، فقد صادفت نظرية عن أصول الكريكيت: إسقاط مقعد حلب البقر ثلاثي الأرجل بقذفه من بعيد بشيء

ما (حجر؟ كرة؟)، وبمرور الوقت ورغبة في إضفاء مزيد من التحدي على اللعبة، تم إدخال عصا للحيلولة دون ارتطام الشيء بالمقعد. وتحول المقعد ثلاثي الأرجل في اللعبة إلى الويكيت [أي مجموعة العصي التي يتم استهدافها]. معقول؟ ربما.

تشير إلى حوار أدليت به لكيفين رابااليس ونشر في أستراليان. للحقيقة ليس في ذاكرتي شيء مما قلته له. ولا أستطيع أن أتذكر أي شيء قلته لأي محاور على مدار السنين. مئات الأحاديث لم يبق من أيٍّ منها حرف واحد. ومع ذلك، وفي حالة الأحاديث المعروفة بالعادية، أي التي أجريها مع سيري أو معك أو مع أي من أصدقائي وزملائي وأقاربي، أجد نفسي في الغالب قادرا على تذكر أغلب ما قيل. فهل الحوار بطريقة ما هو "لاحدث"، هو حدث غير طبيعي، حديث لكنه ليس محادثة؟ حتى في ثنايا الحوار، أميل إلى نسيان ما قلته للتو. تخرج الكلمات من فمي فتتبدَّد إلى الأبد. أهو ضغط إجابة السؤال المطروح أمامي الآن هو الذي يجعلني أنسى ما سبق؟ هل يبطل الخوف من قول شيء غبي قدرتي على التذكر؟ أهو ملل الكلام عن نفسي؟

عندما كنت هنا في الصيف الماضي، ذكرت أنك توقفت عن الإدلاء بالحوارات. لكن هل سبق أن حدث لك قط شيء كذلك في الماضي، أم أنا المصاب الوحيد بهذا النوع المعين من خلل الذاكرة؟

على أية حال، إذا كنت حكيت لكيفين رابااليس عن قلم الرصاص، فلا بد أنني كنت أحكي عن لقائي بويلي مايز حينما كنت في

الثامنة. فهل حكيت البقية ـ أعني ما حدث قبل ثلاث سنوات فقط؟ إذا لم أكن فعلت، فقل لي، وسأحكي لك ما حدث في الرسالة التالية، فهي قصة غريبة ومؤثرة، وتستحق الحكي.

أما عن موضوع الذاكرة، فقد حدث لنا شيء ليلة أمس فتركنا مذهولين نحن الاثنين. قبل خمسة وعشرين عاما، رأيت أنا وسيري فيلما في القناة التليفزيونية العامة، كومديا درامية مجهولة عن كساد ١٩٣٣ الكبير من بطولة كلوديت كولبيرت بعنوان "قمر ثلاثي الأركان". اتفقنا على أنه محكم الصنع بصورة مرعبة، وعلى مدار ربع القرن الماضي كنا نشير إليه بوصفه كنزا ضائعا وواحدا من أفضل أفلام تلك الفترة. الأسبوع الماضي اكتشفت أن الفيلم أتيح على أقراص دي في دي فاشتريت نسخة وصلتني بالأمس. وسارعنا إلى عرضها بعد العشاء، ثم، خاب أملنا تماما، كل على حدة، ومعا، وقد وجدنا أنه ليس فيلما جيدا جدا على الإطلاق، بل هو متوسط في أفضل الحالات. فكيف أخطأنا إلى هذه الدرجة في تقييمنا؟ والأهم من ذلك، أننا كنا نسيء تذكر جوانب من الحبكة، ولكن كل بطريقته. فقد كانت سيري تظن أن لكلوديت كولبيرت ثلاث شقيقات، في حين كان لها في الحقيقة ثلاثة أشقاء. وكنت أظن أن كلوديه كولبيرت أنقذت الأسرة من الدمار بأن خرجت فحصلت على وظيفة، في حين أنها في الحقيقة خسرت وظيفتها تلك بعد مجرد أسبوعين.

فبماذا نخرج من هذا؟

يخطر لي أننا قد نتأمل معا مسألة الذاكرة. فإن كان الموضوع شديد الاتساع، فلنقصره على خدع الذاكرة.

مع أدفأ الأفكار

بــول

٢٢ نوفمبر ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

ما يلي من قسم الرياضة في عدد اليوم من صنداي تايمز، ولعلك تجد فيه تسلية (في أعقاب رسالتك الأخيرة) لا سيما في عبارة "مستقبل اللعبة كامن في الأرقام". الإحصائيات التي يتكلمون عنها هنا تتعمق ـ أو ربما تتجاوز ـ الجداول التي أرسلتها إليك أخيرا. وإذن نحن نقترب أكثر فأكثر من عالم الفيزياء النظرية الخالص.

على الجانب الآخر، حتى لو كان كل ما يفعلونه قابلا للترجمة إلى أرقام، فاللاعبون أنفسهم ليسوا روبوتات. وانظر إلى صورة من سنة ١٩٤٦ لتيد وليمز وستان موزيال، وهما اثنان من عظماء الزمان.

مفكرا فيك . . .

لك أطيب أمنياتي

١٥ ديسمبر ٢٠٠٩

عزيزي بـــول

تسألني إن كنت مررت بتجربة الإدلاء بحوار ثم عجزي عن تذكر ما قلته فيه. ليس الأمر كذلك بالضبط. ولكنني طالما استشعرت ضجرا قاهرا وأنا أصغي لنفسي في هذه الحوارات. بحسب طريقتي في التفكير، لا يحدث الكلام الحقيقي إلا حينما يكون هناك تيار جار بين المتحادثين. وهذا التيار نادرا ما يجري في الحوارات.

سأكون سعيدا بأن نناقش الذاكرة في وقت ما في مستقبلا، يعني، إذا لم ننس الأمر. الجانب الذي يشغلني الآن من جوانب الذاكرة أكثر مما سواه هو الشرود. وإنني أراقب نفسي بعيني صقر تحسبا للعلامة الأولى لذهاب عقلي، مع اقتراب نهاية عقدي السبعين على الأرض.

شكرا على صفحات إحصائيات البيسبول. تذكرني كثيرا بصفحات كيركيترز ألماناك، المعروف أصلا بـ ويسدنز، والذي يجمع إحصائيات لاعبي الكريكيت في العالم بصفة سنوية.

كنت أفكر في الطعام، الطعام وتابوهات الطعام. أعرف منذ زمن بعيد أن فرانتز كافكا كان نباتيا. عرفت أخيرا أن هذا كان سبب نزاع في بيت أبويه، نزاع لعل كافكا نفسه لم يكن عازفا عن إثارته. والآن أصادف كتاب إرنست بول عن كافكا. بول يتعامل بجدية مع موقف كافكا من الطعام، وكذلك ينبغي في ما أتصور لكل من يقرأ "الفنان الجائع". يقول بول إن كافكا كان يعتمد غير واع على القانون الغذائي اليهودي ليبتدع لنفسه جملة من الطقوس ذات طبيعة زاهدة عقابية للذات وتدميرية في نهاية المطاف. ومن عواقب الالتزام بهذه الطقوس أنه نأى بنفسه عن عائلته، إلى درجة أن أصبح يتناول وجباته بمفرده.

يبدو لي أن في الطعام خطابين يدوران من حولنا، ومن المدهش أن لا يقوم بينهما اتصال يذكر. أحد الخطابين هو خطاب المائدة والمطبخ، وهذا توسّع بصورة هائلة حتى تخصّصت فيه مجلات بأكملها. والآخر خطاب علم أمراض الأكل، ويشمل الأمراض السيكولوجية مثل فقدان الشهية والنهم، وبصفة أعم انتشار السمنة.

السؤال الذي يؤرقني هو التالي. هل هي حقا أقلية صغيرة من الناس (وإن تكن ربما أقلية كبيرة بصورة مؤرّقة في بعض البلاد) هي التي - بحسب التعبير الشائع - "لديها مشاكل" متعلقة بالطعام شأن كافكا، في مقابل أغلبية ليس للطعام في حياتها معنى عميق محدد، ولا يمثل لها غير تغذية جسدية وربما مصدر لذة عابرة ولا شيء أكثر؟ أليس تقسيم الناس الفج إلى هاتين الطبقتين شبيها بتقسيم الناس إلى من "لديهم مشاكل" مع

آبائهم ومن "ليس لديهم مشاكل"؟ أليس لدينا جميعا "مشاكل" مع آبائنا، لا تختلف إلا في النوعية والدرجة؟ (إنني أثير هذه الأسئلة وروح فرويد تحوم حول مرفقي). كم منا يمكن أن يحصل على وثيقة صحية نظيفة من تحقيق كالذي يجريه بول؟

يروق لنا الظن بأنه أتى على الناس حين من الدهر ـ غير شديد البعد ـ كان الطعام فيه بالغ الندرة حتى لم يكن يتيسّر إلا لفئة قليلة منعّمة أن تختار وتنتقي، ومن ثم يكون لديها "مشاكل". بالنسبة للدهماء [باللاتينية في الأصل] الذين يفترض أن أسلافي وأسلافك كانوا منهم، كان الحصول على القدر الكافي من الطعام هو الشيء الوحيد المهم، فإن أسعد الحظ أحدهم وازداد وزنه بعض الشيء، فهذا يدعو إلى الابتهاج من جانبه والحسد من جانب جيرانه.

في هذه النسخة من التاريخ الاجتماعي ـ ولنقل إنها نسخة الخمسين عاما الماضية أو المائة ـ تطورت هذه العلاقات المتوترة مع الطعام الذي نأكله أو لا نأكله على نطاق واسع.

ولكني لا أعرف إن كانت هذه النسخة صحيحة. لا أعرف إن لم يكن من الممكن ـ حتى في ظل الندرة ـ أن تتوتر العلاقة مع الطعام. وفي نهاية المطاف ماذا تكون ظاهرة الصيام التي تشترك فيها جميع الأديان؟ (أعني ماذا تكون في ضوء الشروط التي تقدمها الأديان نفسها، كتطهير الروح، وكبت الجسد وما إلى ذلك؟) ليس الأمر وكأن سؤال ما إذا كانت للفقراء والجهلة علاقة مضطربة مع الطعام غير قابل للإجابة: فهناك بلايين الناس في العالم

يعيشون ظروف الندرة ـ كل ما علينا أن نسألهم. لكن هل يبحث أحد معاني الطعام العميقة في حياتهم؟ أنا شخصيا لا علم لي بشيء كهذا.

هناك ملاحظة عابرة عند فرويد أجدها ذات صلة بالموضوع. قال فرويد إن ما يميز حياة القدماء الإيروتيكية عن حياة اليوم الجنسية هو أن تركيز الانتباه في الماضي كان منصباً على الدافع الجنسي، في حين ينصبُّ اليوم على الموضوع الجنسي. طبّق هذا على كتابة الطعام. ما الذي يعنيه تحويل انتباه المرء من المفاضلة بين جاذبيتي س و ص في قائمة الطعام إلى سؤال عما يوجد بداخلي ويقودني إلى تفضيل س على ص؟ هل صحيح حقا أن اللذة المذاقية غير قابلة للتحليل، وأنها بلا تاريخ، وأنها بلا بُعد نفسي (أي بلا بعد نفسي في حياة الشخص الفرد)؟ وهل نحن موافقون فعلا على أنه لا ينبغي أن يوجد مثل هذا التحليل (حظر يعكر الصفو)؟

من بين تفسيرات تابوهات الطعام التي يعرضها علماء الأنثروبولوجيا أن التابو يحدد ابن الجماعة كما يحدد الغريب عن الجماعة ومن ثم فهو أشبه باللاصق الذي يلصق أبناء الجماعة معا. بموجب هذا التفسير يكون محتوى التابو ثانوي الأهمية (الحيوانات البحرية غير القشرية، حليب الأبقار). ولكن هذا يبدو لي تجريديا مفرطا في التجريد. فالغربي الذي يرى جثة غير معتادة الشكل معلقة في كشك فييتنامي على قارعة الطريق يتساءل ما هذا، ويقال له إنه كلب، فيشعر لوهلة بامتعاض طبيعي ـ في ما أتصور ـ بل بغثيان. فإن قيل له إن لهذا الامتعاض شرطا ثقافيا لا يخفف ذلك عنه. أما الفييتناميون المتحلقون من حوله، يبتسمون

ويمزحون على رد فعله، فلا يبدون أقلَّ ـ ماذا أقول؟ ـ لا يبدون أقلَّ إثارة للاشمئزاز.

وأرجع إلى فرانتز كافكا على مائدة هرمان كافكا. عندنا، بفضل بول، فكرة عن الصورة التي ربما كان يبدو عليها كافكا لبرجوازي مثل هرمان، لكن أي صورة كانت لهرمان لدى كافكا؟

أفضل أمنياتي

جـــون

١٨ ديسمبر ٢٠٠٩

عزيزي جـــون

ضحكت مقهقها وأنا أقرأ قولك إنك تعتزم مناقشة موضوع الذاكرة معي "في وقت ما مستقبلا، إذا تذكرنا الرجوع إليه" . في الجملة التالية من رسالتك تشير إلى شرود الذهن، ثم في الجملة التالية لتلك، تقول إنك تقترب من نهاية العقد السبعين على الأرض، بما يعني أن عمرك سبعمائة سنة! زلة، بالطبع، من التي نقع فيها جميعا بين الوقت والآخر، حتى ونحن شباب، حتى حين لا نكون بصفة عامة عرضة لشرود الذهن، ولكن الزلة تكون رائعة حينما تأتي وسط نقاش لشرود الذهن.

بالنسبة لرجل في عمرك، لا بد أن أقول إنك بدوت لي في آخر مرة رأيتك فيها في لياقة ملفتة.

أنا واثق أنك تتذكر الفيلم الروسي الذي أعجبنا جميعا إعجابا شديدا في مهرجان العام الماضي: "الحقل البري" . لم يزل بغير موزع في الولايات المتحدة، ولأني أرى هذا ظلما فقد اتصلت بشخص أعرفه يعمل أمينا في قسم الأفلام بمتحف الفن الحديث (وهو من المسؤولين عن اختيار الأعمال

المرشحة لمهرجان **المخرجين الجدد/ الأفلام الجديدة** الذي يقام هنا كل ربيع) ودعوته إلى بيتنا لمشاهدة الدي في دي. فتحمَّس للغاية وقال إنه سوف يفعل أي شيء ليعرض الفيلم هنا. وهذا خبر ممتاز. ثم اتصل في اليوم التالي مباشرة ليقول لي إن زميلة له في القسم موجودة حاليا في جورجيا (الدولة لا الولاية) لتنظيم مهرجان للسينما الجورجية في المتحف وإنها شاهدت هي الأخرى فيلم "الحقل البري" فأعجبها وتحمست له بالدرجة نفسها. مزيد من الأخبار الجيدة، نعم، ولكن فردة الحذاء الأخرى وقعت. فالمخرج ـ نفس الرجل البالغ من العمر تسعة وأربعين عاما الذي قابلناه في إستوريا والذي كان في غاية البلاغة والفتنة في فقرة الأسئلة التي أعقبت عرض الفيلم ـ مات قبل أقل من شهر. ولم أحصل على أي تفاصيل من صديقي. أمر مؤسف جدا. آخر شيء في العالم كنت أتوقع أن أسمعه. ظننت أنك ودوروثي ينبغي أن تعرفا . . . .

ذكرت في رسالتك الأخيرة الحوار الذي أدليت به لـ ذي أوستراليان وقصة قلم الرصاص التي لم أستطع أن أتذكر أني حكيتها للصحفي. كنت وعدت أن أحكي لك بقيتها إذا كنت لم أفعل. وبما أنك لم تذكر في رسالتك أني فعلت هذا، أفترض إذن أني لم أفعله.

الجزء الأول منشور في صفحتي ٢٧١ و٢٧٢ من "الأعمال النثرية الكاملة"، في القسم الخامس من قصصي الحقيقية بعنوان "لماذا أكتب؟". بمجرد أن تستوعب هذه اللحظة من شقاء الطفولة، إليك ما يلي:

في يناير سنة ٢٠٠٧، هربت وسيري من نيويورك الباردة لحضور مهرجان أدبي في كاي ويست بفلوريدا. وكان بين الكتّاب الحاضرين هناك آيمي تان التي كنت قد التقيت بها مرة أو اثنتين في التسعينيات من خلال صديق مشترك هو المخرج السينمائي واين وانج. قبل سنوات، كان واين قد حكى لي قصة مثيرة عن آيمي ضمّنتها في سلسلة أخرى من القصص الحقيقية بعنوان "تقرير عرَضي" (ص ٢٧٣ من الأعمال النثرية الكاملة). رأيت آيمي للمرة الثانية فأدركت أنني نسيت أن أهديها نسخة من الكتاب الذي نشرت فيه قصتها، فأحضرت لها نسخة في كاي ويست. قرأت القصة المكتوبة عنها وهي في الطائرة راجعة إلى بيتها في سان فرانسيسكو، وكذلك جميع قصص الكتاب، ومن بينها قصة ويلي مايز. وتبيّن أن لاعب البيسبول المتقاعد البالغ من العمر ستة وسبعين عاما آنذاك كان يعيش في بلدة قريبة من سان فرانسيسكو وأن اثنين من أصدقاء آيمي جاران له. اتصلت بهما آيمي بمجرد أن دخلت بيتها، وطلبت منهما أن يخرجا على الفور ليشتريا نسخة من الكتاب، ويطرقا باب ويلي مايز ليقرآ له القصة التي كتبتها عن لقائنا سنة ١٩٥٥. وبحسب ما حكى صديقا آيمي، دمعت عينا ويلي وهو يستمع إلى القصة، ثم أخذ يهز رأسه لدقيقة أو اثنتين بعدها، مكررا المرة بعد الأخرى "اثنان وخمسون سنة . . . اثنان وخمسون سنة. . . ".

اتصلت آيمي بسيري لتحكي لها ذلك، وظللت أنا لا أعرف أي شيء. في الأسبوع التالي الذي تصادف أنه أسبوع عيد ميلادي الستين، جاءت آيمي تان الطيبة إلى نيويورك، ودعتنا إلى عشاء، وأهدتني كرة

بيسبول موقّعة من ويلي مايز. حصل الشيخ إذن على ما كان يتوق الصبي الصغير إلى الحصول عليه. حصل عليه وهو لم يعد يريده بالطبع، ولكن ذلك ليس جوهر المسألة. فإذا لم يكن تأثر بشيء على الإطلاق، فقد تأثر قطعا بحقيقة أن ويلي تأثر.

أتردد قبل أن أثقل عليك بكتاباتي القديمة، لكن إذا كان كتاب "الأعمال النثرية" بين يديك بالفعل، فقد تلقي نظرة على "صفحات إلى كافكا" (ص ٣٠٣) و"فن الجوع" (ص ٣١٧). هما نصان عتيقان كتبتهما وأنا في العشرينيات، لكنهما يرتبطان ارتباطا مباشرا بالأسئلة التي تثيرها حول كافكا والطعام.

أتذكر أنني اشتريت كتاب بول عند صدوره للمرة الأولى (١٩٨٤! لا يعقل أن يكون مضى كل ذلك الوقت) وأفكر أنه كان حتى ذلك الوقت أفضل ما قرأت عن كافكا. وأشك أن تكون أي سيرة تالية لكافكا قد تجاوزته. الفقرة التي تشير إليها آسرة وعميقة، شرح لنفس الاندفاع إلى تحطيم الذات الذي حاولت استحضاره في نصي القصير شديد التجريدية الذي كتبته في شبابي. كافكا نموذج متطرف للتعذيب بالطعام، لكنني أوافقك على أننا جميعا لدينا "مشاكل" مع الطعام، ليس بالضرورة مع أمراض الأكل التي تشير إليها، لكن دعني أقل إنها "علاقات معقدة" مع ما نضعه في أفواهنا، للسبب نفسه الذي تحدده إذ تشير إلى فرويد: هناك بالتأكيد مكوِّن سيكولوجي من شأنه أن يفسر السبب في انجذابنا إلى س من قائمة الطعام وليس ص. هل كل شيء يعود إلى ذكريات مدفونة من الطفولة؟ ربما.

أجد جميع النقاط التي تناولتها مُحكمة العرض، ولا أعتزم محاججة أي منها، لكن لعلنا نرغب في تأمل وظيفة الطعام الاجتماعية، طقوس أيام الأعياد (نفس الوجبات التي تقدَّم كل عام في الكريسماس، وعيد الشكر، وعيد الفصح اليهودي)، ومفهوم الوجبة نفسه. لماذا لا نأكل ببساطة عندما نجوع، حينما تطلب بطوننا الطعام؟ من الذي أملى علينا تقسيم اليوم إلى إفطار وغداء وعشاء؟ وأنا أقرأ عن اعتياد كافكا تناول الطعام وحده، يدهشني أن أغلبنا لا يحب تناول الطعام وحده، وأن الجميع تقريبا يأكلون مع آخرين (أزواج، أصحاب، أسر، أطفال في مطاعم مدرسية) وأن الوجبات عادة ما تكون فرصا للكلام. فيدخل الطعام الفم، ويخرج الكلام منه.

في النصف الأول من حياتي، لم تكن لي علاقة تذكر بالطقوس من أي نوع. حفلات أعياد الميلاد، الإجازات الدينية والوطنية، الحفلات السنوية ـ كانت كلها تتركني باردا، فكنت أتجنبها ما استطعت. ثم حدث بعد تسعة وعشرين عاما أن دخلت عائلة هوستفيدت [عائلة زوجته سيري] على أطراف أصابعي واكتشفت بروتوكولات الكريسماس المعقدة في النرويج. سيري وأخواتها الثلاثة جميعا أشخاص علمانيون جادون أحرار التفكير، ومع ذلك، وفي ظل إشراف من أبويهما العلمانيين مثلهم، كان الستة يبدون إيمانا مطلقا ثابتا بأهمية التمسك بهذه التقاليد. فهناك الشجرة طبعا، وهدايا الأبوين، ولكن في جوهر التقليد نفسه ثمة عشاء الكريسماس الذي لا يمكن أن يتغيّر. كل صنف على المائدة هو نفس الصنف الموجود من عام إلى عام، وفي النهاية حلوى الأرز

المسقية بعصير التوت، وفي أحد الأطباق لوزة "سحرية" (تضعها والدى سيري)، ومن تظهر في طبقه اللوزة يحصل على جائزة، يتبيّن أنها المزيد من الطعام: قطعة كبيرة من الشوكولاتة.

عندما حضرت عشاء الكريسماس ذلك للمرة الأولى، لم أعرف في أي شيء أفكر. بدا لي من العبث أن يجلس ستة أشخاص أذكياء منخرطين في هذه الطقوس الطفولية، لكن السعادة والتضامن اللذين رأيتهما بين أولئك المشاركين الستة بدت لي رائعة في الوقت نفسه. فلم أكن رأيت في حياتي أسرة متناغمة ومتقاربة بذلك الشكل.

وبمرور السنين، كبرت العائلة، تزوجت كل أخت، وأنجبت أطفالا، وبحلول الوقت الذي بلغت فيه العائلة ذروتها السكانية (قبل موت والد سيري) كان هناك تسعة عشر شخصا يجلسون إلى مائدة عشاء الكريسماس، وقد تبنّى الجيل الجديد الإرث بمثل حماسة الكبار، ولم يشكُ أيهم ولو مرة من تناول نفس الطعام كلَّ عام. يبدو أن تكرار الطعام كان مصدر ارتياح للجميع، ومع اقتراب كرسماس آخر الأسبوع القادم، أعترف أنني، وأنا متشكك الماضي القديم، متلهف على العشاء.

شكرا على كل كلماتك الرقيقة التي بعثتها بالإيميل إلى سيري بخصوص الهجمة الوودديانية Woodian [نسبة إلى جيمس وود الناقد في ذي نيويوركر] على عملي وحياتي وكل ما يبدو أنني أمثله بالنسبة له. أنا لم أقرأ هجومه. فقد توقفت عن قراءة جميع ما يكتب عن كتبي، جيده ورديئه، ولكنني سمعت ما يكفي من الآخرين عما كتبه لأشعر أنني

هوجمت من غريب. وأنت إذا أوذيت، ينتابك الدافع إلى ردِّ الأذى. وذلك غير مسموح به في هذا الموقف. وفي ذلك بحد ذاته إحباط كبير، لكن الأذى يتضاءل بمرور الوقت. خاصة وأن محررتي فرانسيس كودي التي قابلتَها في أستراليا ٢٠٠٨ (وهي زوجة بيتر كاري) اتخذت رد فعل إيجابيا، وأنبأتني أنهم بصدد إعادة طبع الكتاب للمرة الرابعة خلال ستة أسابيع. فلا ينبغي إذن أن أشكو، وبالذات من شخص يوحي اسمه بأن يوما ما سوف يأتي فيأكله النمل الأبيض. [يمكن ترجمة اسم جيمس وود إلى "جيمس خشبة"].

مع قهقهات من القلب

بــول

٧ يناير ٢٠١٠

عزيزي بــول

الصورة التي تثيرها للوجبات في بيت هوستفيد مثيرة للغاية.

في النسخة المثالية من المائدة الأسرية يبدو أن هناك ثلاث مراحل. في البداية تتخرّج من الطفولة فتحصل على مكان لدى المائدة، وتمضي سنوات تراقب منتبها كيف يتصرف الأكبر منك سنا. وفي الثانية، تبدأ التمرد على نظام المائدة، وعلى "آداب المائدة" التي تبدو لك الآن تجسيدا لكل زيف المجتمع ونفاقه، وزيف الأسرة ونفاقها على وجه التحديد. وتمضي عمليتك الثورية هذه إلى أن تأخذ طبقك وتمضي به إلى غرفة نومك وتتناوله هناك، أو تتناول الطعام مباشرة من الثلاجة. ثم تأتي المرحلة الثالثة، المرحلة التي تصفها، حيث تعيد اكتشاف المائدة بوصفها موقعا للتكامل، وتبدأ في التأكيد على قيم المائدة ضد حاضريها من الشباب المتمردين.

ما يثير اهتمامي هو العادات التي نشأت حول المائدة. فبرغم أن المائدة هي تحديدا ذلك الموضع الذي يأتيه المرء لإشباع شهواته الحيوانية، إلا أن آداب المائدة تلجم الشهوة ـ ولو على المستوى الرسمي ـ وتخضعها

لشهوات الآخرين ("تفضلوا، أنتم أولا"). علاوة على أنه ليس من "الآداب الحميدة" أن يشبع المرء شهوته في صمت: فتكون مائدة العشاء بذلك محفلا سريًّا تتداول فيه الشؤون العائلية لا سيما الأكثر افتعالا بينها. في هذه الحوارات العائلية، أولى القواعد هي أنه لا ينبغي إطلاق العنان للأهواء، مهما يبلغ اضطرامها تحت السطح (وهذا بالتأكيد أكثر ما لا يمكن احتماله في الوجبات العائلية بالنسبة للأطفال وهم يقتربون من سنِّ التمرد: الاصطناع).

وربما تكون هناك مرحلة رابعة في النموذج. الصغار وقد طاروا من العش، والأب والأم وحدهما باقيان كل منهما يواجه الآخر على المائدة. فهل يتكلمان (ملتزمين، مع ذلك، بقاعدة استبعاد أحاديث الهوى) أم يسقطان في الصمت الذي يوسّع من نفسه، ويشتد، من عام إلى عام؟

ينبغي أن أذكر أنني أيضا كنت موضع اهتمام من الناقد الذي تذكره. موضع غريب يجد المرء نفسه فيه. بعيدا عن مسألة عدائية الناقد، قد تكون في المقال أخطاء معلوماتية، أو قراءات خاطئة ثانوية. فهل ينبغي الرد؟ هل ينبغي أن يكتب المرء رسالة إلى المحرر، يصحح فيها المقال الظالم؟ لا أقول إن المحررين لن يرحبوا بهذه الردود، فما من شيء يطرب له قراؤهم طربهم بمشاحنة أدبية جيدة في باب رسائل إلى المحرر.

ولكن الكاتب الحكيم يتحلّى هنا بالحذر. إذ يعلم أن قول ما يشي بضيقه، ناهيك عن غضبه العارم أو (لا سمح الله) حزنه الحقيقي، سوف يكون قاتلا: فقوله مثل هذا يحوِّله إلى مضحكة. والناقد يعلم ذلك فيزداد

اجتراء. ويصبح أشبه بالطفل الذي ينفخ الفقاقيع على الغوريلا في حديقة الحيوانات، مدركا أن القفص يحميه.

كل الأمنيات الطيبة

جـــون

١٢ يناير ٢٠١٠

عزيزي جـــون

في عشاء الكريسماس الأسبوع الماضي، سألت أصغر أفراد الأسرة (وهم في السابعة والعاشرة والخامسة عشرة) عما لو كانوا يضيقون باضطرارهم أكل الطعام نفسه كلَّ عام ـ بغير تنوّع يذكر ـ فقالوا جميعا إنهم يحبون ذلك، وإن التكرار هو الذي يجعله ممتعا للغاية، وإنهم يتلهفون على ذلك العشاء لهفة عظيمة كل عام.

سلوى الطقس. الطقس الذي لا دور فيه للدين. سلوى الطقس العائلي.

سيري هي التي أعدت الطعام في بيتنا، وتجاهلت طهو أحد مكوناته التقليدية: الكرنب الأحمر المسلوق الذي أغامر وأقول إن آل هوستفيد لا يأكلونه إلا في الكريسماس. فلما لوحظ غياب هذا الطبق في نهاية المطاف، شمل المائدة كلها أسى عام. واعتذرت سيري عن نسيانها ووعدت بمزيد من الانتباه في العام التالي.

يبدو أن لكل تفصيلة أهميتها.

النقاد. عندك حق: هلاك الروائي في رده علنا على هجمة كارهة. غير أنني سمعت في السنوات الأخيرة عن واقعتين من هذا النوع ـ لم تنطو أي منهما على تبادل للرسائل. واقعة نورمان ميلر ذي الثمانين عاما الذي قرص ناقدا في بطنه لكتابته مقالا سلبيا عن كتاب له. وبصْق رتشارد فورد في وجه روائي شاب كتب عن أحدث كتبه مقالا دنيئا ينم عن روح وضيعة. وكان تعاطفي مع القارص والباصق ـ ربما لأنني شخصيا أكثر تهذبا من أن أقرص أو أبصق، بقدر ما أشعر أحيانا بالرغبة في ذلك.

ولقد سنحت لي فرصتي قبل عشرين عاما فلم أنتهزها. فقد كتب ناقد أدبي في نيويورك تايمز (سبق له العمل ناقدا مسرحيا في نيويورك تايمز) عرضا متطرف العدائية لـ "قصر القمر"، ولا يكفي القول إنه كان سلبيا، بل هو هجوم علني. وبعد قرابة عام من ذلك، كلَّفني محرر مسؤول عن صفحة الرأي في نيويورك تايمز أن أكتب قصة للكرسماس، وهو التكليف الوحيد في حياتي، والقصة القصيرة الوحيدة في حياتي التي تحولت إلى فيلم "دخان" بعد سنوات قلائل. كانت أول عمل قصصي ينشر لي في التايمز (بعيدا، بطبيعة الحال، عن كم الأخبار الهائل الذي نشروه) وكان المحرر فخورا بنفسه لهذه الفكرة التي خطرت له، وسعيدا بالنتائج وتعليقات القراء المحابية فدعاني إلى الغداء على سبيل توجيه الشكر لي على جهودي. ذهبنا إلى مطعم قريب من مبنى التايمز يتردد عليه كثير من موظفي الجريدة، فلما انتهى الغداء وأوشكنا على الخروج، لمح ناقد لوس أنجلس تايمز، زميله السابق في نيويرك تايمز. قال "انظر، ها هو س. تعال نسلم عليه". لم يتح لي الوقت فأخبره أن س هذا كتب عرضا مقززا

لروايتي وأنني لا أرغب في مقابلته. فلما أعلن محرر صفحة الرأي عن اسمي لـ س، ابيضّ وجهه، ورأيت الخوف في عينيه. بدا أشبه بشخص يتوقع قرصة، وأعترف أنه لوهلة أغراني بذلك. لكنها وهلة عابرة. بدا الأفضل بكثير أن أتظاهر وكأني لا أعرفه أصلا، ولم أسمع باسمه قط، ولم أقرأ عرضه بالمرة، وعليه فقد صافحته بأدب وقلت إنني سعيد بمقابلته. بدت عليه الصدمة والارتياح في آن واحد، فما من قرص على الإطلاق، وللحظات انتابني شعور غريب بالقوة (لم أشعر به من قبل، ولم أشعر به من بعد) وقد علمت أنني كنت في موضع السيطرة الكاملة على قدر ذلك الرجل، وإن أمره كله بين يديّ. رأيت أنني تصرفتُ بأناقة، وغادرت المطعم مزهوا بانتصاري المعنوي.

والآن لست متأكدا أن ما فعلته هو الصواب. ومرت السنوات، السنوات الكثيرة، وعاد س إلى نيويورك تايمز ليعرض الكتب فيها بين الوقت والآخر. وقد ذكرت لك في رسالتي السابقة إنني توقفت عن قراءة عروض كتبي، ولكنني فتحت السنة الماضية (في خريف ٢٠٠٨) نسختي الصباحية من التايمز لأطالعها أثناء الإفطار، ولدهشتي، كان فيها عرض لـ "رجل في الظلام" بقلم س. لم يكن أحد قد أخبرني أن المقال سينشر في ذلك اليوم، وبوجود المقال أمام عيني، وهنت عزيمتي، وقرأتها رغم أنفي. هجوم حاد آخر من الرجل الذي كان عليّ أن أقرصه قبل عشرين سنة. وعلقت في ذهني جملة فلم تمح قط: "بول أوستر لا يؤمن بالقيم الروائية التقليدية". ما الذي يعنيه هذا بالفعل؟ يبدو أشبه بصوت سياسيٍّ يمينيٍّ يتردد في حملة انتخابية.

في مكان ما، وبطريقة ما، تصادف أني عرفت أن عيدي ميلادينا يحلان في أسبوع واحد، أنا في الثالث من فبراير، وأنت على ما أعتقد في التاسع منه. ولو صح ما قلته، فإنك مقبل على علامة دالة في مستقبلك القريب، وإنني أبعث إليك أدفأ الأمنيات الطيبة عبر البحار.

أتصور أنك لست بالشخص الذي يلتفت كثيرا إلى مثل هذه الأشياء، لكنني أتساءل عما لو أن دوروثي تدفعك إلى نوع ما من الاحتفال، أم أنكما تتركان اليوم يمر بغير جلبة. هذا ليس سؤالا شخصيا، فأنا مهتم بالسبب الذي يدعو البعض منا إلى تبنِّي الاحتفالات والطقوس (كحال سيري والكريسماس) وعزوف البعض منا عنها.

رجعنا من أسبانيا وفرنسا قبل أيام قليلة، واعتدنا ببساطة على التوقيت في نيويورك. برد شديد هناك، برد شديد هنا، ويبدو أن البرد شديد أيضا في بعض أجزاء أستراليا. بدأت بالفعل أشتاق إلى الربيع.

أفضل الأفكار

بـول

١٩ فبراير ٢٠١٠

عزيزي بـــول

أعرف أنك لست من مرتادي الصالونات الأدبية، لكنك تعيش في حاضرة ثقافية ومن ثم مكتوب عليك أن يتقاطع طريقك بين الحين والآخر مع أولئك الذين يكتبون عن كتبك. أما أنا في المقابل فلا مخاطرة تذكر عندي بأن أقابل تلك الفئة من الناس الذين يتكسبون لقمة عيشهم من قولهم أشياء حذقة على حساب غيرهم، وعليه فإنني ـ خلافا لك ـ لم أحتج قط أن أكبح نفسي عن قرص أي من هؤلاء في أنفه.

غريب على شخص رفيع الجلد مثلي، أو هو كذلك على الأقل في الحياة اليومية، أن لا يبالي حقا بالعروض النقدية السلبية. غريب، لكنه ليس على قدر الغرابة الذي يحملني عن التساؤل عن السبب، خاصة أنني قد يحدث وأفقد هذا الدرع المفيد.

عدم المقدرة على الاستياء مما يقوله الآخرون عني، ووجه العملة الآخر، عدم القدرة على التعاطف الحقيقي مع من يستاؤون، هما في ما أتصور سرُّ الضعف الكامن في كتاب أصدرته سنة ١٩٩٦ بعنوان

"الإساءة" . لماذا تسوؤك الإهانة لدينك (أو بلدك أو عرقك أو معاييرك الأخلاقية)، وأتساءل: لماذا لا تهز كتفيك دونها وتستأنف حياتك؟

إجابة كثير من الناس (أم أكثرهم؟) هي هذه: لأنني لا أستطيع. لأن إحساسي بنفسي متعرض للهجوم. لأن عجزي عن الاستياء سوف يجعلني أشعر بالمذلة.

أنا متأكد أن هناك، في حالات نادرة ـ جوهر صدق تام في هذا الموقف. لكنني بالغريزة، أو بالميل الشخصي، سواء الآن أو حينما كتبت "الإساءة"، أتعامل مع رد فعل كهذا بوصفه غطاء لدافع رجعي يميل المساء إليه إلى الاعتراف به: عدائية الروح، اشتهاء القطعة الجيدة.

من الأسباب التي تجعلني، أو تمكّنني من أن أكون سميك الجلد مع النقاد أنني لم أضطر قط إلى الاعتماد على كتبي في كسب لقمة عيشي. فلقد كان لديّ حتى تقاعدي من التدريس راتب أكاديمي كاف تماما. كان يمكن أن يلعنني كل من على وجه الأرض من النقاد، وتتهاوى مبيعات كتبي إلى الصفر، ولا أجوع. الجانب الأقبح في مسألة استرزاق الصحفيين على حساب الأدب ـ الحقد والنفاق والغيبة وما إلى ذلك ـ إنما يأتي أحيانا من حاجة ماسة إلى اختلاس لقمة العيش.

على أية حال، برافو عليك لأنك صبرت، ولأنك خوّفت الناقد المعني لعجزه عن الاقتداء بك.

نعم، أنا الآن في السبعين، أشكرك على أمنياتك الطيبة. سوف أنظر في المرآة، حينما تتاح لي لحظة مناسبة، لأرى إن كنت دخلت العصر الشكسبيري السادس أم السابع، ويا لهول الكلمة. أدعو الله أن يكون السادس فقط، عصر الانحناءة والخُفِّ والبنطلون والساق النحيلة والصوت المرتعش، والرجوع، وما ذلك بالأمر الهين، إلى الطفولية، بلا أسنان وما إلى ذلك.

صديقك إلى الأبد

جـــون

٢٣ فبراير ٢٠١٠

عزيزي جـــون

لأسباب لا أعرفها (ربما لأنك بعيد للغاية ولأن لقاءتنا متباعدة تماما) غالبا ما أجد نفسي راغبا في أن **أعطيك أشياء**. طرد الكتب مثلا في الشهر الماضي، وهذه المرة أسطوانة النسخة الإيطالية من "رجل على الحبل". موضوع الفيلم هو نفس الرجل، فيليب بوتيه، الذي ترجمت كتابه قبل سنوات ووضعته مع الطرد. لي حوار على الأسطوانة أدليت به في بهو فندق في ميلانو السنة الماضية، وأرسلوا لي الآن عشر نسخ. ادخرت تسعا، وأرسلت واحدة إليك.

لا أعرف إن كنت شاهدت الفيلم الذي ظهر في ٢٠٠٨ وأحدَثَ بعض الدويّ (أوسكار أفضل فيلم وثائقي)، لكن إذا كنت لم تشاهده، فمحتمل جدا أن لا تكون عندك فكرة عمن يكون فيليب بوتيه. أكثر ما اشتهر به أنه الرجل الذي سار على حبل ممدود بين مبنيي برج التجارة العالمية سنة ١٩٧٤.

لو نظرت إلى الحوار الذي أدلي به في الأسطوانة، ستعرف بعلاقتي بفيليب، فلا داعي إذن لتكرار هذا هنا. وهناك أيضا المقالة التي كتبتها

سنة ١٩٨٢ ("على الحبل العالي" في الأعمال النثرية الكاملة) والتي كان يفترض أن تكون مقدمة للكتاب الذي ترجمته ولكنها لأسباب شديدة الغرابة والإثارة لم تظهر قط في الكتاب.

تذكر المقالة اسم سايروس فانسي الذي كان وزيرا للخارجية في إدارة جيمي كارتر وحضر عرض فيليب الذي حضرته. وقد جعلت من فانسي نقطة بلاغية لأثبت أن المشي على الحبل العالي فن **ديمقراطي** تماما، قادر على إثارة اهتمام جميع الناس، من الأطفال إلى وزراء الخارجية السابقين. ولما عرضت المقالة على فيليب قال، أول ما قال، من يكون سايروس فانسي؟ فلما أخبرته قال، ثاني ما قال، إنه لا يريد اسم سياسي في كتابه. فأخرستني الدهشة. قلت له، ألا تفهم؟ لقد ذكرت اسمه لأبرز ما تقوم أنت به. قال فيليب، لا، لا، عليك أن تحذف اسمه، لن أوافق على وجوده. باستياء بالغ قلت له إنه أحمق، ورفضت حذف الاسم، وسحبت مقدمتي.

مثال بسيط ومثير للجنون لغطرسة فيليب وإحساسه بأهميته وضيق أفقه وغروره الساحق. غير أني أرجع فأقول إنه لا يمكن أن نتخيل أنه كان ـ بغير تلك الشخصية ـ ليقدم على ما أقدم عليه. ومن حسن الحظ أن الخلاف لم يدم. وأننا بقينا صديقين، وبعد بضع سنوات، عندما عثرت له على ناشر فرنسي للكتاب، كان في غاية السرور بتضمينه مقدمتي.

كل هذا ثانوي، لا يمثل سبب رسالتي إليك اليوم. اهتمامي الأكبر ينصبّ على ما يفعله فيليب، لا سيّما المسيرات الثلاث الموثقة في الفيلم:

نوتردام في باريس، جرس ميناء سيندي، وبرج التجارة العالمي. لا أعرف كيف يمكن أن يكون رد فعلك على تلك المنجزات (أو كيف كان رد فعلك عليها)، ولكنها بالنسبة لي أكثر الإنجازات التي رأيتها في حياتي استثنائية وجمالا وإثارة، هي أفعالُ عظمةٍ آسرة أرتعش لمجرد التفكير فيها.

في إحدى رسائلك الأولى، تكلمت عن مشاهدة فيديرر وهو يلعب التنس: "لقد رأيت للتو شيئا هو في الآن نفسه إنساني ومجاوز لما هو إنساني، لقد رأيت للتو شيئا أشبه ما يكون بمثال تحقق". ثم قولك بعد فقرتين، في إشارة إلى روائع الفن: "ولكن الذي أنتجها رجل مثلي . . . فيا له من مجد أن أنتمي للسلالة التي يمثلها هذا الرجل".

أفعال فيليب أثارت بنفسي مثل ذلك الإجلال، ومثل الاعتزاز بالانتماء إلى سلالة البشر.

السؤال الذي أريد أن أطرحه هو لماذا.

ما يفعله - إن نحن تكلمنا بصرامة - ليس من الفن في شيء، أليس كذلك؟ ولا هو يندرج في نطاق الرياضة. بل أفترض، من زاوية نظر معينة، أن من الممكن إدراجه ضمن أفعال الجنون. وفي نهاية المطاف، لماذا تخاطر بحياتك من أجل شيء هو في جوهره حركة لا فائدة لها ولا معنى؟ ومع ذلك، ومثلما أبيّن في حوار الأسطوانة، وبينما أشاهد تصوير مسيرته في نوتردام، امتلأت عيناي بالدموع حينما بدأ فيليب يلعب بالقطع الخشبية وهو واقف على الحبل. كان أمرا لا يصدق، مجنونا

بصورة مرعبة، مجاوزا لأي شيء يمكن أن نتوقعه بصورة طبيعية من إنسان، لدرجة أن تصدّع شيء ما بداخلي.

لسنوات، أتحرك وفي دماغي فكرة فيلم وثائقي (شيء أعرف أنني لن أقوم به أبدا) بعنوان "فن التوافه". يبدأ بنجار ماهر لنَقُلْ إنه يعمل على إقامة خزانة جيدة (فهذه صنعة مفيدة) مع قَطْعَات لصَور فتيات في درس باليه يكافحن لإتقان فنِّهن (ذلك السعي إلى الجمال، وهو في جوهره بلا فائدة، بما أنه لا يخدم غرضا عمليا)، وأنتقل من ذلك إلى حوارات وممارسات للعديد من أصحاب المساعي "الفنية" المهملة أو مهضومة الحق: فيليب والمشي على الحبل، ريكي جاي، الفنان خفيف اليد الذي يوشك أن يكون ساحرا، وآرت شبيجلمان رسام الكاريكاتير الذي انتقل بالكتب المصورة إلى مصاف الأدب الجاد. بعبارة أخرى، الفنون المرتبطة عموما بالأطفال والمهرجانات، ومع ذلك ففي حالة هؤلاء الثلاثة، فإنها تمارَس بحماسة بالغة وذكاء وأصالة ترفع هذه القوالب الشعبية إلى ذرى عظيمة من الـ تعقيد. إنني أعرف كلا منهم منذ سنين كثيرة، وأعرف أن بينهم الكثير من السمات المشتركة: الهوس المرضي، الانضباط الرهيب، الحس التاريخي (وكل منهم يقتني مواد تاريخية متعلقة بفنه)، والقدرة على الكتابة الجيدة. (وأشير هنا بصفة خاصة إلى كتاب ريكي في تاريخ السحر "خنازير عارفة، ونساء مضادة للنار"، بوصفه مثالا مثيرا للإعجاب).

المسألة في ما أتصور هي أنه بالاقتراب من الفنون التقليدية (كالأدب، والمسرح، والموسيقى، والرسم)، يمكن أن يصل المرء إلى فهم

أفضل للدافع الجمالي لدى البشر، وإلى أن أفضل حجة للتدليل على أهمية الفن تكمن بالتحديد في لانفعيته، وأننا نكون أعمق وأقوى في إنسانيتنا عندما نفعل أشياء من أجل اللذة المحضة، وإن اقتضت منا سنين طويلة من العمل الشاق والتدريب (راقصات الباليه الصغيرات) بل ولو اقتضت اللذة المخاطرة (الحبل العالي . . .).

وبعد، أرجو أن تستمتع بمشاهدة الفيلم إذا كنت لم تشاهده بالفعل.

أما عن رسالتك، فلست أرى أي عيب كامن في كتابك "الإساءة" الذي أعتبره كتابا ممتازا، وأستبعد أن تكون لسماكة جلدك مع نقادك أي علاقة بكونك تكسب لقمة عيشك من التدريس. الأمر أنك تؤمن بأعمالك، ذلك كل ما في الأمر. تؤمن بها وتعرف أنها جيدة.

قبل بضعة شهور، كنا نتساءل لماذا لم تخترع ألعاب جديدة في العقود الأخيرة. بعدما ألقيت بضع نظرات على الأولمبياد الشتائية، أعتقد أننا ربما غالينا في رأينا.

مختلف سباقات التزلج على الجليد! والنساء يتقلبن في الهواء والمزالج متصلة بأقدامهن! جعلن قلبي يثب إلى حلقي!

مع أطيب التمنيات

بول

ملاحظة: في أعقاب صدور الترجمة الألمانية لـ "نساء ترتعد"، دعيت سيري لإلقاء المحاضرة السنوية في مؤسسة فرويد في فيينا. كيف لا أفخر بها؟

٢٩ مارس ٢٠١٠

عزيزي بـــول

شكرا جزيلا لك على أسطوانة فيليب بوتيه، مع الإضافة الحبيبة المتمثلة في الحوار المصور معك. استمتعت بالحوار. فيه سعادة زيارتك غرفة معيشتنا، والاستماع إلى جملك المعتبرة المنصفة العليمة. وكذلك سخاء رأيك في بوتيه نفسه، الذي أخشى أنني صدمت فيه لما وجدته شخصا مغرورا. ولكنني أرجع فأقول إن المرء ربما يكون بحاجة إلى الغرور، أو إلى أن لا تكون لديه في نفسه شكوك، لو كان للمرء أن يفلح في الأكروبات أو أي صنعة أخرى تستوجب استيعاب الذات المادية للذات الذهنية فلا يمكن تمييزها ـ مثلما توضح في حوارك ـ عن التفكير المركز.

فكرت أن الفيلم نفسه كان نتاج تصور سيء. فاللحظات الباقية منه معي هي لقطات ساكنة لبوتيه على الحبل، ولكنها مأخوذة من على البعد لدرجة أن يختفي الحبل ويبدو هو واقفا في الفضاء. ما عدا ذلك من الفيلم ليس إلا ترويجا من بوتيه لنفسه، يخبرنا من خلاله بـ"استحالة" الإنجاز الذي يوشك أن يحققه، برغم أننا نعرف سلفا أنه غير مستحيل، بما أنه

حقَّقه فعلا. وكل السرد المضجر الذي يرد على لسانه وألسن أصحابه عن تفاديهم الشرطة كان يمكن قطعه.

بوسعي أن أتصورّ قصة عن لاعب أكروبات أفضل من التي يجسدها بوتيه، قصة كان يمكن أن يخطط لها كافكا في سنواته الأولى ثم ينبذها لاحقا. شاب يغامر بالمشي على حبل عال فوق هاوية. لا يسقط، بل يصل سالما، ولا يحاول مرة أخرى أن يغامر بالسير على الحبل، بل ولا يتكلم عن الأمر نفسه مرة أخرى، برغم أن أصحابه لا ينسون إنجازه ويتذكرونه في ما بينهم. يستأنف الشاب حياته، ويتزوج، ويرزق بأبناء، وتزدهر حياته من جميع جوانبها. لكنه لا يكون مطلقا ذاته القديمة: يعرف أصدقاؤه هذا، مثلما يعرفه هو نفسه. يبدو الأمر وكأنه التقى بشخص أو بشيء في الفضاء، في الوقت العابر الذي قضاه فيه: نظرة عابرة، إدراك، شيء ما تبدّل من بعده كل شيء.

لعل ما أريده لا يكون فيليب بوتيه الحقيقي، بل فنان يسير على الحبل منفتحا على الميتافيزيقا. لولا أن الانفتاح على الميتافيزيقا قد لا يكون متسقا مع الإيمان الراسخ بأنك لن تسقط.

وهذا ما ينتقل بي إلى تعليق لك في رسالتك الأخيرة عن تأثير إيماني الظاهر ـ ككاتب ـ بما أفعله. (كنت ترد على ملاحظتي بأنني ـ مهما صعب تصديق ذلك ـ لا أجد غضاضة في أن يسيء إليّ النقاد).

أعتقد أنك للمرة الأولى تخطئ بشأني. فليس لديّ إيمان كبير بما أفعله. ولكي أتحرّى المزيد من الدقة، أقول إن لدي من الإيمان ما يكفي

للانتهاء من الكتابة ذاتها، إيمان كاف، أو ربما أمل كاف، أمل أعمى أو أعشى، أمل بأنني إن أوليت المشروع الذي بين يديّ ما يكفي من الوقت والاهتمام فسوف "ينفع" ولا يكون فشلا محققا. وهذه حدود أملي أو إيماني. ليس لديّ إيمان كبير بأن عملي سوف يدوم. "لا الرخام، ولا ذهب تماثيل الأمراء، سيحيا أكثر مما تحيا هذه القوافي" [وليم شكسبير - سونيتا ٥٥]. هكذا يكون الإيمان في تصوري. والذي لا أضاهيه.

وعن موضوع مختلف تماما أقول إنني كنت أعيد النظر في ملاحظات كتبتها لك قبل فترة عما يعرف بالأزمة المالية العالمية، والتي لم تبد لي شبيهة بأزمة حقيقية، بل على العكس من ذلك بدت لي وكأنها نموذج دقيق للجالسين في كهف أفلاطون، شاخصين إلى الظلال (على شاشات كمبيوتراتهم)، متصورين أنها الواقع. وأشرت إلى أننا لو أعدنا ترتيب الأرقام، لانتهت "الأزمة".

تشخيصي هذا، الذي قد يلقى الاعتراض، أشبه كثيرا بقولك إننا لو اغترفنا من ذاكرة كل شخص محتوياتها ووضعنا بدلا منها ذكريات جديدة فنحن عمليا نخلق واقعا جديدا. ولكن الاعتراض قد يمضي إلى أن يقول إن ما يتجاهله كلا الافتراضين هو أن الذكريات ليست مجرد تمثلات بيوكميائية في المخ (أو تمثلات في الكمبيوتر) بل هي آثار أشياء حدثت فعلا في الماضي الحقيقي. وحتى الأرقام في البنوك وعلى شاشات أسواق الأوراق المالية وراءها تاريخ لا يمكن فصله عنها، وهو ما يمكن أن نطلق عليه ذاكرة الاقتصاد التاريخية. بعبارة أخرى، فإن الحل الراديكالي المثالي

لمشكلة كيفية صنع مستقبل أفضل (إحلال ماض أفضل بدلا من الماضي) ليس أكثر سذاجة من الحل الراديكالي المثالي للأزمة المالية: وهو إحلال أرقام جيدة بدلا من السيئة.

بالنسبة لي (وللقفز على خطوات عديدة في هذا الجدال) فإن المسألة يمكن تصفيتها هبوطا إلى سؤال واحد: إلى أي مدى نتعامل بجدية مع خورخي لويس بورخس؟ بورخيس يرى أن إغارة الإنسيكلوبديا على تاريخنا (أي على مجمل الذاكرة التاريخية التي نشترك فيها جميعا) عند اكتمالها، ستكون قادرة على زرع ماض جديد بدلا من القديم ومن ثم تنتج حاضرا جديدا يكون بدوره قادرا على خلقنا خلقا جديدا. فهل نستمتع بخرافة بورخيس بوصفها لعبةً فلسفية حذقة على أن لا نأخذها مأخذ الجد، أم أنه يلقي إلينا فكرة ذات عمق فلسفي حقيقي؟ يروق لي أن أميل إلى الطرح الأخير.

عند التطبيق على الأزمة المالية، يبدو لي الطرح البورخيسي واردا ولو على المستوى النظري على أقل تقدير. إذ أنه بالمقارنة مع ثقل التاريخ البشري وكثافته، لا تبدو أرقام شاشات الكمبيوترات ساحبة من ورائها كل هذا الحمولة التاريخية، لا تبدو بالشيء الجسيم إن نحن أردنا حقا ووافقنا على الاستغناء عنها والبدء من جديد مع مجموعة أرقام طازجة.

المسألة هي ما إذا كنا نريد حقا إدارة مالية جديدة، ما إذا كنا نوافق على مجموعة جديدة من الأرقام، هذا هو المحك. الأرقام نفسها لا تبدي أي مقاومة: المقاومة فينا. وهكذا حينما ننظر اليوم من حولنا نرى فقط ما

نتوقّع أن نراه: إذ نفضّل نحن، أو يفضّل "العالم"، العيش في بؤس الواقع الذي خلقناه (واقع الأزمة المصطنع تماما) على أن نخلق واقعا جديدا نتفق عليه.

مع أفضل أمنياتي

جـــون

٧ أبريل ٢٠١٠

عزيزي جـــون

رجعت للتو من رحلة قصيرة أخرى . . . لأجد فاكسا جديدا منك بانتظاري.

فرحت جدا أنك استمتعت بالحوار المتلفز (الذي أجري في ظروف صعبة ووقت ضيق للغاية)، ونعم، برغم اختلاف الكلمتين اللتين نستخدمهما ـ "المتغطرس" مني في مقابل "المغرور" منك ـ لا جدال في أن فيليب تافه. أفترض أن هذه بديهية. ومع ذلك، فإن افتقاره التام إلى التواضع هو في تصوري ما يجعله مثيرا لاهتمامي.

أتفهم تحفظاتك على الفيلم، ولكن صور الإنسان الضئيل وحده على الحبل لا تنسى، كما افتتنت كثيرا بالصور القديمة التي ترجع إلى أوائل السبعينيات حينما كان فيليب وأصحابه يتقافزون في الريف الفرنسي أثناء استعداده لمسيرته الكبيرة. لمحة مؤثرة لسخافة وطاقة الشباب تذكرني بمناظر في فيلم [فرانسوا] تروفوت الذي لم يتم تنفيذه قط. أما عن الحوارات،

فالحقيقة أنه شخص أكثر هدوءا وسحرا. وقد شعرت أنه كان شديد التوتر أثناء حديثه إلى الكاميرا، عازم على أن يقدم للمخرج "أداء جيدا".

سامحني لو كنت شعرت أني أسأت الحكم عليك. أتصور أن تعليقاتي كانت تعبيرا عن إيماني غير المحدود بأعمالك. أنت بالطبع تعيش بشكوك ومخاوف وإيمان بأن كتبك لن تبقى. وأنا مثلك. لذلك أفكر إن لم يكن كل كاتب مجنونا معتوها. هي حالة داخلية لا شأن لها بجمال أو قبح ما قد يقوله النقاد عنا، طالما يبدو أنهم لا يمدحون إلا للأسباب الخاطئة، ولا يقدحون إلا للأسباب الخاطئة، وهو ما لا يؤهلهم لأن يكونوا في نظر أحد حكاما على القيمة الأدبية. كل كاتب حكَم على نفسه - وحكم قاس في الغالب - ولعل ذلك هو السبب الذي يجعل الكتّاب يستمرون في الكتابة، اتباعا للأمل اليائس بأن يكتبوا أفضل في المرة التالية. لكن مجرد عيشك أنت (يا ج ك) وأنت تشك في نفسك لا يعني أنه لا بد أن تكون لديّ، أنا القارئ لك منذ سنين كثيرة، شكوك في عملك. أما عن رد فعل المرء على النقاد، فقد يكون مجرد مزاج: الجلد السميك في مقابل الجلد الرقيق. لعلك ذو جلد سميك، في ما يتعلق على الأقل بآراء الغرباء. أما أنا فلا أصف نفسي بسماكة الجلد، بل إنني على قدر من رقة الجلد يكفيني لأفرح بقراري أن لا أقرأ المزيد من العروض النقدية.

(خبر سريع. أجريت أخيرا اتصالا هاتفيا بـ بولا نوفاريس من أيناودي وعندي بضع معلومات بخصوصك يمكن أن أنقلها إليك. أولا: يبدو أنني وإياك تعرضنا لخدعة صحفية. يقوم شخص اسمه توماسو

ديبينيديتي منذ سنوات بنشر حوارات مفبركة مع كتّاب في صحف عديدة ـ نحو عشرين حوارا في ما يبدو، وربما أكثر ـ بينها حوار معك يرجع إلى سنة ٢٠٠٣ وآخر معي يرجع إلى يناير الماضي. فضيحة. وأنا لست غاضبا بقدر ما أنا حائر. ما الذي يجعل شخصا يكبِّد نفسه مشقَّة تزوير مقابلات مع كتاب هم كما نعلم أقل أهل الأرض أهمية؟ ثانيا: أنا وأنت سوف نكون في إيطاليا في وقت واحد في يونيو. وافقت أنا وسيري على إجراء حوار قصير في مهرجان موندادوري/ أيناودي الصغير في توسكاني. يعني ساعة تعب واحدة في مقابل إجازة في المنطقة لمدة أربعة أيام. بولا قالت لي إنك سوف تفعل شيئا ما في جنوة في عطلة الأسبوع نفسه [١٢ و١٣ يونيو]. ستكون مسخرة إذا لم نبذل جهدا لنلتقي أثناء تلك الفترة، ولو اقتضى الأمر أن نقضي يوما إضافيا أو اثنين في إيطاليا قبل أن نستقل طائرتينا كل إلى بيته. سيكون من دواعي سرورنا أن نحمل نفسينا ونتجه إليك حيثما تكون لو أمكن اللقاء. فهل ستكون دوروثي معك؟ أطلعني على ما تفكر فيه. أنا واثق أن الناس في أيناودي سوف يسعدون بمساعدتنا في ترتيب ذلك).

وأنا أتأمل كلامك عن الأزمة الاقتصادية، وبورخيس، والنماذج الجديدة، أدهشني أكثر ما أدهشني قولك الأخير بأننا "نفضِّل . . . العيش في بؤس الواقع الذي خلقناه . . . على أن نخلق واقعا جديدا نتفق عليه" . هذا لا ينطبق فقط على علماء الاقتصاد بل وعلي السياسة وتقريبا على كل مشكلة اجتماعية نواجهها. واسمح لي أن أضرب لك بصورة

اعتباطية ثلاثة من مئات أمثلة المشكلات إن لم تكن آلاف المشكلات التي تقضّ مضاجع العالم.

١ ـ صراع الشرق الأوسط. سواء يؤيد المرء الصهيونية أو لا يؤيدها، سواء يؤمن أو لا يؤمن بمنطق دولة علمانية يؤسسها أتباع دين واحد، هي إسرائيل في واقع الأمر، فإن دمار إسرائيل سوف يتسبب في ألم لا براء منه لكل شخص تقريبا على وجه الأرض. حرب عالمية ثالثة، أعداد لا حصر لها من الموتى، كارثة تستعصي على التصور. في المقابل، وعلى الرغم من الرابط التاريخي بين الشعب اليهودي والمنطقة، ينظر جيران إسرائيل العرب بتعال إلى الدولة اليهودية بوصفها سرطانا يستشري بينهم، ومنذ عام ١٩٤٨ وهم عازمون عزما لا يلين على محوها من على الخريطة. لقد مرَّ عليّ وقت (قبل اغتيال رابين، وهجمات ١١/ ٩، وتنامي الجهاد الإسلامي) كنت أستشعر فيه تفاؤلا حذرا بإمكانية تحقيق حلِّ الدولتين. الآن تبدّد الأمل، وحينما أنظر في هذا الصراع الذي استمر تقريبا طول حياتي، أجدني مؤمنا بأنه كان ينبغي التفكير منذ وقت طويل للغاية في حلول راديكالية ومن ثم مستعصية على المخيلة. ولقد توصَّلت على مدار السنين إلى أفكار مغرقة في المثالية، لكنني أعتقد أن أفضل خططي هي أحدثها. إخلاء إسرائيل من جميع السكان الإسرائيليين وإعطاؤهم ولاية وايومنج. وايومنج هائلة الحجم نادرة السكان، داعمة للسلام العالمي، وبوسع الحكومة الأمريكية ببساطة أن تشتري المزارع والمراعي وتعيد توطين سكان وايومنج في ولايات أخرى. لم لا؟

أعظم الأخطار التي تهدِّد الإنسانية سوف تنتهي، ديكي تشيني سيصبح في الشارع، وفي أقلِّ وقت ممكن سوف يؤسس الإسرائيليون دولة مزدهرة. حل عملي مثالي، هكذا يبدو لي، ولكنه مع ذلك لن يتحقق مطلقا. لماذا؟ لأننا بتعبيرك "نفضّل أن نعيش الشقاء الذي خلقناه".

٢ ـ العيب الأساسي في دستور الولايات المتحدة. تزعم أمريكا أنها بلد ديمقراطية (والديمقراطية هي حكم الأغلبية) لكنها في الحقيقة بلد تحكمه القلة. ولست أتكلم هنا عن الشركات، والمصالح الشخصية، والنخبة الاقتصادية، بل أشير إلى النظام الفدرالي نفسه، وحقيقة أن لكل ولاية من الخمسين اثنين من الممثلين النيابيين، بمعنى أن يكون لوايومنج على ندرة سكانها (قرابة نصف مليون) مثل صوت كاليفورنيا الهائلة (ذات الثلاثين مليون نسمة أو يزيد) في شؤون البلد. ولا إنصاف في هذا أو ديمقراطية، وهو يعني أن لدينا حكومة تعجز عن التعبير عن إرادة مواطنيها. وثمة أسباب تاريخية كثيرة لهذا العيب (تسوية ثمانينيات القرن الثامن عشر التي جمعت الولايات الثلاثة عشر الأساسية في دولة واحدة)، ولكنها لم تكن قط فكرة جيدة، والآن، بعد أكثر من قرنين، تهددنا هذه الحالة بالتمزق. كيف السبيل إلى تغيير النظام؟ ليس إلا من خلال الاقتراع النيابي الذي سوف يطلب من نواب الولايات الصغيرة أن يصوّتوا على سلبهم ما لهم من سلطة وإلغاء وجودهم. ومتى تنازل ذو سلطة عن سلطته؟ وهكذا نظل نعيش الشقاء الذي خلقناه.

٣ ـ أزمة التعليم الأمريكي. يعترف الجميع بالمشكلة، يعرف الجميع أن أغلبية تلاميذنا يرسبون، ويفهم الجميع أن لا أمل في مستقبل الديمقراطية إلا في شعب متعلم (حتى لو لم نكن أصلا بلدا ديمقراطيا)، ومع ذلك يبدو أن الجميع يزيدون الوضع ترديا. والحل الذي أراه يتمثل في معلمين أفضل. فكيف السبيل إلى أن يكون المعلمون أفضل؟ بحصولهم على رواتب كرواتب المحامين والأطباء وموظفي البنوك الاستثمارية فنجد فجأة أنبه الطلبة يختارون التدريس مهنة لهم. ويمكن تمويل ذلك بسهولة بالخصم من أي عدد من مشاريع التسلح التافهة، أو بتقليص الميزانية العسكرية، ولكن هذا لن يحدث أبدا، على الأقل في أي عالم شبيه بالذي نعيش فيه اليوم. وهكذا نبقى خائضين في وحل شقائنا.

لا أعرف بأي قوة ضربت الأزمة الاقتصادية أستراليا، ولكن الآثار هنا كانت مدمرة. لم تكن بالضبط ذلك الكساد الكبير المستشري الذي كنا نتمترس دونه قبل ثمانية عشر شهرا، ولكنه شيء مماثل في البشاعة، بشع على الكثيرين ممن تلقوا الصدمة. فقدوا وظائف، فقدوا منازل، تفككّت مدن ومجتمعات كاملة ومثلما حدث مع كل انهيار اقتصادي في الماضي، ومع انفقاء كل فقاعة منذ بدء الرأسمالية، أعتقد أن السبب الذي أفضى إلى ذلك لم يكن غير العمى التاريخي، والإيمان الجاهل بأن الصاعد لا يهبط، بغض النظر عن عدد المرات التي شهدنا فيها في الماضي ديناميكية الصعود فالهبوط. في هذه الحالة، كان ثمة الافتراض الخاطئ بأن أسعار المنازل سوف تستمر في الصعود إلى الأبد. فتباع المنازل لمن لا يملكون

شراءها، بما أنها في النهاية سوف تصل إلى القمة. ثم يحدث الأسوأ، وتجمع تلك الرهونات العقارية الهشة غير القابلة للاستمرار في أوراق مالية (ويا لها من كلمة عظيمة) [الكلمة بالإنجليزية هي *securities* ومن ظلال معانيها في غير هذا السياق: الأمن]، بما أن الجميع سيربحون في عالم يصعد ولا يهبط. وتجد من يفترض أنهم متعلمون يؤمنون بهذا الهراء، فانظر إلى حالنا. الجزء المفزع في الأمر ـ هنا على الأقل ـ هو أنه لا يبدو أن أحدا قد عوقب في عالم التمويل.

كنت أقرأ [هاينرش فون] كلايست في الفترة الأخيرة، قصصه ورسائله على وجه الخصوص. أتذكر أنني سررت أشد السرور حينما قرأته للمرة الأولى في مطلع عشرينياتي، ولكنني اليوم مأخوذ. جملٌ ملفتة، أفكار كأنها ضربات بلطة، سرعة سردية جامحة، إحساس ساحق بالحتمية. لا عجب أن كافكا كان يحبه أشد الحب . . .

كلِّمني عن خططك لإيطاليا في يونيو. سوف نبتهج أنا وسيري برؤياكم من جديد.

مع أفضل الأفكار

بـــول

١٧ أبريل ٢٠١٠

عزيزي بـــول

شكرا على رسالتك في ٧ أبريل. كنت على اتصال بالناس في أيناودي، وأرجو أن أقابلك أنت وسيري في بيتراسانتا في يونيو.

منذ أن كتبت إليّ وهناك تطورات في قضية ديبينيديتي أثق أنك على دراية بها. يبدو أنني وإياك لا نعدو اثنين بين جموع ضحايا البشر. إيطاليتي ليست ذات شأن، ولكن مجرد لمحة على حواره المختلق معي تجعلني أخلص إلى أنه يتخذ مني بوقا لرؤى معينة تخصه تجاه أفريقيا وجنوب أفريقيا، بمثل ما يستعمل فيليب روث بوقا لآرائه حول باراك أوباما.

لم أنجح في العثور على حواره معك.

لو أن هذا هو نهجه، فيبدو أن هدفه العام هو أن يكون جامع نخبة من نجوم الأدب ليجهر بالرؤية الديبينيديتية للعالم.

إننا نعيش عصرا لا يمكن لغير قانون القذف أن يردع الكتاب المزعومين من أمثال ديبينديتي عن تحويلنا ـ والضمير هنا يعود على كل

صاحب اسم معروف بعض الشيء - إلى شخصيات في رواياتهم، محيلين إيانا إلى آراء وأفعال قد تسلّينا أو تغضبنا أو تسيء إلينا أو حتى تروّعنا. ولو قدِّر لهذه النوعية من المشاريع الازدهار، فقد يحدث في نهاية المطاف للذوات المستعارة المختلقة لنا بآرائها المنعَّمة بالسلاسة وغياب التعقيد، أن تسيطر على الوعي العام، ولا تكون ذواتنا "الواقعية" وآراؤنا "الحقيقية" (المتشابكة المضجرة) معلومة إلا لقلة من الأصدقاء. والمجد للصورة.

تفتتح الكلام في إسرائيل. وأجد الكلام في شأن إسرائيل صعبا، لكن إذا كنت ستحتملني، فسأحاول تنظيم أفكاري المتشابكة.

أتابع أخبار إسرائيل/ فلسطين بمشاعر فزع واشمئزاز، لدرجة أنني أحيانا أكافح لكي لا أسبَّ كلا الطرفين وأنصرف عنهما معا. ظلم هائل تعرض له الفلسطينيون، وكلنا ندركه. دُفعوا دفعا إلى تحمّل عواقب أحداث في أوربا لم تكن لهم أي مسؤولية من أي نوع عنها، وكان من الممكن حلها - كما تشير في فنتازيا وايومنج لليهود - بنصف دزينة من الطرق التي ليس بينها طرد الفلسطينيين من أرضهم.

لكن ما حدث قد حدث، ولا سبيل إلى إبطاله. إسرائيل موجودة، وسوف تكون موجودة لوقت طويل. أعرف أنه يحلو للساسة الإسرائيليين أن يتلاعبوا بصور الجيوش العربية في احتشادها عبر الحدود، وذبحهم الرجال واغتصابهم النساء وتبولهم على تابوت العهد، لكن الحقيقة أن نصف قرن بذل فيه العرب أقصى ما في وسعهم لم يثمر عن استرداد متر

مربع من الأراضي الفلسطينية، وما من مراقب غير مبال يتوقع أنهم سوف يكونون أفضل أداء إن هم عمدوا إلى غزو جديد.

هناك شيء اسمه الهزيمة، والفلسطينيون مهزومون. وبرغم مرارة هذا المصير، فعليهم أن يتذوقوه، ويسمّوه باسمه الحقيقي، ويبتلعوه ابتلاعا. لا بد أن يتقبلوا الهزيمة، ويتقبلوها تقبلا بنّاء. وبديل ذلك، أي الطريقة الهدامة، هي أن يواصلوا تغذية أحلام الانتقام بغَد تحدث فيه معجزة فيستقيم كل معوج ويصحح كل خطأ. ومن أجل الطَريقَة البناءة في تقبل الهزيمة عليهم أن ينظروا إلى ألمانيا ما بعد ١٩٤٥.

سيقول الفلسطينيون إن ما أسميه أحلام الانتقام المطلق هو أحلام العدالة المطلقة. ولكن الهزيمة لا علاقة لها بالعدالة، بل بالقوة في مقابل قوة أكبر منها. وطالما أن الإسرائيليين قادرون أن يروا، من تحت غليان سطح المطالبات الفلسطينية بالتسوية العادلة، أحلام قلب المائدة، فسوف يبقون فاتري الحماس، بل أقلّ من ذلك، في ما يتعلق بالتفاوض على تسوية.

ما يحتاج إليه الفلسطينيون هو أن يظهر شخص على قدر كاف من الأهمية فيقول "لقد خسرنا، وهم كسبوا، فلنضع السلاح ولنتفاوض على أفضل شروط الاستسلام، واضعين في أذهاننا، لو أن لنا في هذا عزاء، أن العالم كله يرى". بعبارة أخرى، هم بحاجة إلى عظيم، رجل ذي رؤية وشجاعة، يخرج من بينهم ليتصدَّر المشهد. ولسوء الحظ، عندما يتعلق الأمر بالرؤية والشجاعة، يبدو لي الزعماء الذين أفرزهم

الفلسطينيون حتى الآن أقزاما. وإن شاءت المصادفة أن يظهر هذا المخلِّص، أخمِّن أنه سرعان ما سيُضرب بالنار.

ربما حان الوقت لتتولى الفلسطينيات زمام السلطة.

أما وقد قلت ما قلت عن الفلسطينيين، لا بد أن أقول إن هناك شيئا شديد القبح في تصرفات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، الحكومة المنتخبة ديمقراطيا، التي تعمل وفق دستور رديء رديء لن يتغير إلا بمزيد من العمل الدستوري، قبح يوشك أن يقلب معدة المرء. وليس ثمة إلا كلمة واحدة تصف ما جرى أخيرا في لبنان وغزة، هذه الكلمة هي *schrecklich*. و*schrecklich* كلمة قبيحة قاسية ـ كلمة هتلرية ـ وتعني معاملة الناس بطريقة قبيحة قاسية عديمة القلب. ولكل من يميل بيننا إلى الترويح عن نفسه بالفكرة التقدمية في جوهرها، والتي تذهب إلى أن تاريخ الإنسانية يلقننا دروسا علينا أن ننتبه لها إن شئنا أن نكون بشرا أفضل، فإن السؤال الذي لا بد أن نتوقف عنده هو هذا: أي نوع من الدروس لقَّنه التاريخ لإسرائيل؟

لقد عشت معظم حياتي في جنوب أفريقيا حيث كان كثير من البيض يتكلمون عن السود في إطار يمتد من التنازل الودود إلى الاحتقار السافر والكراهية العمياء، وهو نفس الإطار الذي يسمعه المرء لدى الإسرائيليين ـ أعني الكثير الكثير منهم ـ حينما يتكلمون عن العرب. هناك إسرائيليون "أخيار" (قابلت البعض منهم، وهم ملح الأرض) كما كان في جنوب أفريقيا القديمة بيض "أخيار". ولكن التلكؤ عند هذه النقطة لا ينطوي

على درس مريح. فلو كان البيض "الأشرار" في جنوب أفريقيا قد انهزموا فذلك لم يحدث لأن البيض "الأخيار" أقنعوهم بخطأ أساليبهم ومضوا بهم إلى التوبة. ولو أن الإسرائيليين "الأشرار" سوف ينهزمون يوما ما فلن يكون ذلك لأن الإسرائيليين "الأخيار" نالوا منهم. سيكون ذلك لأسباب مختلفة تماما، لا تزال خفية علينا.

لأن الناس يرون أنني منتمٍ لليسار، فإنهم يطلبون مني توقيع بيانات بالنيابة عن الفلسطينيين وتأييدً قضيتهم بصفة عامة. فأفعل أحيانا ما يطلبونه مني، وفي بعض الأحيان لا أفعله، وكلَّ مرة يستوجب القرار بحثا في الروح. ولا أحسب أني مختلف في هذا. إذ أن لديَّ، شأن كثير من المثقفين الغربيين، ومنهم كثير من المثقفين الغربيين غير اليهود، مشاعر منقسمة تجاه إسرائيل/ فلسطين.

هناك سببان لانقسامي أنا بالذات. أولهما أن العنصر اليهودي في الثقافة الغربية كان له أثر في تكويني. فما كنت لأكون ما أنا إياه لولا فرويد وكافكا، ناهيك عن النبي اليهودي المنشق يسوع الناصري. في حين أن الفكر الديني الإسلامي والثقافة العربية، مهما تكن مكانتهما موضوعيا، لم تساهما في تكويني بأي شيء.

وبالطبع لا يعني فرويد وكافكا أي شيء لبنيامين نتانياهو، وريث أسوأ ما في الماضي اليهودي، لا أفضل ما فيه. ولا يؤنبني ضميري مطلقا إذ أرجو أحرّ الرجاء أن يسقط نتانياهو وأشياعه، وتصل إلى الحكم قيادةٌ جديدة قادرة على الوقوف في وجه اليمين اليهودي.

ولكن هناك اعتبارا ثانيا. أنا لي أصدقاء يهود يعني لهم مصير الدولة اليهودية الكثير. ولو أنني سأختار بين أصدقائي ومبدأ العدالة التاريخية، أخشى أن أقول إنني أختار أصدقائي، وليس ذلك فقط لأنهم أصدقائي، بل لأنني أومن أن التزامهم تجاه إسرائيل (وهو ليس بالضرورة تأييدا لأي حكومة إسرائيلية معينة) نتاج تفكير عميق وإحساس عميق يكون في أوقات معينة كربا حقيقيا. ومع أنني لا أشاركهم هذا الالتزام، فالأمر في الصداقة مثلما هو في حالة الحب، حيث الحبيبة على حقٍّ وإن تكن على خطأ.

أما عن كلايست فأتفق معك في كل كلمة. مطالعتك صفحة لكلايست هي كأن تستعيدها إلى بيتك من وسط العصبة أ من الكتّاب، ذات الأعضاء القليلين للغاية، والذين تجري اللعبة بينهم وفق شروط بالغة الاختلاف عن شروط اللعبة لدى كتّاب العصبة ب الذين يألفهم المرء: هي هناك أصعب وأسرع والمخاطرة فيها أكبر.

(بالمناسبة، شاهدت أخيرا مرة أخرى معالجة [المخرج الفرنسي إريك] رومر السينمائية لقصة كلايست "ماركيز فون أو". يبدو الفيلم لي مديحا للحضارة. رومر كانت لديه حساسية شديدة التحضر، تجعلني أندهش من أنه شقَّ طريقه في عالم السينما، لعل هذا من غموض العبقرية).

مع أفضل أمنياتي

جـــون

٢٠ أبريل ٢٠١٠

عزيزي جـــون

آسف جدا لأن الفاكس لم يكن متصلا بالكهرباء. نحن الآن مشغولون بإصلاح دَرَج البيت الأمامي، ويبدو أن أحد العمال استخدم مصدر الكهرباء لتشغيل إحدى آلاتهم الكهربائية ثم نسي أن يعيد توصيل الفاكس. فلما وصلت رسالتك بالأمس اكتشفت أن عبوة الحبر قد فرغت تقريبا. الصفحتان الأوليان واضحتان تماما، ولكن هناك مناطق مبهمة في الصفحتين الثالثة والرابعة. أعتقد أني نجحت في فك شفرة كل ما كتبته، ولكن لمجرد التأكد، هل يمكن أن تعيد إرسال هاتين الصفحتين عندما يتوفر لك الوقت.

لست بحاجة إلى أن أقول لك إنني وسيري سعيدان أن طرقنا سوف تتلاقى في يونيو. وإذا لم أكن مخطئا، فسوف يكون هذا هو لقاؤنا الخامس في نحو سنتين أو سنتين ونصف. وليس ذلك بالأمر السيء حينما تراعي المسافة بين أديلايد ونيويورك. كما أن كل لقاء (وينبغي أن يكون هذا رقما قياسيا من نوع ما) في بلد مختلف. أستراليا، فرنسا، البرتغال، أمريكا، وها هي إيطاليا الآن.

أما عن مسألة بينيديتي فلا، لم أتابع التطورات اللاحقة. هل على الإنترنت موقع ما يوفر المعلومات الجديدة؟ عندي فضول أن ألقي نظرة. الحوار المزيف معي نشر في جريدة اسمها إل نازيونال (في ما أعتقد). ويبدو أنه قدَّم حوارا ثانيا في مكان آخر، ولكن المحرر ارتاب فرفض نشره. ألقيت نظرة خاطفة على الحوار المنشور، فلما رأيت نفسي أقارن نيويورك بامرأة، علمت بدون أدنى شك أن الحوار مزور. لقد قلت في حياتي الكثير من الأشياء الغبية، ولكن ليس بينها شيء بهذا الغباء.

لأسباب تتعلق تماما بما يجعلنا نكتب لأحدنا الآخر، وتتعلق تماما بإصرارنا على الاستمرار، فرحت كثيرا بكلامك عن كلايست. أوافقك، أوافقك، أوافقك على كل كلمة أضفتها.

أنا وسيري سنسافر إلى القدس في الثلاثين من أبريل وسوف نقيم هناك لثمانية أيام أو تسعة. ومن ثم فكلامك عن إسرائيل جاء في اللحظة المناسبة تماما. (أرفق مقالة من نيويورك تايمز اليوم، قرأتها على الإفطار قبل ساعة. ليست مقالة عميقة بصورة رهيبة، لكن يبدو أنها تقتنص شيئا مما يجري هناك بجانب الكلمات المحبطة والدقيقة للأسف: "اليسار السياسي المتضائل").

تكلمت عن "الأفكار المتشابكة". نظرا لتشابك الوضع، التشابك الذي كان دائما عليه، لا أرى سبيلا إلى وجود نوع آخر من الأفكار أساسا. حلي الهزلي بإعادة توطين الإسرائيليين في وايومنج ليس إلا مثالا آخر على التفكير المتشابك، وهو كذلك تعبير عن اليأس المطلق، والقناعة التامة بأنه لن

يحدث أن يتفق الطرفان يوما. وكما قال عاموس عوز "حقِّقوا السلام، لا الحب" لكن حتى ذلك لا يبدو أنه لا يزال محتملا.

متشابك، ومنقسم كذلك، على حد قولك. حتى أنا، اليهودي المولود قبل عام من تأسيس دولة إسرائيل، لست أقل انقساما منك.

كلنا نعلم لماذا وجدت إسرائيل، وكلنا قادرون ومستعدون لتخيل (أو تذكر) المناخ الذي أعقب الحرب العالمية الثانية ومن ثم فيمكننا أن نفهم لماذا رأى الكثيرون ضرورة إيجاد الدولة اليهودية. لكن ذلك لا يعني أنها كانت فكرة جيدة بأي حال. وللأسف لا سبيل للتراجع، فما حدث قد حدث، كما تقول، وما من سبيل إلى إبطاله.

ما من شك في في أن الطرفين يتصرفان تصرفات سيئة. فالتوسع الإسرائيلي في الضفة الغربية بعد حرب ١٩٦٧ أوجد وضعا لا يمكن القبول به، ولا يبدو إلا أن القبول به يزداد استحالة بمرور السنوات. ومعاناة الفلسطينيين ومذلتهم سافرة. ومع ازدياد قوة اليمين في إسرائيل، فإن أكثر ما يزعجني أن كثيرا من المستوطنين أمريكيون، وفي الغالب شباب، يهود أورثوذكسيون متعصبون من بروكلن سافروا إلى هناك ليعيشوا فنتازيا رعاة البقر مع الهنود التي رأوها في طفولتهم. ناس مجانين بصورة لا يستوعبها العقل، ومجرد وجودهم يتناقض تناقضا صارخا مع نوعية البلد التي كان ينبغي أن تكون عليها إسرائيل عندما تأسست: علمانية، اشتراكية، متسامحة.

سنوات وأنا أعبِّر تقريبا عن مثل ما عبرت عنه في رسالتك عن القيادة الفلسطينية. فلو كان هناك، بدلا من عرفات، غاندي شرقأوسطي يضع إطارا للخطاب السياسي، لكان للفلسطينيين بلا شك بلدهم الخاص منذ عشرين سنة أو ثلاثين. وهناك أيضا النفاق المزري لدى الدول العربية المحيطة، فهي بلاد شديدة الثراء باحتياطاتها النفطية وكان بوسعها أن ترسل كميات هائلة من الأموال للفلسطينيين فتساعد على إقامة مجتمع رغد قادر على الحياة هناك؟ ولكنهم يكتفون بالوقوف والفرجة ولا يفعلون شيئا، مفضِّلين أن يتركوا الفلسطينيين يعانون فتكون معاناتهم وسيلة دعاية ضد إسرائيل.

بسبب أفكاري المتشابكة، ومشاعري المتشابكة، قاومت الذهاب إلى إسرائيل حتى بلغت الخمسين تقريبا. ثم تلقَّيت دعوة من مؤسسة القدس (التي يديرها تيدي كوليك) لقضاء ثلاثة أسابيع أو أربعة "كاتبا مقيما" في مشكينوتا شعانانيم، وقررت قبولها. ومضيت أنا وسيري وصوفي ذات السنوات التسع في يناير سنة ١٩٩٧. كان بنايمين نتانياهو البشع هو رئيس الوزراء، ولأنني أدليت بحوار وصفته فيه بـ "الغبي الشرير" فقد هوجمت هجوما قاسيا في الصحافة اليمينية، لا سيما جيروزاليم بوست. لكن لا يهم. لا زلت على رأيي الذي قلته، والحقيقة أننا التقينا أثناء زيارتنا بنوعية البشر الذين تسميهم "الإسرائيليين الأخيار"، وعندك حق، وجدناهم فعلا ملح الأرض، شديدي النشاط، والدماثة، ذوي أرواح متعاطفة.

ومع ذلك، فإن الانطباع الذي خرجت به هو أن أكبر خطر على إسرائيل لا يتمثل في الفلسطينيين بل في الإسرائيليين أنفسهم، وفي أن البلد

منشق (بشدة بعد أربعة شهرا من اغتيال رابين) لدرجة تهدد بحرب أهلية. والآن يقال لي إن إحساسا باللامبالاة قد استشرى بين الناس، فضجر الجميع تقريبا من السياسة، والشباب عازفون تماما عن المشاركة. وفي غضون أقل من أسبوع، سيتاح لي أن أحكم بنفسي.

والمزيد لاحقا . . .

مع أدفأ الأفكار

بـــول

١١ مايو ٢٠١٠

عزيزي جـــون

رجعنا من أرض العذاب. وجميع المخاوف التي كانت تنتابني من فكرة الرجوع إلى إسرائيل بعد ثلاثة عشر عاما تأكّدت بما سمعته هناك وأحسست به. وعلى سوء الوضع الذي كان في ١٩٩٧، فهو الآن أسوأ كثيرا. "الإسرائيليون الأخيار" (حسب تعبيرك في رسالتك الأخيرة) يعيشون في يأس. والبقية محبوسون في إنكار عنيد شرس.

والمأساة شديدة البشاعة لأنها تجري في إحدى أجمل مدن الأرض. القدس، وقد تفتحت زهورها، في ضوء مايو، وإذا الحجارة نفسها تتألق بالألوان في كل مكان. ومع ذلك، ومن تحت هذا كله، ثمة جنون وكراهية، وأمل ميت. وعلى حد تعبير صديق يعيش في تل أبيب: "القدس لم تعد مدينة. بل وباء، ومرض".

وبرغم ذلك، وعلى السطح، تستمر الحياة. كان المهرجان الأدبي جيد التنظيم، حضره الكتّاب من شتى أرجاء العالم، واجتذبت الفعاليات حشودا ضخمة. يبدو المثقفون والفنانون في حالة ازدهار، وقد

سررت أنا وسيري بالكثيرين الذين التقينا بهم. لكن لم يعد أحد ـ باستثناءات قليلة ـ مهتما بالكلام عن "الوضع". بدا أغلب الناس ضجرين، عازفين حتى الموت عن الكلام في الأمر برمته.

ولم يكن هناك مفرٌّ بطبيعة الحال من بعض اللقاءات مع صحفيين. وكان أول سؤال يطرحه الجميع هو "هل كان لديك أي شك أو تردد حيال المجيء إلى إسرائيل؟"، ثم تأتي لحظة يطالَب فيها المرء بالتعليق على "الوضع"، وهو نفس الموضوع الذي لا يرغب في الكلام عنه من الإسرائيليين غير القليل. إسرائيل هي البلد الوحيد في حدود علمي الذي يمكن أن يطرح فيه هذا السؤال. فالكاتب الأجنبي يزور فرنسا أو إيطاليا فلا يطلب منه التعليق على السياسات الفرنسية أو الإيطالية. وأقصى ما يمكن، هو أن يطلَب من المرء تعليقه على الظروف في بلده. ولكن الصحفيين الإسرائيليين الذين التقيت بهم كانوا لا يبالون بسؤالي عن أمريكا ـ فقط أمريكا في علاقتها بإسرائيل. ومرارا وتكرارا، كان عليّ أن أصرَّ أن أوباما ليس معاديا لإسرائيل، وأن مطالباته للإسرائيليين بالتوقف عن إقامة مستوطنات جديدة هو السبيل الوحيد للحيلولة دون انتهاج سياستها الوطنية الانتحارية.

وبالطبع في كل بلد مشكلاته. ولكن ما من بلد آخر يشعر أن وجوده نفسه مهدَّد، وأن الزوال احتمال واضح. الخوف يعمي أعين الإسرائيليين، وينسيهم أنهم القوة العسكرية العظمى الوحيدة في المنطقة. الخوف يجعلهم مهووسين بأنفسهم، معزولين عن بقية العالم.

وبعيدا عن مسألة فلسطين، وحلِّ الدولتين، وحالة الطريق المسدود المستمرة على مدار الأعوام الثلاثة والأربعين الماضية، كان أكثر ما أحزنني هو موقف الإسرائيليين اليهود من عرب إسرائيل الذين يشكِّلون في تصوري ١٨٪ من السكان. عندما ترى أن ١٢٪ من سكان الولايات المتحدة سود وترى أهمية الدور الذي يلعبه هؤلاء الـ ١٢٪ في حياة البلد، يصدمك أن ترى قلة التفاعل بين الأغلبية والأقلية في إسرائيل. فالعرب مواطنون، ولكن المواطنين الآخرين لا يريدون أن يكونوا على علاقة بهم. وفي أفضل الحالات، ترى يهودا يؤيدون فكرة "منفصلون ومتساوون" القديمة، والتي تبدو لأذني الأمريكيتين مألوفة بصورة وحشية. لن أمضي إلى حدِّ القول بأن إسرائيل دولة أبارتيد، ولكنها شديدة القرب من مجتمع جيم كراو [العنصري المناهض للسود في تاريخ أمريكا]، وذلك كاف لإثارة الحزن.

والأسوأ على الإطلاق هو الأسيجة، أو ما يعرف بالحواجز الأمنية. انقبض قلبي حينما رأيتها للمرة الأولى وقلت لنفسي: هذه بلد اخترعها جوناثان سويفت.

لقد كان الهدف الأساسي من ذهابي إلى هناك هو قضاء بعض الوقت مع صديقنا ديفيد جروسمان. هو وزوجته لا يزالان في حزن على ولدهما (الذي مات قبل نحو أربع سنوات)، ولكن وجباتنا وأحاديثنا معهما هي التي بطريقة ما جعلت لتلك الزيارة قيمة، برغم كل شيء. وبضربة حظ يتبيَّن أن ديفيد سيحضر مؤتمر مونددوري/ إيناودي في

إيطاليا في الشهر القادم. لا أستطيع أن أصف لك كم أنا مشتاق إلى أن أراك هناك، وقضاء بضعة أيام معك مرة أخرى.

مع أفضل الأفكار

بــول

٤ يوليو ٢٠١٠

عزيزي بـــول

شكرا على رسالتك المؤرخة في الحادي عشر من مايو، بخصوص زيارتك لأرض العذاب على حد تعبيرك. أنا لا أتعاطف كثيرا مع الإسرائيليين اليوم، أو على أقل تقدير مع أولئك الذين انتخبوا نتانياهو، ولكنني وقد عشت السبعينيات والثمانينيات في جنوب أفريقيا، أجد مزيج البارانويا والعداوة والتشاؤم الذي تصفه مألوفا لي أكثر مما ينبغي.

هناك قدر كبير من الأعمال لمؤرخين من جنوب أفريقيا يبحثون فيها الطريقة التي انتقلت بها حكومة جنوب أفريقيا، أو وجدت نفسها من خلالها قد انتقلت من التصلب الإسرائيلي إلى ما يمكن وصفه بالتنازل غير الدموي عن السلطة. يتبيّن أنه كان ثمة أذكياء في الحكومة والقوات المسلحة ممن أدركوا في وقت مبكر كعام ١٩٨٠ أنه لا يمكن للبيض أن يظلوا محتكرين للسلطة إلى الأبد. ولكن ما منعهم من الجهر بأفكارهم هو الخوف من إقصائهم سياسيا ومهنيا إلى البرية.

وبذلك نشأ وضع متناقض داخل النخبة الحاكمة ظل يجتذب إليه عددا متزايدا من الناس الذين عرفوا أن الأبارتيد وصلت إلى طريق مسدود

لكنهم سمحوا لأنفسهم بالوقوع في شرك الصمت، بينما كانت الممارسة الفعلية للسلطة تنتقل أكثر فأكثر إلى أيدي آخر المؤمنين الحقيقيين بالأبارتيد، وهم اليمينيون المتطرفون.

لو أن شيئا مماثلا يجري الآن في إسرائيل من وراء الستار، فقد يكون ثمة أمل في نهاية المطاف. أحد السيناريوهات: أن تنتقل السلطة من أمثال نتانياهو إلى أمثال ليبرمان، وفي رد فعل على ذلك يحدث ما يماثل ثورة بلاط فوق دستورية.

كانت تنحية الجنرالات هي المنجز العظيم لـ [آخر رؤساء جنوب أفريقيا في ظل الأبارتيد] إف دبليو دي كليرك، وقد أنجزه كله من وراء الستار قبل أن يقوم بخطواته الإصلاحية الدراماتيكية. ربما يحدث في إسرائيل يوما ما أن ترغم القوةُ الساسةَ هناك على التعقُّل. تفكير تفاؤلي؟ أنت أدرى بالبلد مني.

رؤيتك أنت وسيري في بيتراسانتا، ولو لفترة وجيزة، كانت ذروة تلك الرحلة. والناس في إيناودي طيبون فعلا إذ يجمعون بيننا.

لقد حضرت في إيطاليا من الفعاليات الثقافية ما يكفيني لئلا أتوتر مما يحيطها دائما من فوضى. حيث لا تجد أبدا من يعرف بوضوح أين تقام الجلسة، ولا يمكن العثور على الشخص المسؤول عن نظام الصوت، وتثور المترجمة ثورة عارمة لأن أحدا لم ينبئها بترتيب المتحدثين، إلى آخره، إلى آخره. ثم يحين الوقت فإذا كل شيء يسير في سلاسة، وترى الجمهور يعرف في ما يشبه المعجزة إلى أين ينبغي أن يتوجه، ونظام

الصوت يعمل، والمترجمة تقوم بعمل من طراز رفيع. ويتبيَّن أن الفوضى كذب، ويبدو الإيطاليون كما لو كانوا يقولون: إننا قادرون على أن نقيم فعاليةِ مثالية، دون أن نتعبّد للكفاءة، بل إن بوسعنا أن نرتقي بمجرد فعالية إلى مستوى دراما كوميدية صغيرة في حد ذاتها.

بعدما ودعتكما في بيتراسانتا ذهبت إلى جنوة. وبعد جنوة كنت أخطط لرحلة هانئة بالقطار إلى تولوز. ولكن يد الرب تدخلت على هيئة فيضانات وأمطار في وادي تارن. وتوقفت القطارات، وصار لزاما عليَّ أن أجد طائرة إلى نيس.

وبالرجوع إلى أديليد، وجدت نفسي منفصلا عما حولي بثماني ساعات، وفي ظل الجو البارد يصعب عليّ أن أعيد ضبط ساعة جسمي. لذلك أسهر الليل كله وأنام طول النهار. ومن نِعَم ذلك عليّ أنني أشاهد مباريات كأس العالم لكرة القدم على الهواء.

أنا لم أكن قط من محبي اللعبة الجميلة، وما أراه من جنوب أفريقيا لا يساعدني كثيرا على تغيير رأيي. لا يمكن أن توجد لعبة أخرى يرتكب فيها اللاعبون مثل هذا القدر من الأخطاء في حق بعضهم البعض ويخالفون القانون في غفلة الحكم. وحقيقة أن الكاميرا ترى كل شيء وتسجِّل خداعهم الوضيع وتنقله إلى العالم كله لا تمثل لهم في ما يبدو أيَّ فارق. إنها أرض الصفاقة بوجه مكشوف.

مع أطيب أمنياتي

جـــون

٥ يوليو ٢٠١٠

عزيزي جــون

شكرا جزيلا على رسالتك التي وجدتها توا في الفاكس بالطابق السفلي. كنت سأطلب من سيري أن تبعث لك رسالة إلكترونية أخرى بكلمتين فقط ـ "الفاكس يعمل" ـ ولكن واضح أنك عرفت هذا من تلقاء نفسك.

نعم، كانت سعادة هائلة لي أن رأيتك في إيطاليا. والرحلة إلى لوكا، والأكل الطيب، والكلام. وقت ضئيل للغاية طبعا ولكن شيئا خير بلا شك من لا شيء. لا بد أن نرتب لرانديفو آخر في المستقبل غير النائي، ولو أنني أخشى أنه لن يتحقق قبل ذهابك إلى تورنتو في خريف ٢٠١١. ربما تزورنا أنت (ودوروثي؟) في نيويورك بعدها، أو ربما، إذا كان هذا غير ممكن، آتي أنا وسيري لمقابلتكما في كندا غير البعيدة عن هنا، ولو بالمقارنة مع الذهاب إلى أستراليا.

أنا أيضا بدأت مثلك أتابع كأس العالم بسبب اختلال الإحساس بالزمن نتيجةً للسفر. المباريات تذاع في أمريكا في الصباح المبكر، وفي أول

فترة ما بعد الظهر، ولأنني أستيقظ مبكرا للغاية منذ رجوعي من أوربا، فقد اكتسبت بسرعة عادة فتح التليفزيون والمشاهدة. لقد أُصبحت أنا المولع أصلا بالرياضة، أكثر وأكثر استغراقا فيها. لعلك لعبت كرة القدم في صباك. أنا لم ألعبها، ومن ثم فمعرفتي باللعبة أكثر اصطناعا من معرفتك أنت بها. أوافقك على أن المخالفات والادعاءات محرجة، وتتعارض تمام التعارض مع موقف "الرياضي المحترم" الصبور الذي نشأتُ عليه، لكن حينما لا تكون "اللعبة الجميلة" جميلة فهي تحقق متعها. إصرار الفريق شديد الأمريكية على القيام من سقطاته المرة تلو المرة، صلابة الهولنديين في إلحاق الهزيمة بالبرازيليين، سرعة الألمان ودقتهم. أنا أراهن على الهولنديين الأفذاذ في هذه البطولة مثلما في البطولة السابقة، لكنني أخشى أن الألمان سوف يكونون أقوى عليهم مما ينبغي. (وفي الوقت الذي تصل إليك فيه هذه الرسالة، ستعرف صدق تنبؤاتي من كذبها).

غير أن ما يشوِّش أفكاري في ما يتعلق بالرياضة هو دور الساعة. فالمباراة تهوي دونما توقف، واللاعبون يتراخون، ويتباطؤون، ويدورون حول أنفسهم في الملعب في احتفالات واحتضانات تستغرق نحو دقيقتين بعد إحراز كل هدف، ثم يأتي الحكم في نهاية كل شوط فيضيف اعتباطيا بعض الوقت الإضافي. في الألعاب المعتمدة على الساعة في حدود ما أعرفه ـ ككرة السلة وكرة القدم الأمريكية ـ "إدارة الساعة" جزء جوهري من اللعبة. فكلما خرجت الكرة من الملعب تتوقف الساعة. ولا بد لفريق كرة السلة أن يصوّب في غضون أربع وعشرين ثانية، وفريق كرة القدم لا بد أن ينفذ هجمته التالية في غضون خمس وأربعين. كل هذا منطقي

بالنسبة لي. أما في كرة القدم فهناك هذا النوع من الخمول والتراخي الذي يبدو لي أنه يبطل أهمية الساعة، وفي هذا تناقض، لأنها لعبة محكومة بالساعة. فهل كلامي معقول؟

أستبعد أن أكون أكثر منك دراية أو فهما لإسرائيل، فلم أزرها غير مرتين. مقارنتك مع نهاية الأبارتيد في جنوب أفريقيا معذِّبة ومغوية وباعثة على التفاؤل، لكن . . . لست متيقنا. فالوضع في جنوب أفريقيا كان في جوهره وضعا داخليا: حكومة عنصرية تقمع أغلب مواطنيها. ولكن جنوب أفريقيا لم تكن مهددة من أي جهة خارج حدودها، وهذا للأسف هو الوضع في حالة إسرائيل. وبقدر ما أحتقر الحكومة الإسرائيلية لتصلب مواقفها، وسوء تقديراتها، وأعمال القسوة التي كثيرا ما ترتكبها، لكن التهديد حقيقي ولا شك. والخطوة الإيجابية الوحيدة التي اتخذها الإسرائيليون في السنوات الماضية ـ أي إخلاء مستوطنات غزة ـ أفضت إلى العديد من الكوارث. انتخاب حماس، آلاف الصواريخ الموجهة عبر الحدود، والحصار، وغير هذا كثير. وتتساءل إن كان يمكن أن ينقلب الجيش الإسرائيلي يوما على الحكومة. ربما يحدث، لكنه يبدو لي الأبعد احتمالا بين الاحتمالات البعيدة. وذلك ببساطة لأن بوسع الحكومة أن تحافظ على امتثال الجيش بمجرد إشارتها إلى التهديدات المستمرة ـ سواء كانت حقيقية أم خيالية ـ من جيران إسرائيل.

أفكر أحيانا أن أفضل وسيلة لتحريك الوضع الجامد تتمثل في حل الدولة الواحدة. التخلي عن مبادئ الصهيونية، وإعلان الضفة الغربية

وقطاع غزة جزءا من إسرائيل، ومنح العرب جميعا حقوق المواطنين. لكنني أعود فأقول لنفسي إن هذه الخطة لن تنجح مطلقا. فإسرائيل لن تتحول إلى بلجيكا. بلجيكا الدموية العامرة بالكراهية.

قبل أيام قليلة من سفرنا إلى أوربا في أوائل يونيو، نشر الروائي الأمريكي جوناثان فرانزن مقالة في ملحق نيويورك تايمز للكتب عن الذكرى السابعة عشرة لصدور "الرجل الذي كان يحب الأطفال" لكرستيان ستيد. مقالة لا بأس بها، فعلا، وفي الإجمال ذكية ومحبة، ولكنها بدأت بالفقرة التالية التي تبدو لي شديدة الغرابة:

هناك جملة من الأسباب لكي لا تقرأ "الرجل الذي كان يحب الأطفال" في هذا الصيف. فهي أولا رواية، وألم نتوصل جميعا إلى نوع من الاتفاق السري، خلال السنة الماضية أو السنتين أو الثلاث، على أن الروايات تنتمي إلى عصر الصحافة، وستذهب بذهابها، أو أسرع؟ والروايات ـ على حد قول صديق قديم لي هو أستاذ للغة الإنجليزية ـ قضية غامضة أخلاقيا، ذلك أننا نشعر بالذنب لعدم قراءتنا المزيد منها ونشعر بالذنب أيضا لممارستنا نشاطا في تفاهة قراءتها، فهل لن نكون جميعا أفضل حالا حين يختفي شيء من أشياء العالم التي نشعر حيالها بالذنب؟

فرانزن ناجح هنا نجاحا هائلا، نقديا وتجاريا على السواء. هو رجل قضى عمره يكتب الروايات، وهو ما يعني في ما أتصور أنه يؤمن بقراءة الروايات. فلماذا إذن يشن هذا الهجوم على . . . نفسه؟ ثم إن المقالة

مكتوبة في نهاية المطاف للنشر في مجلة مخصصة حصريا للكتب، بما يعني أن كل من يجشِّم نفسه عناء قراءة المقالة هو بالضرورة شخص لديه اهتمام بالكتب، وهو بالضرورة قارئ للكتب، لا الكتب غير الأدبية فقط بل والروايات، أي الشيء المحدّد الذي يقول له فرانزن إنه لا ينبغي أن يهتم به. الحقيقة أنني أهرش رأسي من فرط الحيرة.

والدة سيري البالغة من العمر سبعة وثمانين عاما معنا الآن، وسوف نصطحبها بعد الغد إلى النرويج من أجل تجمع عائلي. أخشى من مجرد فكرة ركوب طائرة أخرى، ولكن علينا أن نفعل هذا. جائز جدا أن تكون هذه آخر رحلة تقوم بها والدة سيري إلى وطنها، فهو نداء الواجب. نرجع في الخامس عشر، وأخطط أن أغلق على نفسي الغرفة، وأبقي قدميّ على الأرض حتى نهاية الصيف.

مع أعذب التهاني في هذا اليوم الذي
تبلغ درجة حرارته ثمانية وتسعين.

بــول

١٩ يوليو ٢٠١٠

عزيزي بــول

غداة كأس العالم الأخير (لكرة القدم)، أخذت أتأمل في سؤال عما يجعلك ويجعلني، أنت الذي لم تعد الشاب الذي كنته وأنا الذي شخت تماما، نقضي وقتا كثيرا في مشاهدة رياضات لم نعد قادرين على ممارستها.

أتصور أن الإجابة هي أن كلينا نرى الرياضة المنظمة، ومشهد الرياضة إذ يلتهمها الكثير للغاية من الناس، إحدى الظواهر الاجتماعية الأساسية في عصرنا. نحن نرى هذا ولعلنا نستحسنه، ونستحسن الرياضة بذاتها ولذاتها وما تنطوي عليه من مشاركة.

نرى إذن الرياضة شيئا حميدا. لكن لماذا؟ من المؤكد أن رياضات الرجال لا تحوِّل المرء إلى شخص أفضل - فهناك الكثير للغاية من الحالات التي يتفوَّق فيها البشر في الرياضات دون أن يكونوا أفضل كثيرا كبشر. لكن ربما يكون هناك فيلٌ مُعيَّن في الغرفة [حقيقة سافرة] ونحن نتجاهله. ولو أننا نضع في ذهنينا ما قلته قبل فترة عن أنه قد يكون شيئا طيبا لو تعلم الفلسطينيون ابتلاع الهزيمة، أود أن أعرض بعض الأفكار التي خطرت لي حول الهزيمة في الرياضة.

انظر إلى تنس المحترفين. اثنان وثلاثون رجلا يشاركون في بطولة. نصفهم يخسر في الجولة الأولى ويرجع بدون تذوق حلاوة النصر. ومن بين الستة عشر المتبقين ثمانية يرجعون ولم يتذوقوا إلا نصرا واحدا ثم هزيمة يعقبها الطرد. من وجهة النظر الإنسانية، تكون التجربة الغالبة على البطولة هي تجربة الهزيمة.

أو انظر إلى الملاكمة. يصل ملاكم إلى قصر القيصر بسجل اثنين وثلاثين فوزا وثلاث هزائم. لكن ماذا عن الاثنين والثلاثين الذين هزمهم، الذين لن يصلوا مطلقا إلى قصر القيصر أو أي مجد آخر؟ ماذا عمن لا يفوزون بأي مباراة، محترفي الخسارة، الرجال الذين يساقون إلى الحلبة لمجرد أنه لا يمكن أن يوجد منتصر بغير خاسر؟

في الرياضة فائزون وخاسرون، ولكن ما لا يبالي أحد بقوله (أم هو أوضح من أن يقال؟) هو أن الخاسرين أكثر بكثير من الفائزين. في بطولة فرنسا التي تجري منافساتها بينما أكتب إليك، بدأت المنافسات بنحو مائتين، من بينهم واحد فقط سيكون الفائز ومائة وتسعة وتسعون هم المهزومون، بمعنى أنه مهما تكن القصص التي سيعزّون أنفسهم بها هم مهزومون.

الرياضة تعلمنا عن الخسارة أكثر بكثير مما تعلمنا عن الفوز، وذلك ببساطة لأن كثيرين للغاية من بيننا لا يفوزون. وأهم ما تعلمه هو أنه لا بأس بالهزيمة. الهزيمة ليست أسوأ ما في العالم، ففي الرياضة، خلافا للحرب، لا ينحر الفائز عنق المهزوم.

تأمل تلك اللحظة بالغة الإثارة في حياة الصبي الصغير حينما يشارك في لعبة يتظاهر فيها الكبار أو الصبية الأكبر سنًّا أنهم ينهزمون أمامه فيفوز طول الوقت ويشعر كما لو أنه ملك صغير، وينتقل إلى الرياضة الحقيقية التي إذا لم تضرب الكرة فيها فلا مكان لك في اللعبة، والتي تتنازل فيها عن المضرب لمن هو خير منك وتتقاعد أنت دونما مجد. تلك تكون صدمة للنظام النفسي لدى الصبي الصغير. تنتابه رغبة في الصراخ، والغضب، وتجريب كل الحيل النافعة على أبويه. يريد أن يخضع الواقع لذاته. فلا يصل به كل ذلك إلى شيء. يقال له فقط "امسح مخاطك يا ولد". ويقال أيضا "امسح مخاطك يا ولد، واستعد لجولة أخرى".

لأن ذلك هو درس الرياضة العظيم: أنك تخسر أغلب الوقت، لكن ما دمت في اللعبة فثمة دائما غد، وفرصة جديدة لاسترداد نفسك.

في هذه المدرسة العظيمة المخصصة لتعلم الخسارة، لا يطردونك ما لم ترفض تقبل الخسارة، ما لم ترفض قرار المباراة وتتقاعد إلى عزلة جليلة.

أود لو أرى الإسرائيليين والفلسطينيين يلعبون كرة القدم مع بعضهم البعض مرة في الشهر مع وجود حكام محايدين. فيتعلم الفلسطينيون أنهم قد يخسرون دون أن يفقدوا كل شيء (فهناك دائما مباراة الشهر القادم) ويتعلم الإسرائيليون أنهم يمكن أن يخسروا من الفلسطينيين، وماذا في هذا؟

شكرا على رسالة (٥ يوليو). ملحوظة سريعة عن تاريخ جنوب أفريقيا ("جنوب أفريقيا لم تكن مهددة من أي جهة خارج حدودها"). في الثمانينيات شنت جنوب أفريقيا بجيشها وقواتها الجوية حملة كبيرة ضد القوات الكوبية في أنجولا، وانهزمت، أو تعرضت على أقل تقدير لخسائر لم تستطع احتمالها. لم تكن مجرد زيادة العدد: كان الكوبيون يستخدمون طائرات روسية أفضل مناورة وتسليحا من الميراج الفرنسية التي كانت تستعملها قوات جنوب أفريقيا. فرجع الجنرالات إلى الوطن وواجهوا الساسة قائلين إن "الريح انقلبت علينا، وإن عليكم أن تفعلوا شيئا حيال ذلك".

هناك آلاف (أم عشرات آلاف؟) الكوبيين المدفونين في الأرض الأفريقية. ولقد كانت حملة الكوبيين الأخوية إلى أنجولا - من وجهة نظرهم - إحدى ذرى تاريخهم.

في رسالتك تنقل فقرة افتتاحية من مقالة حديثة لجوناثان فرانزن، ينقل بدوره عن أستاذ صديق. أخشى أن الموقف الذي يصفه الصديق (وهو أستاذ للأدب الإنجليزي!) شديد النمطية. أساتذة الأدب إلى حد كبير لا يتابعون المنشور في الشعر والقص، ولا يرونه جزءا من عملهم. ولو أنك راغب في مقابلة من يقرؤون الأدب الجديد، فعليك بالذهاب إلى أندية الكتب ومجموعات القراءة، حيث القراء بالدرجة الأساسية نساء ينتفعن بصورة ما من شهاداتهن. ولكنني لست مضطرا إلى أن أنبئك بهذا.

أما عن موقف فرانزن ـ الذي يبدو لي من مقتطفك أنه قائم على طبقات من السخرية ـ فأعتقد أنني أكثر تعاطفا معه منك. ففي مواجهة الاختيار بين قراءة رواية عادية وتنظيف الحديقة من ورق الشجر ـ أعتقد أنني قد أختار تنظيف الحديقة. أنا لا أجد متعة كبيرة في استهلاك الروايات، والأهم من ذلك أنني أعتقد أن عدم الاكتراث بقراءة الأدب بات منتشرا في المجتمع كرد فعل. وبات محترما ـ بين الرجال على الأقل ـ أن يقول أحدهم إنه لا يقرأ الأدب بالمرة. أنا محترف، ولي في المهنة نصيب محترف، فلا أستطيع أن أجعل من نفسي معيارا. ولكنني لا بد أن أقول إنني بت أضجر من الرواية التي لا تجرب في الرواية شيئا لم يُجرَّب من قبل، ويفضل أن يكون ذلك على مستوى الوسيط ذاته.

مع أفضل أمنياتي

جــون

٢١ يوليو ٢٠١٠

عزيزي جـــون

أحد الأسباب التي تجعلني شديد الارتباط بالبيسبول بعد كل هذه السنوات هو ما كتبت أنت عنه في رسالتك: كثرة الخسارة، وحتمية الفشل. إن نظرة على الإحصاءات في صحيفة هذا الـصباح تبيّن أن الفريق صاحب الرقم الأفضل في هذا الموسم لديه ثمانية وخمسون فوزا وأربع وثلاثون خسارة، أي أن لديه معدل نجاح يصل إلى ٦٣٪، بما يعني أن أقوى الفرق الثلاثين رجع إلى مدينته محبطا في ٣٧٪ من الحالات.

مواسم البيسبول شديدة الطول ـ ١٦٢ مباراة ـ وكل فريق يمر بنجاحاتها وإخفاقاتها على امتداد الأشهر الستة: هبوط وصعود وإصابات وخسائر مؤلمة بسبب لعبة واحدة حاسمة، وانتصارات غير منتظرة في الثواني الأخيرة. خلافا للملاكمة ـ وهي دائما إما قاتل أو مقتول ـ ترى البيسبول قاتلا ومقتولا معا، وحتى وأنت مقتول، عليك أن تناضل زاحفا خارج كفنك في اليوم التالي وتبذل أقصى ما في وسعك مرة أخرى. ولهذا السبب ترى أن للثبات الانفعالي في البيسبول تقديرا كبيرا. اللامبالاة بالهزائم، والاستخفاف بالانتصارات، دون تمجيد لا داعي له.

يقال إن البيسبول مرآة للحياة ـ فهو يعلّمك أن تقبل الخير والشر. بينما بقية الرياضات مرآة للحرب.

لقد شهد الكون الرياضي الكثير من الأفعال الغريبة في هذا الصيف. أطول مجموعة في تاريخ التنس، أخطاء الحكام الغريبة في كأس العالم، الرجوع الرسمي لجنس الإناث ممثلا في عدّاءة جنوب أفريقيا التي لا يحضرني اسمها الآن. والأفدح من ذلك كله واقعة حدثت قبل شهرين في مباراة كبيرة للبيسبول، وهي ليست قصة عن الرياضة بقدر ما هي عن جمال البشر. وفقا لحساباتي التقديرية، هناك حوالي ربع مليون مباراة بيسبول لعبت على مدار الـ ١٢٠ سنة الماضية. على مدار الزمن، عشرون مباراة مثالية فقط هي التي أنهاها الرماة، فهي مباريات استطاع الرامي فيها أن يردّ كل رمية للفريق الآخر منذ بداية المباراة إلى نهايتها، سبعة وعشرين رمية متتالية، ثلاثة في كل شوط على مدار جميع الأشواط التسعة. رامٍ شاب من ديترويت اسمه جالاراجا (صغير جدا، في أوائل العشرينيات، مبتدئ لتوه، شخص لم أسمع باسمه من قبل) كان على شفا دخول قصر الخلود. رد الرميات الستة والعشرين الأوائل، وحينما رميت الرمية السابعة والعشرون إلى القاعدة الأولى، بدا أن أبواب القصر قد انفتحت وأنه بدأ يخطو عابرا العتبة. كان واضحا أن الرمية متجهة إلى خارج الملعب (وكل إعادة من كل زاوية أثبتت ذلك بدون أدنى شك) ولكن حكم القاعدة الأولى، وهو رجل يدعى جيم جويس (جيمس جويس!) أخطأ وقال إن الرمية سليمة. وكان خطأ هائلا، ربما هو الأسوأ في تاريخ الرياضة، والشيء الجميل في ما حدث في تلك اللحظة، اللحظة

التي فهم فيها جالاراجا أن مباراته المثالية قد سرقت منه عن غير حق، ذلك الشيء الجميل هو أن الشاب ابتسم. ولم تكن ابتسامة سخرية أو احتقار. ولا هي حتى ابتسامة تهكم، بل ابتسامة حقيقية، ابتسامة حكمة ورضا، كما لو كان يقول "طبعا. هكذا هي الحياة، وما الذي ننتظره منها غير هذا؟". شيء لم أر له مثيلا من قبل. أي لاعب آخر في مكانه كان لينفجر في نوبة غضب واحتجاج، معترضا على الظلم في وجه الجميع. لكن بهدوء، وبدون أن تبدر منه بادرة استياء (فاللعبة لا بد أن تستمر)، صد الرمية الثامنة والعشرين، فأكمل المباراة، لتكون أكثر مثالية من أي مباراة مثالية سبقتها، ولكنها مباراة مثالية لن تحسب له.

بعد ذلك، حينما شاهد جيم جويس الإعادة، صدم صدمة شديدة "لقد سلبت الولد مباراته المثالية" ووجه لجالاراجا اعتذارا علنيا، فقبل اعتذاره في كرم، وقال إن الجميع يخطئون وإنه ما من ضغينة.

سامحني لأني نسيت أنجولا. غباء في غباء. ولكن هل توافقني، مع ذلك، في قولي إن الأبارتيد كان سياسة داخلية في جنوب أفريقيا، وإن العالم كان يكتفي في الغالب بالفرجة على مدار عقود ـ حتى بدأت العقوبات الدولية تدخل اللعبة متأخرة كثيرا؟

لا أعرف إذا كنت تتذكر هذا، ولكنه لا يزال يضطرم في ذهني، ويملؤني بالغضب: في وقت ما من السبعينيات أو الثمانينيات، أصدر الكونجرس الأمريكي إعلانا رمزيا لحكومة جنوب أفريقيا، طالبا منها

إطلاق سراح نلسن مانديلا من سجنه. كانت الموافقة على الإعلان بالإجماع تقريبا، لولا اعتراض اثنين أو ثلاثة، كان منهم ديك تشيني.

بخصوص قراءة الروايات، أعتقد أنه ينبغي إعفاء الروائيين أنفسهم من المناقشة. فأنت لا تستطيع أن تقرأ روايات الآخرين وأنت تكتب روايتك. وحين نقرؤها، فبديهي أننا لا نريد أن نقرأ الرديء منها. خير من ذلك طبعا كنس الحديقة من ورق الشجر (وأنا أمقت كنس ورق الشجر)، لكننا لا ينبغي أن ننسى الرعشة التي تنتابنا إذ نصادف شيئا جيدا بالفعل. ثم إننا ـ وطبعا ثم إننا ـ كيف ننسى شغف قراءتنا في شبابنا، حينما كان يبدو أن حياتنا نفسها تعتمد على هذه القراءات؟

أتفهَّم أن فرانزن كان يستظرف ـ أو يسخر ـ أو يستفز القراء في فقرته الافتتاحية. المسألة ببساطة أن النكتة بدت لي فاترة. فالاحتقار لأي شيء متعلق بالمساعي الفنية أو الفكرية مستشرٍ اليوم بضراوة في أمريكا، وبعمق شديد في جانب الفكر الشعبوي اليمينيّ، حتى أنه ليؤلمني أن أرى ف يكرر هذه التفاهات القبيحة ولو في نكتة. وفي نهاية المطاف، هذه هي البلد التي يستطيع فيها جورج دبليو بوش ـ سليل الثروة والامتياز ـ أن يدعي أنه "الرجل العادي" وينجح في هذا، في حين يُرى أوباما الذي نشأ في ظروف صعبة "نخبويا" لأنه ألَّف كتابين، وأدّى أداء جيدا في كولمبيا وهارفرد، وعمل في مجال القانون.

رجعنا الآن من النرويج التي قد أصفها بأنها "أرض اللا عذاب". آفاق الجمال غير الأرضي، جمال هو حرفيا من غير هذه الأرض، وكأننا

هبطنا على كوكب آخر. أما والدة سيري، التي كانت تبدو قبل ستة أسابيع على عتبة الموت، فقد تعافت تماما بعد تشخيصات طبية خاطئة، وكانت ملكة الاجتماع العائلي (الذي ضمَّ تسعة وأربعين شخصا من جميع الأعمار) فهي آخر الأحياء من جيلها، ومن ثم هي الأم الكبرى، وإن تكن الهادئة العازفة عن الظهور، المتنعمة بمحبة أبنائها، وأبناء أخوتها وأخواتها. منظر رائع.

بحسب رسالة تلقيتها قبل أيام من فيليب روث، "ينبغي أن تعرف أن الصحافة الإيطالية تقول إن بينيديتي يخطط لنشر كتاب بحواراته المفبركة مع مقدمة لي".

الظاهر أن القصة مستمرة.

مع أطيب الأفكار

بــول

٢٩ يوليو ٢٠١٠

عزيزي بــول

انتهيت هذا الصباح من قراءة "شبح الخروج" لفيليب روث، وشاهدت في المساء فيلم أوزون "*Letempsqui reste*". ثمة عنصر مشترك: هو السرطان. بطل "شبح الخروج" سبعيني يقع - وهو العنين بعد استئصال البروستاتا - وقعة سوداء في غرام شابة. أما الفيلم فعن شاب أناني متغطرس يجد نفسه مصابا بسرطان متدهور فيصبح في أيامه الأخيرة ما يمكن أن يصفه بالمرء بإنسان أفضل. فأحد العملين كوميديا سرطانية، بتنويعة المرارة الروثية، والآخر مرثية من نوع مؤثر.

لم أر في "شبح الخروج" إضافة بارزة إلى منجز روث. أعرف أن روث يستطيب تحدي استعصار شيء طازج من مواقف مكرورة، لكن لا يوجد الكثير الذي يمكن أن يستخلصه المرء من ذكر يحارب تدهوره إثباتا لفحولته للمرة الأخيرة.

أما في فيلم أوزون. هل تعرف أعماله؟ الفيلم مثالي بطريقته، ينجح في التقاط حالة الوحدة التي يعيشها المحتضرون ومزيج الشفقة

واللامبالاة والقلق الذي نتعامل به معهم. يستخدم برهافة شديدة قصة ضمنية بسيطة كان يمكن بين أيد أخرى أن تتحول إلى مسخ: نادلة تقترب من شاب في مقهى، تجامله بشأن مظهره، وتدعوه إلى تلقيحها لأن زوجها ـ المتواطئ معها على الاقتراح ـ عقيم. بل إنها تقترح أن تدفع له. يشعر الشاب للوهلة الأولى بالإهانة، ولكنه لاحقا يمعن التفكير في الأمر، فيجده وسيلة لترك أثر وراءه.

ثمة إحساس تشيخوفي في هذه القصة الضمنية كما يعالجها أوزون: متعاطفة ولكنها لطيفة وواعية. والسؤال المتوجس الذي يطرحه الزوجان على الشاب، وهما يودعانه: هل يمكن أن تطمئننا إلى أنك تعاني (أو تحتضر) بسبب السرطان لا الآيدز. يود بوضوح أن يقابلهما مرة أخرى، ولكنهما لا يرغبان في ذلك.

أفترض أن تكون قرأت "شبح الخروج"، وتعرف من ثم أنها توليفة. تحتوي هجوما لا داعي له مطلقا على اتجاهات في ما يعرف بالصحافة الثقافية، وهذا الهجوم موضوع في فم شخصية لينوف عند روث. في هذا الهجوم هناك الكثير ولا شك مما يفوتني بوصفي غير نيويوركي. لكن لينوف (وروث أيضا؟) لا يشعر بغير الاحتقار لمزيج الاختزال الأخلاقي السيري الذي يظهر وكأنه النقد في صحافتكم الثقافية (وصحافتنا أيضا). (وأعني بالاختزال السيري معاملة الأدب بوصفه شكلا من التقنع الذاتي يمارسه الكتّاب: مهمة الناقد هي تعرية القناع وكشف "الحقيقة" الكامنة وراءه). الشرير في "شبح الخروج" أحد

هؤلاء النقاد. يهدد بنشر قراءة لرواية لينوف تظهرها تاريخا مقنّعا (أو ربما تاريخا محجوبا، أنّى لي أن أعرف) لعلاقة زنا مع شقيقة كبرى.

لا يصعب عليّ أن أفهم ما يجعل روث، وهو الشخصية الغارقة في ضوء المشهد الأدبي، يشعر بمثل هذه المشاعر القوية تجاه هذه النزعة في النقد الأدبي، حتى إن عرف أنه كلما ازداد حنقا ازداد كليمانات العالم (وكليمان هو الناقد الشرير) لعقا لشفاههم (بالمناسبة، ما الذي يحاول أن يخفيه؟)[2] أنا واثق أن لديك، وأنت تسبح في نفس البحيرة التي يسبح فيها روث، وإن تكن أقل قليلا منه في تعرضك للضوء، آراءك في هذه المسألة، ويمكنني تخمينها. أما أنا، فيحلو لي الظن، بأن الحياة على أقصى أطراف الكون المعروف، تجعلني أهرب من الكيلمانتات، غير أنني قد أكون في ضلال من أمري.

أدفأ أمنياتي

جـــون

ملحوظة: لا أنوي توسيع نقاش تاريخ جنوب أفريقيا بلا داع، لكن لو لم تكن هناك حرب باردة لأمكن تسوية كل فوضى جنوب أفريقيا مبكرا جدا. فعلى مدار عقود ظل نظام جنوب أفريقيا يقدّم نفسه بوصفه حصنا يمنع الاختراق الروسي لأفريقيا ما دون الصحراء الثرية بالمعادن،

---

[2] ربما تجدون إجابة في مقالة نشرها فيليب روث بعنوان "رسالة مفتوحة إلى ويكيبديا" وتجدون ترجمتها العربية في "قراءات أحمد شافعي" هنا:
(http://readingtuesday.blogspot.com.eg/2012/09/blog-post_24.html)

ودأبت الإدارات الأمريكية المتتابعة على شراء هذه القصة. ولم يكن من العناصر المساعدة أن وقع المؤتمر الوطني الأفريقي في شبكة الحزب الشيوعي الجنوب أفريقي.

كان النظام الحاكم القديم في جنوب أفريقيا مجرد شرك جرذان للطغاة والطغمات الحاكمة التي كانت الولايات المتحدة تدعمها في شتى أرجاء العالم أثناء الحرب الباردة لأغراض استراتيجية. ولم تكن مصادفة أن حظر ف. و. دي كليرك المؤتمر الوطني الأفريقي في نفس السنة التي تفكّك فيها الاتحاد السوفييتي وسقط سور برلين.

٢٩ يوليو ٢٠١٠

عزيزي جــون

للأسف لم أقرأ "شبح الخروج"، ولا شاهدت *Letempsqui reste*. لقد استهلكت كثيرا من روايات روث بمرور السنوات (وما هي غير شذرة من نتاجه) ورأيت فيلمين أو ثلاثة من أفلام أوزن، وأحدها، "حمام السباحة"، فتركت لديَّ انطباعا قويا.

هل أسبح في بحيرة واحدة مع روث؟ لست متأكدا. لقد تقاطعت بنا السبل مرات قليلة، وتناولنا مرتين العشاء بصحبة دون ديليلو (وهو من أصدقائي المقربين منذ سنين كثيرة) وتبادلنا حفنة من الرسائل. بعبارة أخرى، هو من معارفي، لا من رفاقي. أكثر ما يهمه بشأني في ما أعتقد هو أن كلينا ولدنا في نيويورك. أما بالنسبة لنيويورك، فأنا لست "أقل قليلا منه في تعرضي للضوء"، بل أقل كثيرا، بل ربما أقل تماما. روث هو الإله الذي يثنى على أعماله في كل أرجاء الأرض منذ الكتاب الأول، أما أنا ففنان مجاهد تراكلت الأرجل أعماله لوقت أطول مما يحلو لي أن أتذكر. وفوق ذلك كله، أنا أميل إلى الابتعاد عن الزحام والحفلات والآراء العلنية، مؤثرا على ذلك الانصراف إلى حديقتي الصغيرة الخاصة

في بروكلن. أما روث - في المقابل - فله حضور أدبي هائل منذ أكثر من خمسين سنة، وهي بلا شك فترة طويلة بصورة استثنائية، بل لا شك أنها الأطول لأي كاتب أمريكي في التاريخ. وإليك دليلا واحدا على شهرته: هو الروائي الوحيد الذي صدرت أعماله عن مكتبة أمريكا (Library of America) في حياته.

ولأني لم أقرأ "شبح الخروج"، لا يمكنني أن أعلق بالتحديد على كلام لينوف ضد الصحافة الثقافية المعاصرة، ولكن من وصفك له قد أقول إنه دقيق. يبدو أن الأمريكيين فقدوا التواصل مع جوهر الأدب، بمعنى أنهم فقدوا القدرة على فهم الخيال، ومن ثم يصعب عليهم أن يصدقوا قدرة روائي على "التأليف". فتتحول بذلك كل رواية إلى سيرة ذاتية مستترة. ولا داعي إلى التوسع في قدح فقر هذه الرؤية، أو في مدى القبح الذي قد تصير إليه بين يدي صحفي قذر.

وصلني فاكسك الليلة الماضية وأنا أشاهد فريق بيسبول تعيسا (ذي نيويورك ميتس) وهو يعاني هزيمة أخرى أليمة بعد أشواط إضافية، وبما أننا كتبنا كثيرا عن الرياضة، وبما أن رسالتك الأخيرة تعرض لكتاب وفيلم، فقد ابتهجت بعثوري على المقالتين المرفقتين من نيويورك تايمز هذا الصباح.

بداية "الكتب الإلكترونية أعلى تحليقا من النص المجرد". لكلٍّ رأيه في الكتب الإلكترونية بطبيعة الحال. فهذا هو الموضوع الملتهب في عالم النشر اليوم، وما من شك في أننا نشهد ثورة، ثورة يبدو أنها تكتسب قوة

مع كل دقيقة تمر. وبرغم أنني أقع في فئة المصابين برهاب التكنولوجيا، فأنا لا أشعر بتهديد أو عداء من كيندل ونووك وآيباد. فكل ما يشجّع على القراءة ينبغي اعتباره شيئا حميدا، ولهذه الآلات فضل عظيم لا شك فيه على المسافر الأدبي. فبدلا من التنقل بحقيبة فيها ثلاثون كتابا، يمكنك أن تضع هذه الكتب الثلاثين في جهاز رقمي خفيف وتتنقل به من مكان إلى آخر بلا أعباء.

في المقابل، عندي مخاوف محددة. (مخاوف، بالمناسبة، تأكدَّت بالدمار الذي لحق بالموسيقى. كم أفتقد البحث في متاجر التسجيلات!). أمازون - الذي طوَّق السوق هنا - يبيع الكتب بأسعار منخفضة أكثر مما ينبغي، وهو في واقع الأمر يخسر بكل كتاب يبيعه لمجرد أن يغري القراء بشراء الآلات. وبوسع المرء أن يستشرف عواقب وخيمة على المدى البعيد: انهيار دور النشر، انهيار متاجر الكتب، ومستقبل يصبح فيه كل كاتب ناشر نفسه. ولكن من الضروري - كما أوضح جيسون إبستاين في مقالته في نيويورك رفيو قبل بضعة أشهر - أن نستمر في طبع الكتب الورقية التقليدية، ونحافظ على بقاء مكتباتنا، بما أنها الصخرة التي بنيت عليها الحضارة. وتخيل الأذى الذي يحتمل وقوعه لو ترقمن كل شيء. نصوص ممحوة، نصوص متلاشية، والأبشع من ذلك كله، نصوص محرَّفة.

ليكن. هذا هو رأيي. ما يشغلني الآن هو مقالة في جريدة هذا الصباح ولماذا أجدني منقسم الرأي إزاء ما قرأته. يبدو أن الانقسام يقع بالضبط بين مصطلحي "الأدب fiction" و"اللاأدب nonfiction".

شهور مضت وأنا أبحث من أجل الرواية التي بدأت أخيرا كتباتها، وسوف ينشغل قسم منها بأمريكا في مطلع الخمسينيات. وعليه فقد مضيت أقرأ الكتاب تلو الكتاب عن الحرب الكورية، والفزع الأحمر [من الشيوعية]، ووباء شلل الأطفال، والقنبلة الهيدروجينية، وما إلى ذلك، ولكنني كنت أشاهد أيضا أفلاما وثائقية وهذه قد تكون مفيدة للغاية. حينما مررت في مقالة اليوم بوصف نيكسنلاند المعززة، افتتنت. وقلت لنفسي يا لها من فكرة ممتازة، أن أجمع بين النص المكتوب والفيلم في كتاب تاريخ. فكرة ممتازة في الحقيقة لا أجد ما يعيبها.

غير أنني في الروايات وجدت نفسي أقاوم. فالكتب المذكورة ليست إلا روايات إثارة جماهيرية، ولكنها أعمال أدبية في نهاية المطاف، وفكرة إضافة قصاصات من سلسلة تليفزيونية مأخوذة عن أحد هذه الكتب تؤرقني. السؤال هو لماذا. هل له علاقة بفقدان الإيمان بالخيال الذي سبق أن ذكرته؟ وكأن الكتب بطريقة ما أصعب من أن يمكن استيعابها، أو أنه لا يمكن اختبار القصة اختبارا تاما دونما رؤية لها بالعين المجردة؟ لكن أليست القراءة هي فن رؤية الأشياء بنفسك، والتأليف بين الصور في رأسك؟ أليس جمال القراءة كله يكمن في **الصمت** الذي يحيط بك وأنت تغوص في القصة، رنين صوت الكاتب يتردد بداخلك مقصيا كل صوت سواه؟

لعلي تحوّلت إلى شيخ ثقيل. هناك طبعات نقدية من الروايات الكلاسيكية فيها فقرات محذوفة، ونهايات بديلة، بل وصور. فما الذي يمنع الأفلام؟ لا أعرف، لكن شيئا بداخلي يرفض فكرة قراءة "الخزي"

على سبيل المثال وأنا قادر على أن أنقر على المعالجة السينمائية في الجملة الواردة في الصفحة الثانية من الفصل الرابع . عندي فضول إلى أن أعرف إن كنت تشاركني رد فعلي هذا .

بخصوص "كيف تَحْزِمُ استادا؟" أشعر بالقدر نفسه من الحيرة. لا جدال في أن بوسع المرء الآن أن "يرى" مباراة في التليفزيون بصورة أفضل من رؤيتها في الاستاد حيث تجري بالفعل. ولكن مثلما يقول المشجع البالغ من العمر ثلاثة وستين عاما عن الذهاب الشخصي إلى الاستاد: "أرغب ببساطة في الجو، في مشاهدة اللاعبين والإحساس بالزحام. أفضل كثيرا أن يأتيني إحساس المباراة وأنا في البيت، وليس العكس". ويخالفه الرأي المشجع البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاما (ليس بلا مبرر) لكنني لست واثقا أن تحويل التجربة الفعلية إلى تجربة متلفزة هو الحل. لا سيما بمثل هذه التكلفة. كيف لا تصعقك تكلفة ١٠٠ مليون دولار ثمنا "لتكنولوجيا الاستاد" ناهيك عن "تصاريح المقعد الشخصي" التي تصل إلى عشرين ألف دولار، فقط من أجل حق شراء تذكرة؟ ليس الأمر أنني أشعر بحنين إلى الأيام الخوالي، ولكنني أتذكر بصفة خاصة الذهاب إلى ستاد يانكي بصحبة اثنين من أصدقائي سنة ١٩٦١ (كنا لا نزال في الرابعة عشرة) لمشاهدة جيانتس ضد براونز ودفعنا خمسين سنتا للكرسي في المقاعد المكشوفة. والرياضة كما نقول أنا وأنت طول الوقت باتت تجارة وصناعة كبيرة، لوياثانا، ويبدو أن أغلب الناس في العالم سعداء تماما بأن يبتلعهم الحوت .

أما عن جنوب أفريقيا ودورها في الحرب الباردة، فأنت على حق ١٠٠٪. ولست بحاجة إلى أن تسمع هذا مني.

نيويورك لا تزال تغلي، أكثر يوليو حرارة في التاريخ المسجّل. حينما كتبت إليك الأسبوع الماضي وقلت إن الرطوبة ٩٦ كنت مخطئا، فقد كانت ١٠٦.

مع أقوى الأفكار الجيدة

بـــول

١٨ أغسطس ٢٠١٠

عزيزي بــول

تلقيت مؤخرا رسالة من مجلة تصدرها جامعة في جنوب أفريقيا، وفيها مقالة تحتفي بافتتاح مكتبة جامعية جديدة فيها قاعات للكمبيوتر، وحجيرات للدراسة، وقاعات للندوات، وأماكن لأعمال لا تحصى من الأنشطة. أعدت قراءة المقالة، أعدت قراءتها لأتأكد. وكنت محقا. كلمة **كتاب** لم تذكر ولو مرة.

لا شك أن المعماريين وهم يصمِّمون المكتبة استمعوا إلى نصائح أمناء المكتبة، أمناء المكتبة من الجيل الجديد الذين يتعالون على الكتب ويعتبرونها صرعة قديمة، ويحلمون بمكتبة غير ورقية.

ما الذي يأخذه هؤلاء الناس على الكتب؟ لماذا لا يرون المكتبات كما أراها: أراضي جنب أراضي سيئة الإضاءة فيها صفوف تلو صفوف من الكتب محكمة الانتظام ممتدة في كل اتجاه إلا ما لا نهاية؟

توشك الحجة على المكتبة البورخيسية أن تبلغ من الإملال حدًّا أنه لا داعي لتكرارها، مملة ومسيطرة، في عصر أصبح الاقتصاد فيه هو الملك

المتوج بين العلوم. الحجة القائلة بأن الكتب تستهلك مساحة كبيرة. فلا مبرر للاحتفاظ بشيء مادي يشغل مساحة ٢٠ سم في ١٥ سم في ٣ سم، وقد يبقى قابعا لعقود أو قرون على الرف دون أن يمسَّه أحد أو يقرأه. ولو أننا نرمي بأحبائنا الموتى في حفر في الأرض، أو نحرقهم، فلماذا نستكثر التخلص من الكتب الميتة؟

التخلص من الكتب، واستبدال صور الكتب، صورها الإلكترونية، بالكتب. التخلص من الموتى، واستبدال صورهم بهم.

كم تحزنني الصورة المتوقعة للمكتبة في المستقبل. أنا واثق أن كثيرين يشتركون معي في هذا الشعور. ولكن، بعيدا عن المشاعر، ما الذي يبرر هذا الحزن؟ جوع إلى الحقيقي في عالم الظلال؟ الكتب ليست حقيقية، ليس كذلك بأي معنى ذي شأن. الحروف نفسها على الصفحة محض علامات، وصور لأصوات هي بدورها صور لأفكار. وحقيقة أن ما نسميه الكتاب قابل للإمساك، وأن له رائحة وإحساسا يخصه، هي عارض من عوارض إنتاجه لا صلة لها بما ينقله الكتاب.

حينما كنت في السادسة عشرة، وتوافر لي شيء من المال، مضيت لأشتري عشرة كتب ستشكل أساسا لمكتبتي الشخصية. كان من بينها "الحرب والسلام" بترجمة آيلمر ماود الصادرة عن مطبعة جامعة أوكسفورد، ذلك الكتاب الضخم الضئيل بسبب طباعته على ورق هندي رقيق. (وقد اشتريت الحرب والسلام لأن مجلة تايم قالت إنها أعظم الروايات على الإطلاق). ظلت ترجمة آيلمر ماود للحرب والسلام بلونها

البنيّ الأصلي ترافقني على مدار نصف قرن من قارة إلى قارة. بيني وبينها علاقة عاطفية، لا مع "الحرب والسلام" لتولستوي، لا مع بنائه الشاسع من الكلمات والأفكار، بل مع الشيء الذي خرج من مطبعة ريتشارد كلاي وأبنائه سنة ١٩٥٢ وشحن إلى مخزن في مطبعة جامعة أوكسفورد في موضع ما من لندن ثم إلى وكيل التوزيع في كيب تاون ومن هناك إلى متجر جوتا، ثم إليَّ.

مثل هذه العلاقة مع كاتب ـ على رقتها البالغة وبعدها الشديد عن المباشرة وتكوِّنها ربما من خلال عشرات الوسطاء ـ ستكون في المستقبل أقلَّ احتمالا. وأما قيمة هذه العلاقات فتبقى بالنسبة لي سؤالا مفتوحا، شأن السؤال عما لو كان خيرا للمرء أن يمتلك كتابا ملموسا أم أن يحصل على صورة لنصه عبر الإنترنت.

الشك والحذر اللذان أعبر عنهما في هذه الرسالة لا يختلفان عن الشك والحزن اللذين تعبر أنت عنهما في آخر رسائلك بشأن صياغة الرياضة الجديدة (أو إعادة تغليفها) بما يناسب التليفزيون. لا يزال ثمة التقاء مصالح بين ما يريده الإعلام من لعبة وما يريده منها الجمهور الذي يحضر المباريات بالفعل، فالجمهور يريد ما يطلق عليه من فرط السذاجة "الشيء الحقيقي"، وليس صورة متحركة له، بينما الإعلام يمقت الملاعب الخاوية، لأن الملاعب الخاوية تقتل المنظر، ولكن هذا لا يعني أن رجال الأعمال المتملكين للرياضة يبالون بالجماهير إلا بوصفهم

مستهلكين. ولو أنهم عثروا على طريقة يملؤون بها المقاعد بصور هولوغرافية، لفعلوها في ما أظن.

حزنك وحزني: حزن الشيخين على ما يؤول إليه العالم. كيف يهرب الواحد من مصيره المضحك فلا يتحول إلى جدٍّ، إلى مخرِّف، يشرع في واحدة من حكاياته التي تبدأ بـ "على أيامي"، فيقلب الشباب أعينهم في يأس صامت؟ إن العالم ذاهب إلى الجحيم في سلة بأذنين، كذلك كان يقول أبي، وأبوه من قبله، والآباء حتى عهد آدم. ولو أن العالم فعلا ذاهب إلى جحيم على مدار كل تلك السنوات، أما كان ينبغي أن يكون وصل الآن؟ ولكني أتلفت حولي فلا أرى أنه يشبه الجحيم.

ولكن ما بديل التذمّر؟ أن يغلق الواحد منا فمه ويحتمل القرف؟

المخلص دائما

جـــون

نانتكت

٢١ أغسطس ٢٠١٠

عزيزي الجد

أتساءل دائما كيف للعالم، وهو بهذه الضخامة، أن يوضع في شيء صغير كسلة بأذنين. ومما يزيدني حيرة أنني لست واثقا من ماهية السلة ذات الأذنين. أليست السلال جميعا ذوات أذنين في حقيقة الأمر، ولو كانت كذلك، ألا تكون إضافة الأذنين هذه زائدة عن اللزوم تماما؟ ربما يجدر بنا أن نقول إن "العالم ذاهب إلى الجحيم في سلة" برغم أن ذلك سيبدو أسوأ وقعا، أم ماذا؟ ما الذي ينبغي أن يحتوي العالمَ ونحن بداخله نشاهده في ذهابه إلى الجحيم؟ عربة قطار؟ سيارة؟ مظروف من الورق المقوى؟ أم ربما شيء شديد الصغر فلا يكاد يرى؟ ذرة واحدة؟

الحقيقة أن التذمّر قد يكون ظريفا، وبوصفنا رجلين محترمين يشيخان بسرعة، ومراقبين معتَّقين للكوميديا الإنسانية، وبرأسين شائبين رأيا كل شيء ولا يندهشان من شيء، أعتقد أن من واجبنا أن نتذمَّر ونقرِّع، ونهاجم النفاق والظلم والغباء في العالم الذي نعيش فيه.

وليقلب الشباب أعينهم كيف يشاؤون ونحن نتكلم. وليتجاهل غير الشباب تماما ما نقول. علينا أن نستمر ونحن نتحرى أقصى درجات الحذر، نَبِيَّيْن متذمِّرين يصيحان في البرية، لأننا نعلم علم اليقين أننا نخوض معركة خاسرة، لكن ذلك لا يعني أن نتخلى عن القتال.

صديقك

بــول

٤ سبتمبر ٢٠١٠

عزيزي بـــول

أسافر أنا ودوروثي هذا الأسبوع إلى فرنسا. سنقابل أصدقاء لنا مهتمين بركوب الدرجات في مونبلييه لنخرج في جولة بالدراجات، آملين أن لا يكون الوقت تأخر والطقس لم يعد مناسبا في هذه الفترة من العام. سيتاح لي التواصل بصورة متقطعة عبر البريد الإلكتروني وليس الفاكس.

رجعت إلى معجم للعبارات الاصطلاحية بحثا عن "الذهاب إلى الجحيم في سلة". فوجدت فيه "الذهاب إلى الجحيم في عربة يد" كتنويعة ولكنه لم يوضح ماذا تكون السلة ذات اليدين. كل السلال لها يدان. هناك شيء اسمه سلة بوشل [bushel basket سلة خشبية تستخدم كمكيال]. والآن تعال إلى الجزء المثير. كانت لكل سوق بلدة في فرنسا القرون الوسطى سلته الميكالية، ومن ثم رأيه في ما يشكّل مكيالا من القمح. فيمكنك أن تتكلم عن المكيال الأورلياني والمكيال الليونزي. وكان ذلك يثير الجنون لدى تجار الحبوب. فكان توحيد معايير الموازين والقياسات من بين حجج تفعيل سلطة واحدة على البلد كله. ويفترض أن ينطبق مثل ذلك ـ مع مراعاة الاختلافات ـ على الدول الأخرى. ولا عون هنا إلا للذاكرة. فلا فكرة هناك عن أي تواريخ.

مع أدفأ الأمنيات

جـــون

٦ سبتمبر ٢٠١٠

عزيزي جـــون

أحسدك على رحلة مونبلييه، وتعجبني شجاعتك إذ تركب مرة أخرى طائرة لتسافر إلى الخارج في رحلة أخرى طويلة للغاية. ينبغي أن يكون الطقس مثاليًّا في هذا الوقت من العام. حيث ذهبت حرارة الصيف الجافة القوية، ولا يزال الوقت مبكرا للغاية على برودة الشتاء.

لم لا تكتب لي رسالة عن ذلك حينما ترجع؟ عن مسرَّات ركوب الدراجات ومصاعبه. لقد كتبنا الكثير عن مشاهدة الرياضة، فقد يكون مفيدا أن يسرد واحد منا عن ممارسة فعلية لشيء ما.

وفي هذا الخصوص: بعث لي صديق الأسبوع الماضي كتابا قصيرا نشره أمريكي يكتب في الرياضة في سنة ١٩٥٥، عنوانه "يوم في المدرجات" ويصف فيه بالتفاصيل الدقيقة مباراة بيسبول، هي الأولى في سلسلة ١٩٥٤ العالمية بين نيويورك جيانتس وكليفلاند إنديانز في ملعب بولو جراوندس الذي اختفى الآن، والتي تصادف أنها المباراة التي حقَّق فيها ويلي مايز التقاطته التاريخية. كتاب مسلٍّ وساحر، استمتعت به

بعمق. ومن شكاوى الكاتب أن كثيرا جدا من الناس جاؤوا إلى الاستاد ومعهم أجهزة الراديو الترانزستور فظلوا يستمعون إلى الوصف التفصيلي بينما المباراة الفعلية تجري أمام أعينهم. فشعر بالتقزز من دخول التكنولوجيا إلى ما رآه تجربة بشرية محضة ينبقي أن تبقى بلا وسيط فيها. ستة وخمسون عاما وهي هي نفس الاعتراضات على الشاشات الضخمة في ملاعبنا اليوم.

شكرا جزيلا لك على كلامك بخصوص السلال المكيالية. لدينا مثل هذا في أمريكا بالطبع، وهي في العادة صغيرة بحيث يمكن لشخص واحد أن يحملها، أما السلال التي كانت تستعمل في تخزين الحبوب في الزمان العتيق فصحيح أنها كانت بالتأكيد هائلة الأحجام. وفي قاموس العامية الوحيد الذي أمتلكه (وهو بريطاني وضعه إريك باتردج) يقول الكثير عن كلمة السلة.

١ ـ في القرن الثامن عشر كانت "سلة!" صيحة تقال في ميادين صراع الديكة لمن يعجزون أو يمتنعون عن دفع ديونهم. (وبالبحث عن "ميادين صراع الديكة" يقول القاموس إنها منزل يلتقي فيه الخارجون على الدولة).

٢ ـ الخزانة، أمانة السر.

٣ ـ المسلَّل: المتروك في البرد، المفهوم خطأ، الحائر.

٤ ـ تعبير مهذب لـ "ابن القحبة"، فلان الفلاني ابن القحبة

٥ ـ اصطلاح مهين للمرأة العجوز. "سلة عجوز سخيفة..."

٦ ـ يذهب إلى السلة : يدخل السجن .

٧ ـ صنع السلة : ممارسة الجنس .

٨ ـ "ابتسامة كسلة البطاطس" : ابتسامة عريضة .

٩ ـ سلة برتقال : امرأة جميلة ـ مأخوذ من عامية عمال المناجم في أستراليا عند اكتشافهم كتل الذهب في مناجم الذهب .

١٠ ـ حامل السلة : من يعيش على المعونة .

وطبعا هناك اصطلاح "حالة السلة" الأمريكي الذي يعرف كلانا معناه تمام المعرفة[3] .

أتمنى لك رحلة رائعة ـ واكتب لي حينما ترجع .

مع حبي لك أنت ودوروثي

بــول

---

[3] بلد أو منظمة في أزمة مالية طاحنة أو ظروف اقتصادية عصيبة، وعاجزة بصفة خاصة عن سداد ديونها.

٢١ أكتوبر ٢٠١٠

عزيزي بـــول

رجعت أنا ودوروثي من فرنسا، وأنا الآن في منتصف مَطْهَر التكيّف مرة أخرى مع التوقيت الأسترالي. أنتزع النوم كلما أتاح لي نفسه، بالنهار أم بالليل، ولكنني في الغالب أهيم في البيت كالموتى.

حقَّقت جولة ركوب الدراجات نجاحا عظيما. كان الطقس مثاليا، ومجموعة الأفراد الخمسة متناغمة بامتياز، والمناظر مثيرة طول الوقت. وأنا هنا أتكلم عن سلسلة جبال السيفين، ولست متأكدا إن كنت تعرف المنطقة.

أتصوّر أن بوسعي القول إنني لن أمانع الرجوع وإعادة الكرَّة مرة أخرى، ولكن الرجوع في سني إلى أي مكان لمعاودة عمل أي شيء بدأ يبدو افتراضا محضا بعض الشيء.

كان ينبغي أن أحتفظ بدفتر يوميات لكنني لم أفعل. كان هناك قدْر جحيمي من التسلق، ومنه ما اختبر حدودي القصوى. تسلق الجبال على دراجة يصلح تماما أن يكون مدرسة للفلسفة الرواقية لو أن الفلسفة

الرواقية هدفك الذي تسعى إليه. ولكنني لست مهيّأ للإيمان بأن كل هذا الجهد، وكل تلك المعاناة، لا تعلِّم المرء شيئا.

في كومة البريد التي تنتظر أن أكتب ردودي عليها رسالة طويلة من امرأة في فرنسا. هي الرسالة الثالثة التي أتلقاها منها على مدار خمسة عشر عاما. لم أقابلها قط. الرسالة الواحدة منها تتراوح بين عشرين صفحة وثلاثين، بخط يد متدفق وجذاب. وهي في الغالب عن نفسها، ووحدتها، وعلاقاتها المتوترة مع ابنها الراشد، وعلاقاتها المضطربة مع الرجال، وعني، أعني عن صورتي كما كوَّنتها عبر كتبي.

هي على دراية بأن الـ *vous* [الأنت] الذي تكتب إليه مجرد تصور قد لا تكون له علاقة كبيرة بتصوري أنا عن نفسي. وهي بين الحين والآخر تشير إلى احتمال أنني سوف أستجيب وأتواصل معها. ويروق لها الظن بأنني توأم روحها بمعنى ما. ولكنها لا تستغرق كثيرا في تخيلاتها للقائنا، أو هي على الأقل لا تكتب عن ذلك.

ويبدو أحيانا أنها تقول إن ما تفعله يوفر لي شخصية (شخصيتها هي) للاستعمال في كتاب قادم. بعبارة أخرى، يبدو أنها تطلب مني أن أمنحها حياة جديدة بجعلها بطلة رواية.

ليست حمقاء على الإطلاق. فهي قادرة أن تحافظ على مسافة لطيفة بين احتياجها إلى حياة أخرى دونما إنكار لمشروعية هذا الاحتياج. ولكن هناك شيئا لا تراه، ولن تراه، في ما أتصور، ما لم أخبرها به، وهذا ما لن أفعله (أ) لأنني لا أريد أن أفتح بوابات أمام فيضان من المراسلات الملائمة

و(ب) لأنه سيكون من القسوة المفرطة ـ خاصة وأنني لست مهتما كثيرا بأفكارها عن نفسها وعني وعن الحياة ـ أن أقول لها إن فرصتها ستكون أكبر في التحول إلى بطلة لكتاب إن هي بعثت لي وصفا طويلا ودقيقا وتفصيليا ليوم نمطي في حياتها.

هناك نقطة لا بد من توضيحها هنا عن الروائيين والمصادر التي يستلهمونها، وهي تحديدا أنهم في نصف الوقت (أم أغلب الوقت؟) لا يهتمون بالتنقيب في الجوهر الفريد الفردي للنموذج الذي يستلهمونه، ويكتفون ببعض الملامح المثيرة للاهتمام أو الغريبة القابلة للاستعمال: التفاف الشعر حول أذنها، نطقها لكلمة "إلهي!"، انحناءة أصابع قدميها وهي تمشي.

أما أنا فلا بد أن أقول إنني أفضل تأليف الشخصيات من الصفر. فهكذا تبدو أقرب إلى الحقيقة.

مع أفضل أمنياتي

جـــون

٢٢ أكتوبر ٢٠١٠

عزيزي جـــون

سعيد برجوعك قطعة واحدة، ولو بشق الأنفس. وليس نضال صعود جبل على دراجة بالنشاط الذي قد أستطيبه، وحينما أفكر في مدى معاناتك، يجيش قلبي شفقة بك. أشك أن يعلمني مثل هذا الألم أي شيء، وتعجبني عزيمتك على دفع نفسك إلى أقصى الحدود وشعورك أن لكل هذا الجهد غرضا ما. الرواقية الذهنية، نعم. الرواقية العاطفية، نعم. ولكنني لا أفهم مطلقا كل ذلك التعذيب البدني المفروض ذاتيا. فكرتي أنا عن ركوبة ممتعة للدراجة هي أن تكون في سهول هولندا أو سهوب الغرب الأمريكي الأوسط، والريح في ظهري.

أنا لم أذهب قط إلى السيفين، ولكني ذهبت إلى مناطق شديدة القرب، وعرفت الجمال الرهيب في تلك المناظر. قليلة أماكن العالم التي تفوقها جمالا. شيء إذن من التسلُّق المؤلم للتلال الصعبة، ولكن هناك أيضا لذة تنفس هواء الطقس الجميل في ما بعد الصيف، وإذا المغامرة كلها بغتة تصبح جديرة بالتعب . . .

تلقيت رسائل طويلة من قراء، لكنها لم تصل إلى عشرين صفحة أو ثلاثين، ولا تلقيت بالقطع ثلاث رسائل طويلة من الشخص نفسه. غير أن الناس مرارا وتكرارا يقولون لي أو يكتبون: عليك أن تكتب قصتي، أو قصة أمي، أو قصة جدي. ولم أعرف قط بأي شيء أجيب. كتابة الرواية مسألة تنبع كلها داخليا، ولا يمكنني أن أتخيل كيف لروائي أن يستولي في كتابه على حياة شخص غريب. وأنا معك: تأليف شخصيات الناس من الصفر أقرب إلى الحقيقي.

ولكننا طبعا نقترض من الحياة، ما من شك في هذا. التجارب الشخصية (وغالبا المكرسكوبي منها) أو تجارب الناس القريبين منا. في أحد كتبي المبكرة (الغرفة الموصدة) شطحت إلى حد استعمل شخص حقيقي وباسمه الحقيقي، وهو صديق لي من أيام باريس يدعى إيفان فيشنجرادسكي، وهو مؤلف موسيقي روسي ثمانيني متخصص في موسيقى ربع التون. كان ميتا في الوقت الذي أَلَّفت فيه الكتاب، وكنت أريد أن أكرِّم ذكراه بإعادته إلى الحياة في عمل روائي، حتى لو كانت الأحداث التي حكيتها عنه قائمة على حقيقة. المشهد الافتتاحي في القسم الثاني من روايتي الوشيكة "حديقة الغروب" مأخوذ مباشرة من الحياة: ٣١ ديسمبر ٢٠٠٨، حينما حضرت أنا وسيري جنازة ابنة أصدقاء لنا انتحرت في فينسيا في وقت سابق من ذلك الشهر. ويمكن أن أضرب لك أمثلة أخرى، ولكن الأكثر إثارة هو استعمال الشخصيات التاريخية في الروايات. ولقد فعلتها أنت مع دوستويفسكي في رواية "سيد بطرسبرج"، وأنا فعلتها على نطاق أصغر مع تيسلا في "قصر القمر"

وديزي دين في "مستر فرتيجو"، وفعلناها مع نفسينا كشخصيتين في رواياتي (**الصيف ومدينة الزجاج**)، حتى لو أن هاتين الشخصيتين ليستا التمثيل الدقيق لما نحن عليه خارج صفحات الكتابين.

في الناحية المقابلة، ويمكنني هنا أن أتكلم عن نفسي، لم يحدث أن أخذت شخصا حقيقيا وغيّرت اسمه ووضعت إياه أو إياها في رواية. أعني الشخص بالكامل، إلى شخصية تتطابق في السمات الجسدية، والتاريخ، والروح. وهذا ما فعله كثير من الروائيين (وما أشهر روايات الأسماء المستعارة) ولكنني لست منهم.

ومع ذلك، وعلى رأيك، نحن دائمو سرقة الملامح المثيرة للاهتمام أو الغريبة القابلة للاستعمال. شكل حاجبي رجل، إيقاع ضحكة شخص، وحمة على عنق امرأة. وما عدا ذلك يبدو أنه ينبع دونما دعوة من أعمق حجرات الخيال.

وثمة جانب آخر في كتابة الرواية (وقراءتها) غالبا ما أفكر فيه وهو مسألة الفراغ. أحيانا أجد أنني كقارئ أناضل لتحديد الموقع، وفهم الجغرافيا في قصة ما. قد تكون لهذا علاقة بفقر خيالي البصري. فبدلا من أن أتصوّر نفسي في المكان الخيالي الذي يصفه الكاتب (بلدة صغيرة في الميسيسيبي، شارع في طوكيو، غرفة نوم في منزل إنجليزي في القرن الثامن عشر) أميل إلى وضع الشخصيات في أماكن مألوفة لي على المستوى الشخصي، ولم أدرك أنني مذنب بهذه العادة إلا حينما قرأت "الكبرياء والهوى" في مطلع عشرينياتي (وهو كتاب يكاد يخلو من أي وصف

مادي) ووجدت نفسي "أرى" الشخصيات في المنزل الذي عشت فيه صباي. وهو اكتشاف مدهش. لكن كيف لي أن أرى غرفة في كتاب إذا لم يصف الكاتب ما فيها؟ أنت إذن تؤلف غرفتك الخاصة، أو تطعِّم المشهد بغرفة تتذكرها. وهذا يفسر لماذا يقرأ كل قارئ رواية شيئًا مختلفا عما يقرؤه كل قارئ آخر للرواية نفسها. هي مسألة اشَتباكٍ فعَّال، وكل عقل لا يكفّ عن إنتاج الصور.

غير أنني حينما أكتب، يبدو أن العملية معكوسة. فالمكان في رواياتي ملموس تماما بالنسبة لي. كل شارع، كل بيت، كل غرفة، كل ذلك يكون حيا تماما في ذهني، حتى لو لم أقل عنه إلا القليل أو لم أقل أي شيء. قد لا أذكر أين توجد الأريكة، لكنني أعرف تماما أين موضعها بالنسبة لبقية قطع الأثاث. الأمر كله يتعلق بإقامة ما هو خيالي على ما هو محدّد، وذلك في تصوري ما يعين المرء على تصديق أن ما يكتب عنه يحدث حقا، أو يعينه على إيهامه نفسه بتصديق ذلك.

مع أطيب الأفكار وأرقها

بـــول

ملحوظة: هناك فيلم أمريكي مسلٍّ جدا عن ركوب الدراجات، من إنتاج أواخر السبعينات، وعنوانه *Breaking Away* ـ قد ترغب في إلقاء نظرة عليه. إحساس رائع بالمكان (بلومنتن ـ إنديانا)، وهذا نادر في السينما الأمريكية.

ملحوظة: باولو برانكو كان في البلدة الأسبوع الماضي وقال إنه يريدنا في لجنة تحكيم السنة التالية، وستكون لجنة مؤلفة من الكتّاب فقط. أنا في غاية الحماس.

١١ نوفمبر ٢٠١٠

عزيزي بـــول

تقول إن باولو برانكو قد يطلبنا مرة أخرى للمشاركة في التحكيم في إستوريل. سيكون هذا لطيفا. يجري هذا في نوفمبر في ما أتذكر.

أعرف فيلم *Breaking Away* في الحقيقة، وأعتقد أن لديّ نسخة منه. يميل إلى النمطية بضع الشيء قرب نهايته ـ حيث يتسابق البطل المنتمي إلى الطبقة العاملة مع الطلبة المرموقين ـ لكنني أوافق على أن البيئة المكانية والاجتماعية مثيرتان أشد ما تكون الإثارة.

أما في ما يتعلق بصعود التلال بالدراجة، فاطمئن، أنا لا أجد فيها من المتعة أكثر مما تجده. وبالنسبة لإحساس الإنجاز الذي يفترض أن يصاحب الوصول إلى القمة، فمن واقع تجربتي أقول لك إنه مبالغ فيه. ويبقى لغزا بالنسبة لي ما يدفع الناس إلى الجري أو ركوب الدراجات لمسافات طويلة، ولكن آلاف الناس يفعلون ذلك كل يوم، في شتى أرجاء العالم.

وبرغم مخاطرة الظهور بمظهر المدعي، سأربط بين هذا وسؤال: لماذا تكتب؟ صمويل جونسن قال إن المرء يكون أحمق إذا لم يتوقع أجرا عن

عمله. ولكنني أجد أنني أنفق الساعات في صقل فقرات من النثر حتى تصير أكثر لمعانا مما يستوجبه معيار النشر ومن ثم الدفع.

أفترض أنني قد أبرّر هذا لنفسي بقولي "إنني لست ممن يضعون في العالم نثرا معيبا" كما قد أقول "إنني لست ممن يترجلون عن دراجاتهم ليسيروا على قدمين" (من يترجلون عن دراجاتهم ويسيرون على قدمين **وإن لم يرهم أحد**). هذا في تصوري هو الجزء المثير. فلن يقدّر إلا قليل من القراء ما يقتضيه الحصول على فقرة كيفما ينبغي لفقرة أن تكون. لن يرى أحد إن نزلت عن دراجتك وسرت على قدميك، أو حتى إن بقيت على الدراجة ونزلت التل دون أن تحرك قدميك. **لكن هذا ليس أنا، وليس هذا تصوري عن نفسي.**

تكتب عن معرفتك بدقة أين توجد أريكة خيالية في غرفتك الخيالية وإن لم يكن في كتابك من سيجلس عليها أو يلقي مجرد نظرة. أعتقد أنني قد أكون أقل منك تعمقا. فالغرفة التي يجري فيها حدثي الخيالي هي أقرب ما تكون إلى مكان خاو، مكعب فارغ في واقع الأمر، أستورد له أريكة إذا تبين أن هناك احتياجا إليها (أي لو أن شخصا يوشك أن يجلس عليها أو ينظر إليها)، ومن بعد خزانة الأدراج، وفي درجها العلوي الأيسر أدوات المائدة التي من غيرها لن نجد للبطلة سكينة الزبد لتفرد الزبد على الخبز.

أفهم أن فلاديمير نابوكوف كان يطلب من تلاميذه ـ في الوقت الذي كان يدرِّس فيه في كورنيل ـ أن يرسموا مخططات بناءً على المعلومات التي

يستقونها من الرواية التي يدرسونها معه. نظرية نابوكوف الضعيفة هي أن الروائي لا ينبغي أن يقدِّم بيانات متناقضة داخليا (سجادة حمراء في صفحة وزرقاء في الأخرى). النظرية القوية هي أنه ينبغي أن يكون هناك ما يكفي من البيانات في النص فيرسم الطالب المسارات ويتخيل حركة الشخصيات في المشهد تلو المشهد.

وإنني أرى بعض التماثل بين النظرية القوية والرأي الشائع في دروس كتابة المسرح أو كتابة السيناريو وهو أن الكاتب ينبغي أن يوجز القصة الخلفية كلها لكل شخصية من شخصياته، ولو لتكون عونا للممثلين، وإن لم تكن تلك القصص الخلفية ستظهر على أي نحو في الفيلم نفسه أو المسرحية.

لو أن هذا معيار الحرفة، فأنا فاشل. ففي حالة جميع شخصيات الكبار في كتبي، لا أعرف على سبيل المثال الكثير عن الطفولة التي عاشوها، مثلما لا أعرف مطلقا ما الذي سوف يجري لهم بعد الصفحة الأخيرة.

منذ كتبت إليك رسالتي السابقة، أجريت لديكم انتخابات برلمانية وعاد الجمهوريون من جديد إلى السلطة. لن أطلب منك تفسيرا. ولكن هذه اللحظة بدأت تصبح لحظة تاريخية مثيرة (ولا أعني تاريخ الولايات المتحدة فقط). فمنذ ١٩٧٠ تقريبا، هناك رؤية شديدة الوضاعة تنتشر وتحظى بالتشجيع وتتاح لها السيطرة على اتجاه الكوكب، رؤية للبشر بوصفهم آلات لا تعنيها غير مصالحها الخاصة وللنشاط الاقتصادي

بوصفه سباقا من الجميع ضد الجميع وصولا إلى المنافع المادية (والاقتصاد economy مشتق من كلمتي oikos و nomos ، أي تنظيم البيت).

ونتيجةً لذلك سادت فكرة وضيعة عما تتكوّن منه الحياة السياسية، فأتاحت بدورها صعود فكرة جديرة بالاحتقار عما تتكون منه ممارسة السياسة. وهكذا فإن نفس الساسة الذين لم يفعلوا شيئا لمواجهة الرؤية الوضيعة للحياة الاجتماعية صاروا يشعرون بالغضب والاحتقار، والاحتقار الغاضب، من الناخبين الذين لا يرونهم أنفسهم إلا آلات لا تعنيها غير مصالحها الشخصية. كلمة "الثقة" لم تعد ذات قدرة على الرواج. فلو أن سياسيا اليوم نطق من على منصة علنية قوله "إنني أريد منكم الثقة" لما أثار لدى الناس إلا الضحك، مهما يكن صدقه وإخلاصه في ما قال.

صديقك في أحلك الأوقات

جـــون

١٢ نوفمبر ٢٠١٠

عزيزي جــون

نعم، نتائج انتخابات التجديد النصفي كانت مؤسفة، ولكنها غير مستبعدة، بعد هجمة البروباجندا الشاملة التي شنَّها اليمين واليمين المتطرف على أوباما طوال السنتين الماضيتين. من المؤكد أن هذا الوقت حالك، والأخبار لا شك مقبضة، لكنني أحاول أن أتقي الاكتئاب النهائي بالنظرة بعيدة المدى، النظرة التاريخية، لأعزي نفسي بحقيقة أننا كنا هنا من قبل. لا في الماضي القريب وحده ـ غارات اليمين الانتخابية في ١٩٩٤ و١٩٨٠ على سبيل المثال ـ بل أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات أيضا حينما ازداد جنون الجمهوريين ـ الذين كانوا خارج البيت الأبيض منذ عام ١٩٣٢ ـ في الهجوم على روزفلت، و[حزمة الإجراءات الاقتصادية التي عرفت بالـ New Deal أو] "الصفقة الجديدة"، والفكر اليساري "غير الأمريكي" الذي جلب لنا الحرب الكورية، ومكارثي، وهستريا الحرب الباردة الأيديولوجية. قبل ذلك: أهوال الحرب العالمية الثانية وشقاوات الكساد الكبير. وقبل ذلك: المعارك العنيفة الضارية المتواترة بين رأس المال والعمال. ويمكنني أن

أواصل الرجوع إلى الوراء، وصولا إلى تأسيس الجمهورية. حركة نهائية غريبة، تتراوح بين من يؤمنون بالاستثنائية الأمريكية (نحن، لا اليهود، الشعب المختار، أليس كذلك؟)، الرأسمالية المقيَّدة، ذهنية المنافسة الشرسة بين الجميع على المصلحة الشخصية، والآخرون المؤمنون بما نسمِّيه أنا وأنت المجتمع العادل، المؤمنون بصدق أن البشر مسؤولون عن بعضهم البعض. اليوم، جماعة واحدة هي التي لديها الإجابات، والجماعة الأخرى تنبذها. في الخطة الكبرى، كان هناك مقياس أكيد للتقدم (القضاء على العبودية، وفوائد الأمن الاجتماعي، وتشريع حقوق الإنسان، وتشريع الإجهاض) ولكن التقدم دائما ما يأتي بطيئا في هذا البلد شديد الاتساع شديد العناد. ثلاث بوصات إلى الأمام، بوصتان إلى الوراء، ثلاث إلى الأمام، خمس إلى الوراء، اثنتان إلى الأمام، واحدة إلى الوراء.

بقدر ما أكره الاعتراف بذلك، لكن هذا الوقت ليس بالوقت الرهيب بصفة استثنائية على العالم الغربي. لعله وقت حماقة، أو وقت إحباط، لكن المؤكد أنه من أسوأ الأوقات. الساحرات لا يحرقن على المقاصل، والكاثوليك والبروتستنت الفرنسيون لا يمزقون بعضهم البعض، وأمريكا لا تخوض حربا أهلية، وملايين الأوربيين لا يموتون وهم يخوضون في وحل الخنادق أو معسكرات الاعتقال. هتلر ميت، وستالين ميت، وفرانكو ميت. وحوش القرن العشرين كلهم مضوا، ولو أن الأقزام في طريقهم إلى السلطة الآن في شتى أرجاء الغرب، فخير لنا أن نهزأ بالأقزام من أن نرتعد أمام الطغاة القتلة.

لكن نعم، أمريكا مكان تصيبك الإقامة فيه الآن بالحزن. كثير جدا من المشاكل ينبغي التعامل معها، وعلى مدار العامين القادمين لن يحدث في كل هذه المشاكل أي شيء، وهو ما يزيدها سوءا. ثم ستبدأ المعركة مرة أخرى من الصفر. في هذه الأثناء، أجلس هنا في بروكلن مشاهدا كرنفال الغباء العظيمَ الذي تحوَّلت إليه حياتنا العامة وأنا أهز رأسي راجيا أن يتأرجح البندول في نهاية المطاف موليا شطر الوجهة الأخرى.

أخشى أن "الرؤية الوضيعة" التي تتكلم عنها قائمة معنا منذ وقت أسبق من عام ١٩٧٠. وخلافا للرؤية التي كنت أتبناها في شبابي ـ وهي أن الناس يصوِّتون بدافع من مصالحهم الاقتصادية ـ بت أشعر الآن أن اختيارات الناخبين غير عقلانية نهائيا أو هي أيديولوجية، حتى لو أن هذه الأيديولوجية تعارض مصالحهم الاقتصادية. في عام ١٩٨٤، أثناء حملة إعادة انتخاب ريجان، كنت ذاهبا إلى مكان في سيارة عامة في بروكلن. السائق، الذي كان من قبل عامل لحام في مصنع بروكلن البحري ثم فقد وظيفته حينما تحطّم الاتحاد العمالي الذي كان عضوا فيه بسبب الإدارة. قلت له "عليك أن تشكر ريجان على ذلك فهو أعظم الرؤساء تحطيما للاتحادات العمالية في التاريخ". قال "ربما هو كذلك، ولكنني سوف أصوّت له على أية حال". سألته "ولأي سبب في الدنيا تفعل ذلك؟" إجابته: "لأنني لا أريد أن أرى الشيوعيين الملاعين يستولون على أمريكا الجنوبية".

لحظة لا تمحى من تعليمي السياسي. رجال مثل ذلك الرجل، في ما أتخيل، هم الذين انتخبوا هتلر فوصل إلى السلطة سنة ١٩٣٣.

رجوعا إلى القراءة والكتابة للحظة، وفي ضوء كلامك الشائق للغاية عن المكعبات الخاوية، مخططات نابوكوف وقصص خلفيات الشخصيات في المسرحيات والأفلام. أنت تتكلم عن إحساسك ككاتب بالمكان، لكن بي فضولا كذلك إلى أن أعرف ما "تراه" في رأسك وأنت تقرأ رواية أو قصة قصيرة، أو حتى حدوتة وذلك أفضل طبعا. لو أنك تقرأ ما يلي "كان يا ما كان، عجوز تعيش مع ابنتها عند حافة غابة مظلمة"، فما الصور التي تؤلفها في نفسك، إن كنت تؤلف صورا؟ وليس لديك الكثير هنا. فما من أسماء، أو أعمال، أو مكان محدد، أو وصف مادي، ومع ذلك بطريقة ما، ولأسباب غامضة عليّ تمام الغموض، أميل عن نفسي إلى ملء الفراغات. ربما لا يكون ذلك بأي طريقة مفصلة، لكنه كاف لتخيل امرأة قصيرة ممتلئة حول خصرها مريلة، وفتاة مراهقة نحيلة ذات شعر أبيض طويل وبشرة بيضاء، ودخانا يتصاعد من مدخنة الكوخ. هل يمقت العقل الفراغ؟ هل هناك حاجة إلى تكوين الغامض عديم الشكل، وتجسيد الحدث، أم يمكن أن ترضي نفسك بالكلمات على الصفحة، في ذاتها وبذاتها، ولو أن الأمر كذلك، ما الذي يحدث لك حينما تقرأ هذه الكلمات؟

لا، لم أكن أحاول الإيحاء بأن *Breaking Away* رائعة سينمائية. بل مجرد أنه الفيلم الوحيد الذي شاهدته ويولي اهتماما كبيرا لركوب الدراجات، وأنني وجدته مسليا. وطبعا، مشهد السباق الانتصاري الأخير مجرد هراء هوليودي. ولكن اللقطة النهائية، تماما، من الفيلم ظريفة بشدة ـ عندما يلتقي الصبي ـ بعد تظاهره لشهور أنه إيطالي ـ بفتاة

فرنسية جميلة في الجامعة، فإذا به يصيح على أبيه المندهش قائلا "بنوجور بابا!".

شيء للتأمل. على مدار الأسابيع القليلة الماضية أدليت بنحو عشرة حوارات لصحفيين أمريكيين حول "حديقة الغروب" التي نشرت أخيرا. كثير منهم، لا سيما الصحفيات (والحقيقة أني أنتبه الآن إذ أفكر في مسألة أن الجميع صحفيات)، مصدومات، بل شاعرات بالفضيحة، بسبب العلاقة بين شخصيتي ذات الأعوام الثمانية والعشرين وحبيبته ذات السبعة عشر عاما. يبدو أن "الجنس تحت السن" يقرع كل أجراس الإنذار في الثقافة الأمريكية المعاصرة. في المقابل، حينما تكلمت مع الصحفيين عن "الخفي"، لم يذكر أيّ منهم تقريبا زنا المحارم بين الأخ والأخت. بصراحة، رأسي يدور.

فهل من أفكار؟

مع أحضان كبيرة لك ولدوروثي

بــول

٢٩ نوفمبر ٢٠١٠

عزيزي بـــول

"بوصتان إلى الأمام، بوصة إلى الوراء" ـ هذه هي العبارة التي تصف بها التقدم الاجتماعي في بلدك، وهي، بما أنها القوة العالمية المهيمنة، بلدي أيضا بمعنى مهم، وبلد كل إنسان على ظهر الكوكب، بشرط أن لا يساهم بقيتنا في عملياتها السياسية.

رؤيتي المريرة إلى حد ما، بوصفي عضوا مدى الحياة في طبقة المحكومين، هي أنه من السذاجة أن نتطلع إلى الحكام منتظرين منهم أن يدبروا لنا مستقبلا أفضل. فلديهم أسماك أكثر أهمية يقلونها. ومن ثم فطالما يسوون بين أنفسهم مشكلة الانتقال السلمي، لن أطالبهم بالمزيد. وأعني بمشكلة انتقال السلطة ببساطة تمرير السلطة من أحدهم إلى التالي دون أن يخضعوا السكان للعنف.

ليس على المرء إلا أن ينظر إلى الدول التي لم تحل مشكلة انتقال السلطة ليدرك حجم هذا الإنجاز، وأي شقاء في المقابل ذلك الذي يعيشه من يعيش في بلد يلجأ المتنافسون على السلطة فيها إلى السلاح.

فنخب الولايات المتحدة مرتين في هذا الصدد.

أفترض أن استقرار الولايات المتحدة يأتي في المقام الأكبر نتيجةً للاحترام الذي عُلِّمْتُم أنتم الأمريكيون (وتَعلَّمتم) أن تولوه لوثائقكم الأصلية. وهذا ما يثير أسئلة شائقة حول الأصولية. هناك في بلدك، حسبما أفهم، من يرون أن الدستور ووثيقة الحقوق تعنيان شيئا واحدا لا ثاني له، بينما يعتقد آخرون أن هاتين الوثيقتين بحاجة إلى إعادة تأويل من وقت إلى آخر في ضوء الظروف التاريخية المتغيرة. هذا الاختلاف في موضوع التأويل (ما يعنيه نص مكتوب أو ما قد يقال إنه يعنيه) يعكس بقوة الاختلاف اللاهوتي بين الأصوليين المسيحيين وخصومهم التقدميين، واختلافات لا شك فيها داخل الأديان القائمة على النصوص كاليهودية والإسلام.

أنا لا أعرف آراءك في التأويل وحدود التأويل. إحساسي الخاص أن منظر الباحثين (أو القضاة) وهم يحاولون استعصار نصوص عمرها ألفا عام ليخلصوا منها بقول في أبحاث الخلايا الجذعية هو أكثر من مجرد مشهد كوميدي. وحينما نأتي إلى العصور الحديثة، أشعر بقوة أن فشل الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، قديما في القرن الثامن عشر، في إزالة اللبس عما كانوا يعنونه وهم يؤكدون على حق المواطنين في حمل السلاح لم يكن أقل من أمر يستحق اللوم، وفي ضوء مئات آلاف البشر الذين ماتوا على مدار السنوات نتيجةً مباشرةً للتأويل الحرفي لذلك القانون، فالإدارات السياسية المتعاقبة في الولايات المتحدة ملومة أيضا لأنها لم تحذف ذلك القانون وتستبدل به صياغة أكثر تحديدا.

لنيتشه تعليق في (**أفول الأصنام**) مررت به للتو: "كيف تقاس الحرية في الأفراد مثلما في الأمم؟ بحسب المقاومة التي ينبغي التغلب عليها، بحسب الآلام التي يتكبّدها البقاء على السمو. ولا عثور على أعلى الناس مقاما في الحرية إلا حيثما تكون أعصى المقاومة الواجب أبدا قهرها". استدلال: حتى لو أن المرء نظريا يولد حرا، فحريته سرعان ما تذوي. استدلال آخر: ليس محتملا أن يكون هناك شيء اسمه أرض الأحرار.

في رسالتك الأخيرة، تدفعنا إلى مناقشة المكان الروائي، سائلا عما أراه أمام عين عقلي حينما أقرأ في كتاب أن عجوزا تعيش مع ابنتها في كوخ على حافة الغابة. يبدو، عند المقارنة معك، أنني ذو خيال بصري شديد الفقر. في عملية القراءة الطبيعية، لا أعتقد أنني "أرى" أي شيء على الإطلاق. ولا يحدث، إلا إثر طلبك تقريرا، أن أرجع فأجمّع عجوزا في عين عقلي وابنة وكوخا وغابة، ولكنها جميعا صور أولية.

ما يبدو حقا أنه لدي، كبديل عن الخيال البصري، هو ما أسميه في إبهام بالهالة النغمية. وعندما يرجع عقلي إلى كتاب معين أعرفه، يبدو أنني أسترجع هالة معينة، وبالطبع لا سبيل إلى وصفها بكلمات ما لم أعد فعليا كتابة الكتاب.

تعترف أن رأسك يدور حينما تحاول أن تفهم لماذا لا يشكو النقاد من زنا المحارم بين أخ وأخت (في **الخفي**) ويغضبون من الجنس بين رجل في الثامنة والعشرين وفتاة (امرأة؟) في السابعة عشرة (في **حديقة الغروب**).

رأسي أيضا يدور، خاصة وأن الحميمية في الحالة الأخيرة مكتوبة بتحفظ شديد. والمحير حقا هو السؤال عن نوعية الحقبة التاريخية التي نعيش فيها: أهي حقبة تطهرية أم حقبة متساهلة؟ إذ يبدو أن فيها سمات من كلتيهما. فمن ناحية لا يعترض الأبوان حينما تأتي ابنتهما ذات الستة عشر عاما بولد يقضي معها الليل في البيت. بل إنهما قد يقدمان الإفطار للثنائي المتشبع في الصباح التالي. في المقابل، يجد الرجل الراشد نفسه في السجن حينما يلتقط صورة لطفلة في لباس العوم على الشاطئ.

فرضيتي المؤقتة هي أن المزاج السائد في زماننا معاد للرغبة، راغب في معاقبتها. غير أننا في الوقت نفسه لسنا مهيئين لمعاقبة الأطفال، الذين بحكم التعريف لا لوم عليهم. فيتم توجيه العقاب المضاعف للراشد الذي يرغب في طفل.

قد يركز الفرويدي على السؤال عن سبب توقفنا عن معاقبة الأطفال، وهجراننا بصفة خاصة العقاب الجسدي الذي كان من قبل هو العرف ثم بات الآن محرما تماما. تخميني أن الفرويدي قد يلحظ رابطا بين تزايد جنسنة الأطفال الصغار والصبغة الجنسية أو المجنسنة التي تظهر لا محالة في العقاب الجسدي للأطفال في هذه الظروف. وقد يتخذ المنطق المتسامح هذا المسار: هذه الطفلة تحاول إغوائي، ولو أنني عاقبتها على ذلك فقد استسلمت لغوايتها. فما الذي أفعله من بعد؟

شهدت أستراليا قضية مثيرة قبل عام أو اثنين. كان مصور فوتغرافي محترم يقيم معرضا فيه صور لموديل عارية عمرها (في ما أعتقد) اثنا عشر

عاما. وبتحريض من جماعات ثأرية، أغلقت الشرطة المعرض. وسئل رئيس الوزراء كيفين رود ضمن حوار معه عن رأيه في الصور الفوتغرافية (التي انتشرت بطبيعة الحال عبر الإنترنت). وبدافع مهما تكن طبيعته ـ لعله مثلا تصوَّر أن يعود عليه كلامه بمزيد من الأصوات ـ قال إن الصور الفوتغرافية "مقززة" وتساءل علنا عن السبب الذي يمنعنا من ترك الأطفال أطفالا في حالهم.

هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقال عن هذا الرد، وهو من نوعية الردود التي لا يمكن توقع غيرها من سياسي في أيامنا هذه، خاصة إن كان مراعيا للرأي العام. من ذلك أنه يفترض أننا إذا كنا عراة فنحن جنسيون، بمعنى أن العاري والمستعري والجنسي شيء واحد لا يزيد ولا ينقص.

أتذكر، قبل سنوات قليلة، كتابتي مقالة عن البورنوجرافيا، وفي محاولة لتحرِّي البلاغة، وإثبات العبثية بافتراض المستحيل، جهرت بسؤال عما لو كنا يوما سوف نطلب من صناع السينما شهادات بأن الممثلين الذين يستخدمونهم في المشاهد الجنسية ليسوا قصرًّا. وها هم يا إلهي صناع السينما مطالبون اليوم بالتوقيع على تعهدات من هذا النوع بالضبط.

مع أدفأ الأمنيات

جـــون

٣ ديسمبر ٢٠١٠

عزيزي جـــون

تسأل إن كان لي رأي في التأويل أو حدود التأويل، والفكرة الأولى التي تخطر لعقلي (عقلي البليد، الميال للربط بين الأشياء، شديد النشاط) هي فقرة قرأتها قبل سنين كثيرة في ترجمة إنجليزية لمختارات من التلمود. حيث يتناقش العديد من الحاخامات في الظروف المحتملة التي قد تمنع شخصا من تلاوة صلواته اليومية. يذكر أحدهم الغائط بوصفه عائقا. فلو وجدت نفسك واقفا بجوار كومة غائط، سيكون من التجديف أن تذكر اسم الرب، أليس كذلك؟ ويوافقه بقية الحاخامات. ولكن ماذا يكون العمل؟ الذهاب بطبيعة الحال إلى مكان آخر. فماذا لو أنك عاجز عن الذهاب إلى مكان آخر؟ يقترح أحد الحاخامات تغطية الغائط بقماشة أو ورقة. ويقول إنه طالما الغائط خارج نطاق الرؤية، يمكنك أن تتلو الصلوات وكأنه غير موجود. ويوافق بقية الحاخامات. ثم يثير أصغر الحاخامات نقطة مزعجة. ماذا لو أن الغائط على نعل حذائك وأنت لا تعرف؟ فهل مسموح لك بالصلاة أم لا؟ وأتذكر أن الجملة التالية كانت هذه " وعلى هذا لم يكن لديهم رد " .

بما يعني، في ما أفترض، أن التأويل لا يصل إلى غير هذا المدى، وأنك عاجلا أم آجلا سوف تنتهي إلى سؤال لا جواب له. فلو أنك مرغم على الإجابة (والقضاة يكونون مرغمين على ذلك)، فستكون الإجابة بالضرورة اعتباطية، أعني، شخصية، أو هي نتاج لماهيتك أنت وكينونتك، وانعكاس لمعتقداتك الخاصة عن الكيفية التي يجب أن يدار بها العالم. وفي حالة الحاخامات السابق ذكرهم، يسهل عليّ أن أتخيل الحوار مستمرا، برغم أن هذا لا يحدث، وهو أمر جميل ومحمود. فقد ينصح حاخام ذو عقل لبرالي زميله الشاب بالمضي في صلاته. فما دام لا يعرف بوجود غائط على نعل حذائه، كيف يمكن اعتباره مسؤولا عن ذلك؟ وسوف يتفهم الرب ويغفر. ولكن حاخاما أصوليا سيقول العكس بالضبط. سيحتج بأن الغائط غائط، والقانون قانون، وبما أن الصلاة ممنوعة في وجود الغائط، فإنك تسيء إلى الرب إن تلوت صلاة وعلى نعل حذائك غائط.

ولنمض قليلا في هذا، وبما أنك تتكلم عن الانتقال السلمي للسلطة في الولايات المتحدة واحترام الأمريكيين لما لديهم من "وثائق تأسيسية" ... أنت عشت هنا لأوقات طويلة ومتكررة بما يكفي لتفهم الحياة الأمريكية فهمي أنا لها، ولكنك في الوقت نفسه ناء عن هذا المكان (ولم لا تكون كذلك؟) بطرق غير ممكنة لي. أنت تنظر إلى نفسك بوصفك أحد "المحكومين"، وفي ضوء الأذى الذي تسببت فيه أمريكا حول العالم طوال السنوات الكثيرة الماضية، فإن جرعة محددة من التشكك في المشروع الأمريكي لا توصف بأنها غير مبررة، بل هي في واقع الأمر مفهومة تماما.

أنا أيضا أستشعر هذا التشكك، ولكنني في الوقت نفسه من هذا المكان ومرتبط به بعمق، وكلما تخطئ أمريكا (وهو ما يحدث مرارا وتكرارا) يكون ألمي شديدا. ولم يكن الألم أقسى مما كان عليه (لو أننا نتناول مواضيع انتقال الحكم، وتأويل النصوص، والأصولية، والوثائق التأسيسية) عند قرار المحكمة العليا في أعقاب انتخابات سنة ٢٠٠٠ الرئاسية، أي مهزلة جور ضد بوش. أنا واثق أنك تتذكر ما حدث. الشيء الملفت ـ بالنسبة لي ـ في ذلك الأمر هو السرعة ـ واللهفة ـ التي عمل بها الأصوليون القائمون بتأويل القانون لخيانة ما يقال له معتقداتهم وقناعاتهم حتى يضعوا رجلهم في السلطة. نادرا ما يرى المرء خيانات المثقفين فاعلة على مثل هذا المسرح الهائل، ولكن النفاق الذي شهدته طوال تلك الأسابيع أشعرني بالمرارة التي لم أزل أستشعرها حتى بعد مرور عشر سنين على الواقعة. صحيح ما أشد احترامنا لوثائق أمريكا التأسيسية. في نهاية المطاف، لا وزن للأفكار عندما يتعلق الأمر بالصراع على السلطة السياسية. لقد نفذت المحكمة العليا انقلابا لصالح الحزب الجمهوري تحت قناع مثالي من الشرعية.

فاز جور. ولكن فوزه لم يكن حاسما بالقدر الكافي للحيلولة دون تعرض هذا النصر للسرقة، ومن الأسباب التي حالت بينه وبين تحقيق أغلبية كاسحة من الأصوات، بل لعل السبب الوحيد لذلك هو الإمساك ببيل كلنتن وسرواله عند كاحليه. (ومن نكات تلك الأيام: لماذا يرتدي بيل كلنتن سرواله الداخلي؟ الإجابة: لتدفئة كاحليه). ومرة أخرى، لا حاجة إلى تكرار الوقائع، ولكن ها نحن نصل إلى آخر جزء في رسالتك

وتأكيدك (تأكيدك عن حق) أننا نعيش عصرا عقابيا في ما يتعلق بالأمور الجنسية. صحيح أن هناك تصريحا هائلا من ناحية، ولكن مثله قائم أيضا بالنسبة للأحكام المتزمتة التي ترافقنا منذ وضع المستعمرون الأوائل أقدامهم في نيوإنجلند. فبغير فضيحة كلينتن الجنسية، ربما ما كان ليكون هناك بوش. وبغير بوش، ربما ما كان ليكون هناك ١١/٩، فلا عراق، ولا أفغانستان، ولا تعذيب خارج عن القانون. والمسمار عند الحداد، والحداد عند الـ . . .

يبدو أن كل النقاط التي تثيرها في رسالتك تجتمع في هذه القصة المؤسية.

لا بد أن أسرع الآن، لكنني أريد أن أكتب لك كلمات على عجل قبل أن أتركك. سأرجع إلى نيويورك في السادس عشر. وحتى ذلك الحين، أقدم لك اصطلاحا عسكريا أمريكيا يرجع إلى زمن الحرب العالمية الثانية وقد صادفته أخيرا للمرة الأولى: FUBAR (الترجمة: مفشوخ إلى ما وراء الخيال fucked up beyond all recognition).

لا بأس به، صح؟

أحر الأمنيات

بــول

١٩ يناير ٢٠١١

عزيزي بــول

وقعت على تجربة فكرية صغيرة قبل أيام فمضت تسليني وتزعجني بالتناوب.

كنت أتأمل وضعي في الحياة، وكيف انتهيت حيثما أنا (وجودي على وجه التعيين في ضاحية مدينة صغيرة في أستراليا)، وفي الحوادث العديدة ومن بينها حادثة ميلادي ـ ميلادي لأبوين معينين في يوم معين ـ التي لم تفض فقط إلى وجودي حيثما أنا بل ووجودي على ما أنا عليه. خطر لي أنه كان من السهل للغاية أن أتصور عالما لا يكون فيه هذا الأخ جون ماكسول كوتزي المولود في التاسع من فبراير سنة ١٩٤٠ موجودا أو سبق له الوجود، أو أنه من ناحية أخرى عاش حياة مختلفة كل الاختلاف، قد لا تكون حتى حياة بشرية، ثم كان يخطر لي في اللحظة التالية أنه من المستحيل تخيل عالم لا أكون **أنا** موجودا فيه أو لم يسبق لي الوجود فيه.

ثم جرّبت اللعبة من جديد، مفكرا في الفكرة الأولى (أي العالم بدون ج م ك) ثم في الأخرى (أي العالم بي)، ومن جديد نجحت. في الحالة الأولى كان التفكير يسيرا، وفي الثانية مستحيلا.

النتيجة المنطقية البسيطة قد تبدو أن معادلة "أنا = ج م ك" خاطئة. بل إن حدسي في واقع الأمر يدعم هذه النتيجة. وأتصور أنك بالمثل تجد معادلة "أنا = ب أ" خاطئة.

لكن هل سبق لك أن رأيت خطأ المعادلة متجليا بكل هذا السفور؟

أسافر غدا أنا ودوروثي إلى الهند، في زيارتنا الأولى لها. والاستعدادات للسفر تطلبت قدرا استثنائيا من الخراء، أعني الخراء حرفيا. كان علينا أن نتعاطى أمصالا ضد أمراض تنتقل عبر الخراء (الالتهاب الكبدي والكوليرا)، كما نبهت علينا كل الجهات أن نغسل أيدينا بوتيرة متلاحقة وأن لا نضع في أفواهنا طعاما مرّ عبر أيدي الغرباء (الخرائية)، والآن أقرأ في مدونة نيويورك رفيو أوف بوكس أنه في حين قد يتخرأ الرجال في الهند علنا دونما خجل، فإن رؤية المرأة وهي تريح نفسها خلال النهار أمر غير مقبول. ومن هنا ينتشر بين النساء نطاق عريض من أمراض الجهاز البولي والمعوي.

يُصدم المرء كلما يكتشف بدائية القاعدة التي تنشأ عنها التابوهات. فمن التابوهات عل سبيل المثال ارتداء الحذاء في المسجد أو الجلوس فيه. لماذا؟ لاحتمال أن يكون نعلا حذاء المرء قد خاضا في الغائط (وهذا واضح) ولأن مؤخرة بنطال المرء قد تكون هي الأخرى ملوثة (غير واضح).

شكرا على رسالتك الأخيرة (٣ ديسمبر) والبطولة فيها أيضا للغائط على الحذاء.

أطيب الأمنيات

جــون

٢٨ يناير ٢٠١١

عزيزي جــون

بعد شهر من العمل وكتابة مائة صفحة، قررت أن أترك الرواية التي بدأتها في الربيع الماضي، أو أتجنبها لفترة. بدا لي أن الكتاب ينتشر في كل الاتجاهات بدلا من أن يتجه إلى التركيز، ولم تخطر لي وسيلة لإصلاح هذا. لم يسبق لي أن أهملت مشروعا تعمقت فيه بهذا القدر، لكنني برغم الإحباط مقتنع بأنني اتخذت القرار المناسب. وأتساءل لو أن شيئا مماثلا حدث لك من قبل، فإن كان قد حدث لك، كيف تعاملت معه؟

احك لي عن الهند. فأنا لم أسافر إليها قط، ولا أعرف عنها غير القليل للغاية.

خمسة أقدام من الجليد في نيويورك خلال الشهر الماضي، وعاصفة تلو عاصفة. يبدو أن هذا الشتاء من هذه النوعية من الشتاءات.

أقوى الأفكار، وأحضان كبيرة لكليكما

بــول

٣ مارس ٢٠١١

عزيزي بــــول

كنت أرغب في الكتابة إليك عن الهند، لكني فكرت أنني بحاجة أن أدع قليلا من الوقت يمر لتهدأ أفكاري وتنمو وقد تزداد نضجا وإثارة للاهتمام. والآن لا أرى أنها تنمو على الإطلاق، لكنها تهدأ وحسب، فلا مبرر للإرجاء أكثر من هذا.

كنت قد دعيت إلى مهرجان جيبور الأدبي، وفكرت أنني قد أجعل منه مستهلا لجولة، إن لم تكن في الهند ففي راجيستان على الأقل. وإن أفلحت راجيستان، هكذا فكرت، فقد أستكشف في وقت لاحق جزءا آخر من البلد، ربما يكون كيرلا، إن توفر نزر إضافي من الثقة.

لديّ حيال مهرجان جيبور مشاعر مختلطة. كنت قد سمعت أنه ضخم وصاخب، فلم يشفع له هذا عندي. ولكن في المقابل من المؤكد أنه ستكون فيه أرواح متعاطفة، من الهنود والأجانب، وسوف يروق لي أن أتبادل وإياهم الأفكار حول الجيد والرديء، وما ينصح به وما لا ينصح به، عند رؤية البلد.

لا أعتقد أنني ميّزت نفسي في المهرجان. وكنت عاقدا العزم على أن لا أعرِّض نفسي لجولات الأسئلة العلنية التي باتت ملمحا معياريا في المهرجانات في هذه الأيام. فلست بالبارع في وسيط الاستجوابات هذا. لأنني أميل إلى الإيجاز في ردودي، والاختصار (أو الاقتضاب) أمر يسهل تماما سوء تفسيره كعلامة ضيق أو غضب. فأعلنت أنني ببساطة سوف أكتفي بقراءة نص أدبي لي. وذلك ما فعلته. ولم يكن النص مسليا (فقد كان عن الحياة والموت والروح)، فلعلي أسأت الاختيار لحدث من ذلك النوع. أما رد فعل الجمهور: فاحترام وحيرة.

على أية حال، بعد خمسة أيام انتهى المهرجان ولم أكن حصّلت رأيا معينا من الحوارات القليلة عن كيفية الاقتراب من الهند. وأسوأ من ذلك أنني أصبت بحمى خفيفة جعلتني في حالة خمول طول الوقت.

فاكتفيت أنا ودوروثي بجولة محددة السعر مدتها أسبوع في راجستان مع سائق سيارة يدعى راكش. ساق بنا راكش من جيبور إلى بوشكار إلى جودبر إلى أودايبور إلى بوندي رجوعا إلى جيبور، فلما انتهت رحلتنا وضعنا في طائرة خارجة من البلد.

أتصور أنني في هذه المرحلة قادر على سرد المناظر التي تركت لديّ انطباعا طوال الطريق. ولكنني أشك أنك تريد من الرسالة ما يفوق هذا. لذلك سألزم نفسي بمشهدين اثنين رأيتهما، ثم لعلي بعد ذلك أتأمل قليلا في أسباب كوني هذا الصحفي البائس، لا في ما يتعلق بالهند فقط، بل وعلى مدار حياتي.

ملاحظتي الأولى هي أن هذه كانت البلد الأولى التي أزورها فبدا لي فيها أن البشر والحيوانات توصلوا معا إلى اتفاق راق على التعايش السلمي. نطاق السلالات الحيوانية التي رأيتها رأي العينً كان محدودا - بقر وخنازير وكلاب وقردة - ولكن لا يوجد سبب يجعلني أتصور أن هذه فقط هي الحيوانات المقبولة داخل نطاق البشر. ولم أر بادرة قسوة في المعاملة، أو حتى بادرة على نفاد الصبر، برغم أن البقر يهيم وسط المرور المزدحم معطلا سير الناس.

من الشائع عبادة البقر في الهند. ولكن يبدو لي أن العبادة لفظ خاطئ. فالعلاقات بين الناس والحيوانات أكثر دنيوية بكثير من هذا: إن هي إلا تسامح وقبول بسيط لطريقة الحيوان في الوجود، حتى حين يقحم نفسه على البشر.

وتكمن وراء هذه الملاحظة تجربتي في أفريقيا، حيث تتواجد الحيوانات أيضا في كل مكان، وحيث القسوة أيضا شائعة ضدها بلا تفكير، فثمة موقف احتقار لها بوصفها شكلا أدنى من أشكال الحياة.

ملاحظتي الثانية تتعلق بالفقر، ومرة أخرى كانت المقابلة مع أفريقيا كامنة في خلفية عقلي. يبدو بالفعل أن "الفقراء" في الهند على مقربة خطرة من أدنى مستويات العيش، وأنهم يكشطون نصيبهم من الوجود البسيط من يوم إلى يوم. لكنني كنت كلما رأيت هذا الوجود البسيط، كنت أزداد إعجابا بمخزون المهارات العملية الذي يعتمد عليه أولئك الناس، وكذلك بكدِّهم الشديد. سواء حينما كنت أرى الرجال يقطِّعون

آجر البناء من كتل الحجر الجيري أو الباعة وهم يعدون الطعام على جنبات الشوارع، كنت أرى براعة في ما أسميه ذكاء الأيدي التي كان لها في ظل نظام اقتصادي آخر أن تكون أيدي حرفيين ناجحين. بعبارة أخرى، لقد بدا لي أن هناك موارد بشرية هائلة ليست مستغلة في الوقت الراهن إلا جزئيا.

والآن نأتي إلى صاحب الملاحظتين نفسه، الرجل الذي يخرج من انغماس لمدة أسبوعين في ثقافة أجنبية (وحضارة أجنبية) وليس معه ما يعرضه منها إلا حفنة مبتذلة من ملاحظات مجردة. لماذا أنا عاجز عن كتابة أدب الرحلات بكل بهائه المثير للمناظر والأصوات الغريبة الحية؟ أعرف أنك سوف تقول "ولكن من المؤكد أن لك صحبة طيبة. فأين هو الاستنفار الحي للأصوات والمناظر الغريبة عند كافكا؟ أو عند بيكيت؟" . ولكن هل يكفي الاعتماد على هذا العزاء؟ أليس هذا عجزا قديما سافرا يظهره المرء - عجزا عن الاستجابة لجمال العالم وكرمه؟ ما الجدير بالإعجاب في تحويل فقر شعب إلى فضيلة؟

أسئلة. أسئلة.

صديقك إلى الأبد

جـــون

٧ مارس ٢٠١١

عزيزي بــول

سمعت من منظمي الفعاليات في كندا أنهم وصلوا إلى مرحلة حجز الفنادق لنا. ممتاز. فأنا مشتاق إلى قضاء بعض الوقت معك. مؤسف أن سيري لن تستطيع الحضور.

دوروثي ستحضر، فهي ستقدم بحثا في مؤتمر أكاديمي في جامعة كوين في الوقت نفسه تقريبا.

آسف أن أعرف أنك وجدت نفسك (في يناير) مرغما على ترك مشروع واضحٌ أنك بذلت فيه الكثير من العمل. ولكن هذه الاستثمارات لا تضيع هباء، أم ماذا؟ من المؤكد أنه يمكن استرداد صفحة أو اثنتين، وقد يحدث مع الوقت لفكرة من هنا أو هناك (بالاستعارة من قاموس البستنة) أن تمد جذورها الخاصة.

حدث في الماضي أن تركت مشاريع، ولكن بي نزوعا وطنيا إلى المضي بعيدا، والعناد برغم غيبة الأمل.

ما يثير اهتمامي في المنعطف الراهن هو كيف ومتى تعلن قوة فاشلة عن فشلها. لا يمكن أن يظل المرء يكتب إلى الأبد، ولا يريد المرء أيضا أن يخرج بمنتج سيء محرج في شيخوخته. كيف يعرف المرء أنه لم يعد لديه ما يحترم به موضوعه حق احترامه؟

كل أمنياتي الطيبة

جـــون

٨ مارس ٢٠١١

عزيزي جـــون

سعدت برسالتك، بل رسالتيك، مثلما سعدت بعودتك سالما قطعة واحدة.

الحقيقة أن أدب الرحلات يضجرني، بل والأفلام التي تتناول الأماكن الغريبة والتي ينبغي نظريا أن تشدّك من مؤخرة بنطلونك كانت دائما ما تتركني باردا. أتذكَّر الأعمال الترحالية التي كانوا يعرضونها عن بلاد العالم بين أفلام الكارتون وأنا صبي ـ أعمال مملة بصورة لا توصف فكانت تجعلني أسارع خلال دقيقتين إلى محل الأطعمة السريعة.

لا يعني هذا أنني لم أستمتع بكلاسيكيات هذه الفئة ـ هيرودوت، وماركو بولو، وسير جون ماندفيل، وسان برندون، وكولمبوس، وكابيزا دو فاكا ـ والتي يمتلئ الكثير منها بالأكاذيب والغرائب، وببعض كتب القرن التاسع عشر ذات القيمة الأدبية الحقيقية: "رحلات في صحراء العرب" لداوتي، و"قافلة أوريجون" لباركمان، و"استكشاف نهر كولورادو ووديانه" لباول، ولكن انفجارة أدب الرحلات في الثمانينيات

لم تعن لي الكثير، وعندما أصل إليها، فإنني أفضل عليها كثيرا أنثروبولوجيا كالفينو الخيالية في "مدن لا مرئية" وقصيدة هنري ميشو النثرية "أكتب إليك من بلد بعيد"، أو حتى سرد سيرانو دي برجراك في القرن السابع عشر لرحلته إلى القمر ـ وكلها أعمال فنتازيا محضة يبدو أن ما تقوله عن حياة الإنسان يفوق ما في أي كتاب أو مقال قائم على ريبورتاج واقعي.

أراك ترثي فقر مواهبك كمراقب "للمشاهد والأصوات الغريبة"، في حين أنك لست صحفيا ـ لا بحكم التعليم أو المزاج ـ ونوعية الانتباه التي توفرها لتجاربك مختلفة عما لدى الصحفي. فالصحفي وكاتب أدب الرحلات يركّزان على سطوح الأشياء. ووظيفتهما هي إبداع صور كلامية لقرائهما، والنظر من القرب إلى كل معلومة بصرية تعرض نفسها عليهما فيحيلانها إلى عبارة أو جملة آسرة، أما أنت فتنظر إلى أشياء عديدة في وقت واحد، إلى كل شيء في وقت واحد، محاولا فهم ما تقع عليه عيناك ـ أي أنك تحاول تركيب المعلومات المتنافرة في ملاحظة واحدة تحيط بما هو أكثر من سطوح الأشياء، نافذةً إلى الأعماق الداخلية. ومن هنا كان امتناني لكلامك عن العلاقات بين البشر والحيوانات في الهند (وهو كلام لم أسمع مثله من أحد من قبل) وصناعات "الأيدي الذكية" بحسب تعبيرك. خير لي كثيرا أن أقرأ هذه الأشياء من أن يقال لي ما لون الأكواب التي يشرب منها الفقراء.

١٠ مارس

أيام مزدحمة، ممزقة ـ وذلك ما حال دون أن أستمر في الكتابة يوم الثامن . . .

كلمتان عن كندا في سبتمبر. أعرف مدى انزعاجك من "الاستجواب العلني"، لكن يبدو لي أن هذا بالضبط ما يريدون أن نفعله معا. أنا وأنت فقط جالسان على المسرح ولا وسيط بيننا، في البداية يقرأ كل منا نصا قصيرا من أعماله، ثم يجري بيننا حوار ما. علينا أن نحدد مسبقا ما نريد أن نتكلم عنه (بصفة شديدة العمومية، مجرد نقاط أساسية) ونرتجل من هناك. ستكون بعض ملاحظتنا بالضرورة في شكل أسئلة ـ من أحدنا للآخر ـ لكنها لا تنتمي إلى نوعية الأسئلة الحارقة المعتادة في الحوارات. أعتقد أننا سنكون على ما يرام، ولو أن جملك مقتضبة، فأي فارق يمثله ذلك؟ أنا شخصيا جملي تميل إلى الاقتضاب.

صعوبة فهم الأحداث الجارية في الأجزاء البعيدة من العالم. كل ما أعرفه ـ باستثناء ما يحدث تحت أنفي هنا في أمريكا ـ يأتيني عبر مرشحات الميديا (لا سيما نيويورك تايمز ونيويورك رفيو أوف بوكس، وأيضا بعض التليفزيون والإذاعة)، وكلما ازددت ابتعادا عن الأحداث المعنية، قلَّ يقيني بما أعرفه. بوسعي أن أدرك مهزلة الفضائح الإيطالية الأخيرة (فلست غريبا على السياسات الأوربية)، أما حينما يتعلق الأمر بما يجري في الشرق الأوسط، فأشعر أن الأرض التي أقف عليها أقل صلابة. ما يقال لنا في الصحافة الأمريكية هو أن ثورات عفوية وقعت في تونس ومصر، وأن حركات احتجاجية اندلعت في بلاد عديدة أخرى في المنطقة، وأن الصراع في ليبيا يتحوّل سريعا إلى حرب أهلية دامية. ولنركز على مصر: يبدو أن الانتفاضة السلمية كانت ذات طبيعة علمانية، وأن الشباب من أبناء العشرينيات والثلاثينيات كانوا يقودونها في أغلبها (وهم

شباب متعلمون يعانون إما من البطالة أو البطالة المقنّعة بسبب المجتمع المعطوب الذي تكوّن عبر سنوات من الفساد والدكتاتورية) مدعومين من نساء وموظفين وعمال فقراء بل ومن الجيش نفسه. الجميع أثنوا على استثنائية الحماسة والتفاني لدى الثوار، ولكن الآن، ولم تمض إلا أسابيع، يبدو أن الصدوع تتكوّن من جديد، والمواجهات العنيفة تتزايد (وأحدثها بين المسيحيين والمسلمين)، والموقف كله يبدو لي خطرا غير مستقر. عشرات السنين بغير حياة سياسية حقيقية، أو أحزاب سياسية منظمة، أو احتمالية قيام معارضة سياسية متماسكة، أدت إلى نوع من الجوع الشعبي إلى التغيير الاجتماعي، لكن بغير أدوات سياسية لتنفيذه، وهو ما ترك الجيش متحكما في البلد، ولو في الوقت الراهن على الأقل. أعتقد أن هناك فراغا في السلطة، وحينما أفكر في ثورات الماضي، أنتبه أن هذا النوع من الفراغ هو الذي يُنتج نابليون أو لينين، ذلك الوصولي الذكر الذي يتقدم لملء الفراغ ويسيطر بالقوة. هذه هي مخاوفي، ولكن ما الذي أعرفه حقا عما يجري، وما الذي أعرفه حقا عن الناس المشاركين فيه؟ تقريبا لا شيء. وفي الوقت نفسه، جدل في أمريكا: هل نلقي القنابل على ليبيا أم لا؟ إنني لأرتعد لمجرد التفكير في . . .

مع أدفأ الأمنيات

بــول

١٤ مارس ٢٠١١

عزيزي بــول

أنت لا تستخدم البريد الإلكتروني و(أنا متأكد) أنك لا تحمل موبايل. وأفترض أن هذين قراران مبدئيان من جانبك. لا يهمني إطلاقا ما يعنيه ذلك على المستوى الشخصي. ولكن ما يشغلني حقا هو ما يعنيه أن يكون المرء شخصا من القرن الحادي والعشرين ويكتب أدبا تغيب عنه أدوات تواصل القرن الحادي والعشرين كالموبايل.

قبل أن أقول المزيد، تأكد أن تعاطفي ينصب تماما على جانبك. فأنا أيضا صرت ـ راغبا في ذلك أم راغبا عنه ـ شخصا من القرن الحادي والعشرين يكتب أدبا ناسه يكتبون رسائل ورقية (ويبعثونها)، ويؤلف كتبا أحدث وسائل الاتصال الموظفة فيها (بين الحين والآخر) هي الهاتف الذي يتصادف أنه اختراع من القرن التاسع عشر.

حضور الموبايل أو غيابه من عالم أحدنا الإبداعي لن يكون ـ في ما أتصور ـ مسألة هامشية. لماذا؟ لأن أغلب ميكانزمات كتابة الرواية ـ في الماضي وفي الحاضر ـ قائمة على إتاحة المعلومات للشخصيات أو حجبها

عنها، وتجميع الناس في غرفة واحدة أو التفريق بينهم. فلئن حدث بغتة أن صار جميع الناس متواصلين مع جميع الناس ـ تواصلا إلكترونيا ـ فماذا يكون من أمر الحبكات؟ في الأفلام، اعتدنا بالفعل أن نرى جميع أنواع الحبكات تتخلّق من تفسير لماذا لا تستطيع الشخصية أ أن تتحاور مع الشخصية ب (هاتف منسي في تاكسي، هاتف خارج نطاق التغطية بسبب الجبال). أما الوضع البديهي فقد أصبح ـ إلا في الظروف الاستثنائية ـ أن ب متصل دائما مع أ.

هل يوشك في عرف الرواية غدا (بل اليوم في الحقيقة) أن يكون للجميع اتصال بالجميع فإذا كان هناك عالم روائي معين لا يتصل فيه الجميع بالجميع فهذا العالم الروائي ينتمي إذن إلى الماضي؟

الواحد اعتاد أن يحصل على صفحات من مجرد غياب التلغراف أو الهاتف (الذي لم يخترع بعد) والحاجة المترتبة على هذا الغياب إلى حمل الرسائل باليد أو حتى حفظها لدى طرف وتلاوتها لدى الطرف الآخر (مثال: الرجل الذى كان عليه أن يجري من ماراثون إلى أثينا [لعله فيديبيديس Pheidippides]). فهل قدر كثير من أغلب القصص التي أكتبها وتكتبها ويكتبها أمثالنا أن تعدَّ حكايات قائمة على غياب الموبايل، ومن ثم فهي بالية؟

فكِّر أيضا في ما فعله الموبايل بممارسة الزنا (والتغيرات التي اضطر الزناة إلى القيام بها) وممارسة الخداع بصفة عامة. إن رواية معاصرة عن الزنا (أو رواية عن الزنا المعاصر) ستكون ذات آليات مختلفة تماما.

وبدون أن أصنع جبلا من عش نمل [أي بدون أن أعمل من الحبة قبة]، دعني أشر إلى القوائم المتزايدة من السلع والخدمات غير المتاحة للناس بدون الموبايل (والتي لا تقارب قائمة السلع والخدمات التي لا تتاح للناس بدون الاتصال بالإنترنت، ومع ذلك . . .). هناك ضغط كبير علينا لكي يمتلك كل فرد موبايل ـ هو فعليا ضغط على المرء كي يكون له رقم، شفرة، يتحدد بها موقعه في جميع ساعات النهار والليل. وحينما يكون لكل شخص هذا الرقم، فأي داع إذن لأن تكون لأحد وثيقة هوية ملموسة؟

هناك روايات بالفعل يستخدم فيها الموبايل وسيلة للتعقب. فلا يكاد شخص تعيس معمَّم يفتح الموبايل، حتى يقصفه في لحظة صاروخ أو طائرة آلية [بدون طيار].

٢٢ مارس ٢٠١١

في ظل وجود ذكريات ثنائك على وليم وايلر في خلفية عقلي، شاهدت من أفلامه كل ما أمكن أن تقع عليه يداي على مدار الأسبوعين الماضيين. "مسز مينيفر"، و"ساعات اليأس"، و"ساعة الأطفال"، وفيلم مأخوذ عن قصة لسومرست موم من بطولة بيتي ديفيز لكن عنوانه غائب عني.

ببراعة شديدة واختفاء تام يفعل وايلر كل شيء، فلا تكاد تلاحظ يده الكاتبة. أود أن أتكلم معك عنه يوما ما، وأعرف ما يعجبك لديه بوصفك منتميا للمجال نفسه.

كلامك عن الوضع الراهن في مصر يبدو صحيحا تماما. إن المرء يرى أولئك الشباب الأذكياء ذوي الوجوه الطازجة والحماسة المتقدة في شوارع القاهرة يكلمون كاميرات التليفزيون عن مدى عظمة إحساس المرء بأنه حر، وعن مدى اشتياقهم إلى مصر جديدة، فيتساءل المرء كيف سيكون كلامهم في غضون عام أو اثنين، حينما تكون نخبة حاكمة جديدة قد استتبت في السلطة.

دائما ما يخطر لي أن أوقات فراغ السلطة العابر هذه، حينما يطاح بسلطة وقبل أن تثبت أخرى أركانها، هي الأوقات الوحيدة التي يعرف فيها الناس مذاق الحرية الحق، كما حدث على سبيل المثال في أوربا بين خسوف النازية ومجيء فترة التقشف الجديد. كم هي نادرة فرصة الجموع إذ تؤدي رقصة في الشوارع! وكم هو بالٍ هذا المصطلح: الجموع!

مع أفضل أمنياتي

جـــون

ملحوظة: قبلت المشاركة في اثنتين من الموائد المستديرة الجامعية في كندا في سبتمبر القادم. هو مؤتمري الأكاديمي الأول على الإطلاق. لا، لا ألومك على الإطلاق. فأنا أفعل أي شيء من أجل صديق.

٢٨ مارس ٢٠١١

عزيزي جـــون

وصديق آخر أعطاني آلة كاتبة يدوية من طراز أوليفيتي ليتيرا ٢٢ (حوالي ١٩٥٨ـ١٩٦٠) رجعت بها للتو من منهاتن، حيث كانت على مدار الأسبوعين الماضيين بين يدي رجل يدعى بول شويتزر الذي تعد شركته "مكتب جرامرسي للمعدات" هي آخر مكان في نيويورك يقوم بإصلاح الآلات الكاتبة. بـ ٢٧٥ دولارا حصلت دميتي الجديدة على فحص كامل، وأنا الآن أستخدمها للمرة الأولى، شاعرا بلذة هائلة من ملمس الأزرار وأناقة التصميم. قطعة آلية بارعة صغيرة، صغيرة وخفيفة بالقدر الذي يسمح لها أن تكون في المستقبل رفيقة الأسفار، وهو ما حرمت منه لسنين كثيرة.

توقيت جيد (أو غريب) في ضوء كلامك أخيرا عن الموبايلات وغيرها من أشكال التكنولوجيا الرقمية. نعم، كل هذه الآلات الآن جزء لا ينفصل عن الحياة اليومية، وليس بوسع الروائيين أن يتكلموا عن العالم المعاصر دونما اعتراف بوجود هذه الاختراعات. وبرغم أنني شخصيا لا أمتلك موبايل (وإن كنت امتلكت واحدا لفترة قصيرة، ونادرا ما كنت

أستخدمه، ثم منحته لاحقا لابنتي المراهقة آنذاك، والتي فقدت ثلاث موبايلات على مدار الشهور التسعة الماضية) فأنا لست شديد الجهل أو العناد فأفرض رؤاي على شخصيات كتبي. في روايتي الأخيرة، وهي قصة تجري أحداثها كاملة في **الآن**، يظهر الموبايل في الحدث، وبرغم أنني تخليت حتى عن اللابتوب (الذي استخدمته في العمل على سيناريو)، فقد ظهر الكمبيوتر والإنترنت في روايات أخرى كتبتها في القرن الحادي والعشرين. أنا واقعي! قد أشتاق إلى الأيام الخوالي (محلات الكاسيت، دور السينما الجليلة، والسماح بالتدخين في كل مكان) وقد أشعر بالاكتئاب حينما أدرك أن رفاقي على عشاء ما قد توقفوا فجأة عن الكلام ومضوا ينظرون في موبايلاتهم، ولكن مهما يكن اختلاط مشاعري تجاه هذه الأعاجيب الجديدة ـ التي ابتدعت لتقريب الناس من بعضهم البعض ولكنها غالبا ما تفرق بينهم ـ فأنا أعرف كيف يعيش العالم الآن، وليس هناك ما يمكن أن أفعله إلا أن أستجمع شجاعتي وأحاول القبول به.

بوسع المرء طبعا أن يكتب روايات تاريخية. هذا لو أن المرء مهتم بالروايات التاريخية، ولست كذلك.

رواية الزنا: مصطلح لطيف، رسم الابتسامة على وجهي. لا شك أنه أصعب على أي من الزوجين أن يختفي من الآخر لو أن كليهما يحملان موبايلات. ولكن الناس يغلقون موبايلاتهم في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان ينظرون فيها، فيعرفون من المتصل، ثم لا يبالون بالرد (وهذا شيء رأيته). في المقابل، تكرارك عدم الرد على اتصالات زوجتك قد لا

يكون فكرة ممتازة إن كنت تريد أن تحافظ على سلامة زواجك، وهو ما أفترض أن يكون هدف جميع الزناة. ومع ذلك لا يمكن أن أعتقد أن الزنا أقل انتشارا اليوم مما كان عليه قبل أن يكون الموبايل في جيوب الجميع. لعله يتطلب أشكالا جديدة من المراوغة ـ لكن ذلك تحدٍّ يرحب به أغلب الروائيين.

أنت تتكلم عن الجميع وهم متاحون للجميع، وهذا صحيح بمعنى من المعاني، ولكنه صحيح فقط بطريقة غير مطلقة. فليست هناك أدلة بأرقام الموبايل. هذه الكتب البدينة الحاوية أرقام الهواتف الأرضية التقليدية لا تزال موجودة (وهذه الكتب ـ في مدينة هائلة مثل نيويورك ـ بدينة للغاية)، في حين أن نشر أرقام الموبايلات مسألة شخصية. فرقمك عندي لأنك أعطيته لي، ولكن لا يوجد مكان أبحث عنه فيه، فما من وسيلة عامة للوصول إلى رقمك الخاص. ولكنني بمجرد الحصول عليه بطبيعة الحال قادر على الوصول إليك في أي مكان وفي أي وقت، فالموبايل (وهذه الكلمة ألطف كثيرا من اصطلاح "الهاتف الخلوي *cell phone*" الأمريكي) الذي يصحبك أينما تكون. هناك مزايا كثيرة لهذا النظام الجديد، (لا سيما في حالات الطوارئ والحوادث)، ولكن له الكثير من العيوب أيضا (كما في حالة علاقات الزنا السرية). أما في ما يتعلق بالسينما، فالموبايل يبدو لي خطوة إيجابية إلى الأمام. فبما أنه لم يعد مسموحا لأحد بالتدخين، يعطي الموبايل للممثل فرصة لاستخدام يديه.

وفي موضوع السينما، أنا سعيد بأنك تجشمت عناء النظر إلى وليم وايلر. لا يمكنني القول إنني معجب به بمثل ما تتصور (أو بقدر ما جعلتك تتصور). وكلما أعد قائمة خيالية بأسماء المخرجين المفضلين لديّ من شتى أرجاء العالم، أو حتى المخرجين الأمريكيين المفضلين، لا يظهر اسمه فيها مطلقا، بل إنه لا يدخل حتى في دائرة الاعتبار. صحيح أن لدي تعاطفا هائلا مع "أحلى سنوات العمر" الذي أعتبره أفضل أفلامه وأحد أفضل أفلام هوليود على الإطلاق، ولكن ليس بين أفلامه الأخرى ما يرقى إليه. هناك أفلام أخرى تعجبني طبعا، ولكنها ليست بالضرورة الأفلام التي شاهدتها أنت في الفترة الأخيرة، برغم أنه إذا كان عنوان فيلم بيتي ديفيس هو "الرسالة" فلعلك رأيت أحد أفضل أفلامه بعد "أحلى ..." . الفيلمان الآخران اللذان أعتبرهما جيدين للغاية مأخوذان عن روايتين أمريكيتين: دودسورث *Dodsworth*، ١٩٦٣ (لـ سينكلير لويس)، و"الوريثة"، ١٩٤٩ (عن رواية "ميدان واشنطن" لهنري جيمس). هو أسلوبيٌّ جميل، وموهوب بشدة في إدارة الممثلين (فلديه كثير من الأداء الممتع)، ومحفّز بصريا (لا سيما في الأفلام التي عمل فيها جريج تولاند مديرا للتصوير وهو عبقري مات بالسكتة القلبية في الرابعة والأربعين)، ولكنه شخص تطغى براعته في الصنعة على الإحساس بأي أثر لشيء شخصي، وهذا شيء غير محدد لكنه الفاصل بين العظماء والجيدين للغاية. الناقد السينمائي الفرنسي الشهير أندريه بازان أحدث جلبة كبيرة حول أهمية وايلر في مجلة "كراسات سينمائية" *Cahiers du Cinéma* في أواخر الخمسينيات، ولكن وايلر في النهاية ليس المخرج

الذي يقع في غرامه المرء، بل الذي ترفع له القبعة احتراما. أرفق لك نسخة مصورة من المكتوب عن وايلر في موسوعة السينما، وفيه ثبت تاريخي بجميع أفلامه علاوة على بعض المعلومات المثيرة، لا سيما أنه في السنتين الأوليين له كمخرج أخرج أكثر من اثنين وأربعين من أفلام الغرب الأمريكي. في ذلك الوقت لم تكن هناك مدرسة للسينما، ولكن أي مدرسة خير من حدة ذلك التدريب العملي على الأرض؟ شباب المخرجين اليوم لا يحصلون على فرصة أن يفشلوا، ويتطوروا تدريجيا من فيلم إلى فيلم. تكفي الواحد منهم سقطة، فإذا به خارج الملعب.

مرفق كذلك: نسخة مصورة من صورة لي وأنا في الخامسة في زي كرة القدم. عثرت عليها أمس بالمصادفة، وأنا أفتش في صندوق أو شيء من ذلك القبيل، فتذكرت أني كتبت لك عن ذلك الزي في رسالة سابقة. لاحظ كم يبدو الزي أصليا. لم تمسسه عشبة أو ذرة غبار. ومدى جدية التعبير المرتسم على وجهي. لا أعرف أي صبي على وجه الأرض كانه ذلك الصبي.

مع أدفأ وأفضل الأمنيات

بــول

٧ أبريل ٢٠١١

عزيزي بــول

شكرا على ما أرسلته من ملاحظات، ومادة، بخصوص وليم وايلر. هل شاهدت "ساعة الأطفال" (١٩٦٢) المأخوذ عن مسرحية لـ ليليان هيلمان؟ شاهدته حديثا للمرة الأولى ـ وذكرته في رسالتي الأخيرة ـ ورأيت أنه فيلم شجاع. أو بالأحرى، ولمزيد من الدقة، رأيتها شجاعة من وايلر أن يمرر ذلك الفيلم برغم حراس هوليود. (وكانت لتصبح شجاعة أكبر في تصوري لو تم إنتاجه في الخمسينيات).

ثمة متعة قصوى في مشاهدة صور الأبيض والأسود من الأفلام التي شاهدها المرء في شبابه (أو حتى في طفولته) في دور عرض رديئة يعمل فيها عارضون مهملون وآلات عرض فقيرة. نادر جدا مع الأفلام الملونة أن يرى المرء الأسود مستعملا بكل التدرجات النغمية التي يقدر عليها. من المؤسف أن يفكر المرء في عدم وجود جمهور لأفلام الأبيض والأسود الجديدة.

هل الأوليفيتي التي حصلت عليها أخيرا من تلك الآلات المسطحة التي تأتي في كيس قماشي بسوسته؟ زوجتي أحضرت إحداها إلى بيتنا

ضمن جهاز عرسها. وعليها كتبت أطروحتي لنيل الماجستير. ثم اشتريت لنفسي أدلر سنة ١٩٧٢، وهي آلة سويسرية ثقيلة لا يمكن التنقل بها وظللت أستعملها إلى أن ظهر الكمبيوتر والطابعات. ولا أريد أن أعود إليهما، ولكنني أشعر بالحنين لها مع ذلك. ولا تزال الآلتان لديّ في دولاب ما. والله أعلم من أين يمكن أن يشتري الواحدة أشرطة الحبر في هذه الأيام، ناهيك عن ورق الكربون.

تقول إنك مهيأ تماما لكتابة روايات يتحرك الناس فيها حاملين الأدوات الإلكترونية الشخصية. لا بد أن أقول إن هذا لا ينطبق عليّ. التليفون يوشك أن يكون أقصى ما يمكن أن أصل إليه في كتاب، وعلى مضض على فكرة. لماذا؟ ليس فقط لأنني لست مغرما بما آل إليه العالم، ولكن لأن الناس ("الشخصيات") لو كانوا يتكلمون طول الوقت مع بعضهم البعض من على البعد، فلا بد من التخلي عن نطاق كامل من الدوال والإشارات، اللفظية وغير اللفظية، الطوعية والقسرية، القائمة بين الناس. فالحوار، بكل ما تعنيه الكلمة، غير ممكن ببساطة عبر التليفون.

لم تخطر لي قط مسألة عدم وجود دليل عام لأرقام الموبايل. فلا بد أن ائتمان المرء شخصا آخر على رقمه بات يعني اليوم الشيء الكثير.

تأمل كل أفلام النوار القديمة تلك التي يستعمل فيها المحقق دليل التليفون ليتعقب هدفا. وقَطْعٌ على لقطة قريبة لصفحة في الدليل، حيث يظهر اسم حوله دائرة بالأسود.

١٨ أبريل

أعاني مشكلات في النوم منذ سنين. أعتبر نفسي محظوظا إذا نلت أربع ساعات بالليل، ومن هنا ففكرتي عن النعيم الآن هي أربع ساعات نوم متعاقبة.

من تبعات ذلك أنني أنعس بالنهار، أحيانا وأنا جالس إلى المكتب ـ غفوات قصيرة عن العالم لا تدوم في العادة لأكثر من ثوان معدودة لكنها قد تمتد في بعض الأحيان إلى خمس دقائق أو حتى عشرة.

اعتدت خلال تلك الهروبات أن أرى أكثر الأحلام إثارة: حلقات ذات حبكات صغيرة مقنعة، واقعية المواقف، والحوارات، وأشكال الأشياء. لا تبدو قائمة على الذكريات إطلاقا، بل على الإبداع المحض. لا فنتازيا فيها، ولا رعب أو خطر. أعتبرها تمرينا للحفاظ على لياقة الخيال، ارتجالات ذهن ذي أربعين عاما مثلا من ممارسة تصور المواقف. لا نفع لي فيها ـ فهي لا تتلاءم مع ما أكتبه ـ فلا جدوى إذن من تدوينها. ولكني راض بها، بل أستمتع بها وقت حدوثها، لولا أنها تخلّف في نفسي حزنا. يبدو مؤسفا أن أكون أنشأت في نفسي على مدار العقود هذه المهارة المعينة البسيطة وأن أظن أنها سوف تضيع، وتخسف، بذهابي. فهي مما لا يمكن توريثه.

أطيب أمنياتي

جــون

٢٢ أبريل ٢٠١١

عزيزي جــون

ستكون قد وصلتك ملاحظتي الصغيرة التي أخبرتك فيها أنني وسيري منطلقان إلى أوربا ولن نرجع قبل الثلاثين من مايو. فما أجمل أن تصلني أحدث رسائلك، في اللحظة الأخيرة.

لنبدأ بكلمة أخيرة عن وليم وايلر. الحقيقة أنه أخرج نسخة أسبق من "ساعة الأطفال" ترجع إلى سنة ١٩٣٦. وكانت تلك النسخة تحمل عنوان "هؤلاء الثلاثة". شاهدته في مرحلة ما في الماضي البعيد ولكنني لا أتذكر عنه أي شيء إلا أني اعتبرته جيدا. (أرفق لك وصفا من دليل للفيديو نرجع إليه أحيانا ونحن نشاهد الأفلام). سأحاول الوصول إليه بعد رجوعي. ولو حدث ووصلت إليه قبل ذلك فأخبرني برأيك. سيكون مثيرا أن نرى النسختين في مقارنة بين إحداهما والأخرى.

لا أريد أن أتدخل في شؤونك الخاصة، ولكن ما تقوله عن مشكلاتك في النوم يزعجني. فلو أنني كنت مكانك لأصابني الجنون. ماذا عن الأقراص، أو عيادات النوم، أو أي علاج آخر؟ ليس بوسع أحد

أن يستمر في ظل حالة دائمة من الإنهاك. يخطر لي أن الأمر قد تكون له علاقة برحلاتك المتواترة إلى أوربا وارتباك محاولة التواؤم مع فروق التوقيت المتغيرة، لا سيما وأنك تعيش في أستراليا البعيدة بعد الجحيم عن كل شيء. هل كانت لديك تلك المشكلة حين كنت تعيش في جنوب أفريقيا، أم بدأت فقط بعد انتقالك؟ لقد حكيت لسيري كفاحك هذا ـ بسبب محبتها الشديدة لك، وأيضا بسبب دراستها وكتابتها عن النوم ودرايتها به أكثر مني ـ فأصابها القلق. قالت إنها تريد أن تكتب إليك وتعرض عليك بعض الاقتراحات؟ فهل في هذا مشكلة؟

من ناحية أخرى، الأحلام القصيرة التي تتكلم عنها فاتنة، وأعتقد أنها شديدة الاستثنائية. ينزع أغلب الناس عند نعاسهم إلى الانتقال إلى عالم شبه الصحو/ شبه النوم الذي يرى فيه المرء بالمجان صورا جامحة ملونة، بل هي تِكْني كَلَرَز. قصصك أنت يبدو أنها بالأبيض والأسود (نفس الأبيض والأسود الذي نفتقده أنا وأنت في الأفلام المعاصرة)، وكونها خالية من الرعب والوحشية يجعلني أراها مقبضة تماما. ولكن من المؤسف أن تترك هذه الموهبة هدرا ـ هذه الموهبة الفريدة ـ فحتى إذا كنت تشعر أنك لا تستطيع "استعمال" قصصك الحلمية في العمل الذي تكتبه حاليا، فربما يأتي يوم يمكنك فيه أن تعالج هذه الظاهرة مباشرة في عمل روائي، أو مقالة، أو فيلم وهذا أفضل. أنا عن نفسي سأشاهده (أو أقرؤه) باهتمام واستغراق.

قبل يومين، تكشَّف لي كشف مذهل عن أثر مراسلاتنا عليّ. نحن نتراسل منذ قرابة ثلاث سنين، فأصبح لي في تلك الفترة ما أسميه بـ "الآخر الغائب"، أو ابن العم الكبير لأولئك الأصدقاء الصغار الخياليين الذين يبتكرهم الأطفال لأنفسهم. اكتشفت أنني كثيرا ما أسير متحدثا إليك في رأسي، متمنيا لو أنك كنت معي فألفت نظرك إلى الشخص ذي المنظر الغريب الذي مرّ بي للتو على الرصيف، وأعلّق لك على شذرة من حوار بلغت أذني، أو أصطحبك إلى محل السندوتشات الصغير الذي غالبا ما أشتري منه غدائي فتنصت معي إلى الأحاديث التي تجري هنا. أحب هذا المكان الخالي تماما من أي ادعاء، بزبائنه المتغيرين من رجال الشرطة والإطفاء، وعمال المستشفى القائم في الشارع والأمهات وأطفالهن والطلبة وسائقي الشاحنات والسكرتيرات، وما يجعل المكان خاصا هو الرجال العاملون وراء النضد، فهم شباب طيبو الأرواح ذوو أصوات بروكلينية بروليتارية، يبدو وكأنهم يعرفون كل من يدخل مكانهم ("تكلمت بالأمس مع والدتك"، "سمعت أن ابنك يبرع مع فريقه في دوري الصغار"، "حمد الله على السلامة. كيف كانت رحلتك؟") وكأنني أعيش في بلدة إقليمية صغيرة لا في حاضرة عملاقة وأعلم أنك سوف تقدّر الروح في ذلك المكان وتفهم (لو أنك لا تفهم بالفعل) لماذا أجد الحياة في نيويورك مثيرة للغاية. وهكذا أنت يا جون في رأسي وأنا أكلمك، ولم يحدث لي شيء من هذا القبيل قط ـ ربما لأنني لم أراسل أحدا بهذا الانتظام من قبل ـ وبوسعي أن أؤكد لك أن التأثير إجمالا تأثير رائع.

هناك عبارة تتردد في رأسي طوال الأسابيع القليلة الماضية: **أمل جديد للموتى**. هذا عنوان رواية شعبية قرأتها قبل سنين كثيرة (وهي رواية جيدة لأمريكي يدعى تشارلز ولفورد) وتصدَّرت وعيي بعد أن عرفت أن [إدجار لورنس] دكتراو نشر للتو كتاب قصص قصيرة جديدا ـ وهو في الثمانين ـ وحديثي مع [روبرت لويل] كوفر (في التاسعة والسبعين) عن خطبة بيكيت التي سوف يلقيها في أيرلندا خلال الخريف القادم، وتناولي العشاء مع [فيليب] روث (في الثامنة والسبعين) و[دون] ديليلو (في الرابعة والسبعين) واكتشافي أن كلَّ أولئك الذين يوصفون بالشيوخ في حالة جيدة، ومشغولون في مشاريع، ويلقون النكات، ويتناولون الطعام بشهية صحية، فبَثَّ ما رأيته فيهم وسمعته منهم الشجاعةَ في نفسي. أمل جديد للموتى يعني: أمل جديد لنا.

وإلى أن أرجع، لك مني
أمنيات بأطيب الأفكار

بــول

ملحوظة: نعم، أوليفيتي التي لديَّ كالتي تتذكرها بالضبط. صغيرة ومزودة بكيس قماشي له سوستة هو في حالتي كيس أزرق عليه شريط أسود من المنتصف.

٢٤ مايو ٢٠١١

عزيزي جــون

أكتب إليك من إيطاليا مستخدما آلتي الكاتبة الإيطالية القديمة الجديدة، جالسا في شرفة الطابق الأعلى في قلعة أقيم أنا وسيري فيها منذ أسبوع، مطلا على أفق من الكروم والتلال جميل جمالا استثنائيا. ما الذي فعلناه لنستحق كل هذا؟ منظمو المهرجان الصغير الذي سوف نشارك فيه يومي الجمعة والسبت هما اللذان عرضا علينا هذه الإقامة فقبلناها بلا تردد، ونحن لا ندري ما الذي نلقي أنفسنا في غماره، وإذا بكل شيء ينتقل من الحسن إلى الأحسن، بل الأحسن بكثير، بما يفوق ما كان يمكن أن نتخيله. نحن النزيلان الوحيدان في الفندق، وهو في حقيقته قلعة، وإن تكن قلعة حديثة العهد نسبيا (نحو ١٨٨٠)، هي ليست قلعة حقيقية [حربية]، بل بناء يحاكي قلعة، ولكنها مع ذلك تحفة معمارية أصلية، وبعد أسابيع من الخطو الثقيل في مدن شمال أوربا، يأتي هدوء هذا المكان (نوفيلو في تلال لانج في بدمونت) ليرحب بنا ويمنحنا حالة استرخاء ووداعة غير مسبوقة. لا التزام، ولا مبالاة. نكتب، ونقرأ، ونأكل، وكل يوم هناك شمس، وكل يوم أهدأ وأنعم بالشمس من سابقه.

بدأنا بعشرة أيام في باريس، لم يكن أمامي فيها غير العمل على كتابي ومقابلة الأصدقاء القدامى بينما سيري مشغولة انشغالا غير طبيعي مع الصحفيين (وقد صدرت روايتها للتو بالفرنسية) وبالعديد من الفعاليات العامة. حضرت كلمتها أمام جمعية باريس للمحللين النفسيين، وإدراتها لندوة صاخبة بالنشاط والجدال حول الصدمات والكتابة في السوربون (في لحظة، شمَّرت عن ساعديها وقالت: "أنا أحب الشجار حول الأفكار")، وإجراءها حوارا على خشبة مسرح في المكتبة الوطنية، ومشاركتها في حوار في مكتبة شكسبير آند كمباني مع كاتبة أخرى، وقد تم الترويج لهذا الحوار بعبارة: "أنا لا أقرأ الروايات لكن زوجتي تقرأها. فهل يمكن أن تهدي كتابك إليها؟" وأخيرا، قراءة مزدوجة ثنائية اللغة مع الممثلة مارثا كيلي. ثم إلى فيينا، حيث ألقت محاضرة سجموند فرويد المنتظرة أمام قاعة ممتلئة. كلمة رائعة، كلمة عبقرية، هي نتاج شهرين أو ثلاثة شهور من العمل القاتل، وكنت أنا جالسا وسط الجمهور والدموع تكاد تنفجر من عيني بينما ينصب التصفيق عليها. ثم سلكنا اتجاهين متقابلين لأربعة أيام، سيري إلى ألمانيا لقراءات في برلين، وهامبرج، وهايدلبرج وأنا إلى استكهولم حيث بدأت أعمل أنا الآخر بلقمتي. والتقت القوتان بعد ذلك في كوبنهاجن، وقد وعدْنا ناشرنا الدنماركي بحضور مهرجان ينظمه، خاصة وأن شركة ناشرنا هذا معلقة بشعرة، فرجونا أن يعطيها حضورنا دفعة، وظللنا نعمل بجد لمدة خمسة أيام، بل بمنتهى الجد، إلى أن وقعنا في النهاية من فرط الإنهاك.

عددت فعاليات سيري: أربع عشرة فعالية في تسعة عشر يوما، جدول غير إنساني، جعلتها تعدني بعدم تكراره لما بقي من حياتها.

الغريب أنني في ما يبدو أنهيت كتابي. فبعدما دخلت في حائط في نوفمبر الماضي مع الرواية التي كنت أحاول كتابتها (والتي حكيت لك عنها مسبقا)، توقفت لفترة، وبعد يومين من السنة الجديدة بدأت في شيء آخر: عمل سيري، مجموعة شذرات وذكريات، مشروع مثير للفضول يدور حول تاريخ جسدي، ذاتي الملموسة التي أسحبها الآن ورائي منذ أكثر من ستين عاما. وبعد قرابة مائتي صفحة أشعر أنني قلت ما فيه الكفاية، وبعدما تصفحته سيري بالأمس وختمت عليه بخاتم الموافقة، أجد نفسي عاطلا من جديد. لذلك أكتب إليك رسالة إضافية - لأنني أعيش في قلعة مصطنعة في إيطاليا ولا أعرف ماذا أفعل اليوم بنفسي. رسالة أخرى إذن لأملأ بها ساعات الصباح الوديعة هذه ولأشركك في نادرتين، أو جملتين تترددان في رأسي منذ بعض الوقت.

١. "كلهم يحسبون أن الأمر لا نهاية له"

في سبتمبر من كل عام يقام مهرجان للأفلام الأمريكية في دوفيل بفرنسا، للأفلام الجديدة التي سوف تعرض في البلدين خلال الخريف. لا أعرف كيف بدأ هذا المهرجان أو لماذا بدأ، ولكن هناك جائزة تعطى (أو كانت تعطى) كل عام لكاتب أمريكي عن مجمل أعماله. وتبيّن في عام ١٩٩٤ أنني المحظوظ، فلما قيل لي إن ميلر وستايرن هما اللذان فازا في السنوات السابقة، رأيت أنه شرف يستحق عبور الأطلنطي لنيله،

فمضيت أنا وسيري إلى مدينة دوفيل بنورماندي. وكان التواجد هناك جيدا في تلك السنة التي وافقت الذكرى الخمسين لإنزال قوات الحلفاء في نورماندي. وبمناسبة ذلك الحدث، دعا المهرجان العديد من أبناء جنرالات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وأحفادهم، ومن بينهم واحد من نسل ليكليرك وسوزان حفيدة أينزهاور. وقضيت أنا وسيري بعض الوقت برفقة سوزان أيزنهاور (وأحببناها كثيرا) ولما وجدنا أنها "خبيرة في الشؤون الروسية" وزوجة عالم من إحدى دول الاتحاد السوفييتي السابق، علمنا أن الحرب الباردة انتهت بالفعل. فها هي حفيدة أيزنهاور زوجة لعالم سوفييتي.

واحتفاء أيضا بالحدث، أقام المهرجان عروضا لأفلام عن الحرب العالمية الثانية ووجَّه دعوات لممثلين أمريكيين قدماء ممن شاركوا فيها. وهكذا التقينا بأشخاص مثل فان جونسن (أصم تماما) ومورين أوهارا (لا تزال على جمالها) ورودي مكدوال. وفي لحظة من العشاء الذي حضرناه مع أولئك النجوم الغاربة مالت أوهارا على مكدوال وسألته "رودي، منذ متى يعرف أحدنا الآخر؟" فقال مكدوال "أربعة وخمسين سنة يا مورين". كانا قد ظهرا معا في فيلم جون فورد "كم كان الوادي أخضر". مذهل أني كنت هناك، وحضرت ذلك الحوار.

من الذين حضروا في ذلك العام باد شولبرج. كنت قد التقيت به بضع مرات في أمريكا، وكانت صلته بأفلام هوليود تمتد في الماضي إلى أعمق مما تمتد إليه صلة أي شخص في دنيا الأحياء، بما أن أباه هو بي بي

شولبرج رئيس شركة بارامونت في العشرينيات والثلاثينيات، وبما أن باد شولبرج تعاون وهو في التاسعة عشرة من عمره مع سكوت فتزجيرالد على كتابة سيناريو. الرجل الذي كتب *On the Waterfront*، كاتب إحدى أفضل الروايات عن هوليود "ما الذي يحمل سامي على الجري؟"، وكذلك سيناريو آخر أفلام بوجارت "كلما ازداد سقوطهم عنفا" وهو فيلم ممتاز يدور في أجواء الملاكمة، رجل معقد - عضو سابق في الحزب الشيوعي نطق ببعض الأسماء أمام اللجنة البرلمانية للأنشطة غير الأمريكية [وهي كاللجنة المكارثية] في أواخر الأربعينيات أو أوائل الخمسينيات، ولكنه، حسبما قرأته، تحوّل عن الحزب بعنف شديد بعدما حاول التدخل في عمله وقدح في أعضائه بأحط الشتائم. ولكنني بصفة عامة لم أعرفه جيدا، كنا معارف عابرين في أفضل الحالات، ولكنني كنت أستمتع بالكلام معه في أمريكا، وأندهش دائما من براعته في الكلام برغم إعاقة خطابية مزدوجة (فهو يخطئ نطق السين والراء)، ثم إذا بنا في دوفيل سنة ١٩٩٤ نلتقي في بهو الفندق الذي كنا نقيم فيه، والذي كان يقيم فيه كل من له علاقة بالمهرجان (نجوم السينما، والمخرجون، والمنتجون، وشباب الممثلين والممثلات)، ولأن كلينا كنا في انتظار نزول زوجتينا للعشاء، فقد جلسنا معا على أريكة في البهو ومضينا في هدوء نستعرض حمى دخول المشاهير والأثرياء والجميلات وخروجهم. يندفع توم هانكس (وكانت تلك هي سنة فوريست جامب - وهو فيلم بشع في حالة ما لو شعرت برغبة في مشاهدته) تندفع نجمة صغيرة ساحرة بحاشيتها، يندفع آخرون كثيرون، وقد بدا عليهم جميعا سمت الواثقين،

الممتلئين إحساسا بأهميتهم، **فهم على قمة العالم**، بل كأن كل واحد فيهم **يمتلك العالم**، وبعد فترة التفت إليّ باد، باد ذو الثمانين عاما، الرجل الذي يشاهد أمثال أولئك الناس منذ أن كان طفلا، الرجل الذي عرف القمة وعرف القاع، الشيخ الحكيم الذي يخطئ في النطق، التفت إليَّ وقال " كلهم يحسبون أن الأمر لا نهاية له " .

٢ . "كانوا جميعا موتى"

ثالث شقيقات هوستفدت متزوجة من نحات يدعى جون كيسلر، وأنا وكيسلر صديقان جيدان منذ خمسة وعشرين عاما. صهران يتعاملان كأخوين لا كصهرين. والد عم جون، ويدعى بيرني كامبر، ومات قبل سنوات قليلة في مطلع التسعينيات من عمره، كان شخصية ساحرة، عمل وكيلا صحفيا لأفلام هوليود في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات، شخصية قديمة من زمن [الكاتب والصحفي] ديمون رانيون، كان ينطق لهجة نيويورك بطريقة اختفت تماما من على وجه الأرض، ولم يكن أحب إليه في شيخوخته من أن يشركنا في قصصه عن صوَلاته وجولاته في أيام الشباب. كان يبدو وكأنه عرف الجميع، من ريتا هيوارث إلى جو ديماجيو ومارلن مونرو وجورج بيرنز (الذي كان صديقه المقرب)، وبيرت لانكستر بصفة خاصة حيث عمل لحسابه في مشاريع عديدة. حكى لنا مرة فقال إن " بيرت كان شخصا جادا وكان يقرأ الكثير من الكتب الثقيلة. من نوعية بلوتو وأرسطو" (بلوتو ـ كلب الكارتون ـ وليس بليتو Plato [أي أفلاطون]). ومن أحب حكايات بيرني إليّ حكاية من أيام الحرب حينما كانت الولايات المتحدة والاتحاد

السوفييتي حليفين. كان مسؤول الترويج لفيلم رديء هو "ثلاث بنات من روسيا" وفي ليلة الافتتاح بمدينة كنساس توصّل إلى خطة لجذب حشد كبير إلى القاعة: كل من يتبرع بملء كوب من دمه لأصدقائنا الروس سوف يدخل بالمجان. ويحكي بيرني أنه وصل إلى القاعة متأخرا بعض الشيء، بعدما بدأ الفيلم، وفيما كان يقترب من المدخل، شاهد صاحب المسرح واقفا على الرصيف وقد اشتبك في مشادة صاخبة مع رجل. سأل بيرني ما الأمر فقال مالك المسرح الغاضب "أفكارك يا سيدي. هذا الرجل يريد استعادة دمه".

هكذا كان العم بيرني. ذات مساء قبل موته بسنتين، حكى لنا بيرني أنه كان يقرأ سيرة جديدة لجون إف كينيدي. ففرح واندهش حينما صادف في الكتاب إشارات إلى بيت دعارة شهير يرجع إلى الخمسينيات، ويبدو أن كينيدي كان يتردد عليه، وبيرني وأصدقاؤه أيضا كانوا يألفونه. وفي إثارة شديدة قرر أن يشرك أصدقاءه القدامى في هذه الفقرات، فتناول التليفون وبدأ يتصل، وكلما مضى في قائمته تبين أن أصدقاءه جميعا في موقف لا يسمح لهم بالرد. "كانوا جميعا موتى". عاش بيرني بعد جميع أصدقائه، فلما بقي وحده الواقف على قدميه، لم يعد هناك من يتكلم معه عن الماضي. كان يجعلني أفكر في واحد من أولئك الغرباء الأنثروبولوجيين الذين كنت أقرأ عنهم: آخر الأحياء من قبيلته، آخر من ينطق بلغة معينة، سوف تنقرض بموته.

أدفأ التحيات من أرض المستحيل

بـــول

٥ مايو ٢٠١١

عزيزي بــول

شكرا على رسالة الثاني والعشرين من أبريل. أرجو أن تكون رحلتك الأوربية جيدة.

تكتب أنني "الآخر الغائب" الذي تجد أنك تكلمه في رأسك. دعني أعترف لك اعترافا موازيا، ومختلفا بعض الشيء. لقد زرت بيتك كما تعلم ولم أر الشقة ـ على حد وصفك ـ التي تعمل فيها. بين الحين والآخر تتراءى لي في هذه الشقة، وهي في خيالي مطلية بالأبيض، جيدة الإضاءة، بلا شبابيك، غير بعيدة عن أماكن الحبس في أعمالك. وفي هذه الرؤى تكون جالسا إلى مكتبك وأصابعك مفرودة على الآلة الكاتبة التي تكون في هذه الحالة عتيقة بعض الشيء من طراز ريمنتن البدين (وفي بعض الأحيان يعلق شريط الحبر ويكون عليك أن تحرّكه، فثمة بقعة من الحبر الأسود ثابتة الآن على إبهامك). هنالك تجلس، الساعة تلو الساعة، ملفوفا في أفكارك.

وإذ أراك هذه الرؤية، أشعر تجاهك بحنان أخوي وتجاه شجاعتك العنيدة مهضومة الحق. وأعرف طبعا أن لك وجها عاما آخر ترتديه ـ وجه

الأديب محط الإعجاب. ولكنني أعتقد أن صورتك كسجين طوعي لدى ربة الإلهام أصدق. وتحدثني نفسي بأن العالم تحت قدميه، ولكن ها هو جالس في الثامنة والنصف من صباح كل يوم، لا يحاول فتح باب زنزانته، بل يبحث عن عقوبة يومه الجديد.

أعرف أن هراء رومانتيكيا كثيرا يقال عن حياة الكتابة، عن يأس مواجهة الصفحة البيضاء، ومكابدة الإلهام حينما يتمنّع، ونوبات الأرق التي لا يمكن التنبؤ بها أو الاعتماد عليها، والإبداع المحموم، وفقدان الثقة في النفس المؤلم الجامح، وما إلى ذلك. لكنه ليس هراء محضا، أم ماذا؟ الكتابة مسألة عطاء، وعطاء، وعطاء، دونما مقابل يذكر. أفكر في البجع الذي كان شكسبير مغرما به، ذلك الذي يشق صدره لصغاره فيطعموا من دمه (يا للفلكلور!). وهكذا أفكر فيك في ذلك المكان الموحش، تلقم الريمنتن فاغرة الفم نفسك.

أعترف أني أواجه مشكلة في ضبط مشهد محل السندوتشات الذي تصفه مع صورة الحرمان المتنسك. لكنني أرجع فأفكر، ربما حينما يتردد بول على محل السندوتشات، يجلس في ركن، صامتا، مجهولا، وينسل منه انسلال شبح بمجرد أن ينهي طعامه.

أمل جديد للموتى: ذلك عنوان عظيم. مؤسف أننا مسبوقان إليه.

أشكرك لانشغالك الكريم بأرقي. أتردد في أن أسمح لك أن تطلب من سيري الكتابة، لا لأنني أتصور أنها تفتقر إلى المعرفة المتخصصة، بل لأنني أشعر أنني تجاوزت إمكانية المساعدة. لقد قمت بسلسلة طويلة من

اللقاءات مع متخصصة في مشكلات النوم قبل سنتين. رأيت أنها عصرية للغاية، وقد وصفت لي نظاما غذائيا كان يمكن أن يفلح لو كنت أعيش حياة أكثر انتظاما، لو كنت كشخص أكثر صرامة. ولكنني في النهاية لم أملك مواجهة بؤس الاستيقاظ القسري في الثالثة صباحا يليه عنت محاولة البقاء مستيقظا طوال النهار وحتى ميعاد نومي في التاسعة أو العاشرة مساء. وعلى أية حال، ومثلما اضطرت المعالجة إلى الاعتراف، كان أي مكسب أحققه منذورا للضياع بمجرد أن أسافر إلى مناطق أخرى ذات توقيت مختلف ثم أعود مرة أخرى لأجده خربا تماما.

الغريب أنه يسهل عليّ النوم في أوربا الشرقية، التي تشترك في نفس التوقيت مع مسقط رأسي جنوب أفريقيا، أكثر مما يسهل عليّ في أستراليا. ربما، وحتى بعد تسع سنين، لا تزال أعضاء جسمي غير قادرة على التكيف مع النصف الآخر من الكوكب.

٣١ مايو ٢٠١١

شكرا على رسالتك الطويلة ذات النبرة السعيدة التي بعثتها من القلعة الإيطالية (في ٢٤ مايو). تسأل: ما الذي فعلته كي تستحق ذلك الحظ السعيد؟ الإجابة: هذه الحلقة الخاصة من الحظ الطيب تعويض عن حلقة مماثلة من الحظ التعيس أصابتك في وقت ما من الماضي، حلقة نسيت أمرها لأنه ليس من شيمك أن تسرّ الضغينة تجاه القدر.

أكملت إذن مائتي صفحة في تاريخ جسدك. يا لها من فكرة مثيرة، وكم أحسدك لا على أن الفكرة واتتك وحسب، بل وعلى أنك منحتها

لحما ودما، وهذا دائما هو الجزء الصعب. سأنتظر حتى أرى ما إذا كنت تتعامل مع جسمك جزءا جزءا أم تعامله وحدة واحدة.

طالما بدا لي مثيرا أنه في حين نفكر نحن البشر في أجسامنا كأجزاء ـ فأذرع وسيقان وما إلى ذلك ـ فإن الحيوانات ليست كذلك. في الواقع، أشك أن تكون الحيوانات تفكر في نفسها باعتبار أن "لها" أجساما بالأساس. فهي ببساطة أجسامها.

سأحضر مؤتمرا عن صمويل بيكيت في المملكة المتحدة الشهر القادم، ومن حماقتي أنني وافقت على إجراء حوار مسبق عبر البريد الإلكتروني مع أحد منظمي المؤتمر، حول علاقتي ببيكيت. فليس لدي ـ بحسب ما نكتشف أنا وهو ـ أي جديد أقوله عن بيكيت، بل وربما لا تكون بيني وبينه علاقة من الأساس. مؤكد أنني ما كنت لأكون الكاتب الذي أنا إياه لو لم يولد بيكيت أصلا، ولكن هذا ديْن ـ ولنسمه الديْن لعدم وجود لفظ أفضل ـ يحسن أن لا نتحقق منه. أفضّل ببساطة أن أحترم في صمت ضريح ص ب أو معبد ص ب (أنا الذي لم يزر قط مقبرة ص ب).

أطيب أمنياتي

جـــون

١٤ يونيو ٢٠١١

عزيزي جـــون

سعدت برسالتك.

ولكي أريح عقلك فقط، أنا لا أتناول الغداء في محل السندوتشات. وفي أغلب الصباحات، أمر به في طريقي إلى العمل، لأطلب شيئا آخذه معي، ثم آكله بعد عدة ساعات في شقتي الصغيرة، ويكون ذلك دائما في عزلة تامة. أما المحل فلا أبقى فيه إلا ما بين أربع دقائق وسبع، وباستثناء نوع السندوتش الذي أريده، نادرا ما أقول أي شيء لأي أحد. ولكن ما أكثر ما يرى المرء ويسمع في ما بين أربع دقائق وسبع.

وهم يعرفونني هناك (عامل أو اثنان على الأقل) بعدما ذكرت المكان في "حماقات بروكلن" وسرقت تعليقا قاله أحد العاملين هناك لسيري قبل عشر سنين. من الكتاب: "كنت أعتزم أن أطلب كعكة بالقرفة والزبيب [ريزان]، لكن الكلمة وقفت في حلقي فخرجت ريجان، وبلا أدنى تريث قال الشاب من وراء النضد: ليس لدينا كعك القرفة بالريجان لكن لدينا كعكة دقيق النيكسُن [بدلا من كعكة دقيق الشعير].

في مكان العمل في حقيقة الأمر شبابيك عديدة وقدر جيد من الضوء. والآلة الكاتبة ليست من طراز ريمنتن بل أولمبيا، ولكن الحبر على أية حال يلوث إبهامي كلما أغيّر الشريط، وروح المكان ـ إن لم تكن بيئته الفعلية ـ قريبة للغاية مما تتخيله. ولا، ما تقوله ليس هراء محضا، ولقد تأثرت، تأثرت بشدة في واقع الأمر، من فهمك لي بهذه الدرجة الجيدة لتعرف أن أهم جزء في حياتي هو الذي يجري في صمت ما بين هذه الجدران الأربعة. ربما في كلمة "الشجاعة" بعض المبالغة (فلم أر نفسي قط شجاعا) لكن هذا لا يعني أنني أنتقص من الفكرة.

لا أزال قلقا على مشكلات النوم لديك، والآن وقد رجعت منذ أسبوعين، ولا أزال أكافح كي أضبط نفسي مع توقيت نيويورك (أستيقظ في الخامسة من صباح كل يوم) بت على قناعة بأن ما تعاني منه هو حالة متطاولة من اضطرابات النوم الناجم عن السفر، بطول تسع سنين، أسوأ حالة اضطرابات في النوم بسبب السفر على مدار التاريخ. والعلاج الوحيد لها هو التوقف عن السفر لعام أو اثنين، والمكوث في أستراليا، والسماح لجسمك بالتكيف أخيرا مع مقتضيات الحياة في هذا المكان القصيّ. ولكن لديك الآن مؤتمر بيكيت في إنجلترا! (تقريبا كلما كتب أحدنا للآخر كان بيننا من يستعد للسفر). إذا لم تقدر على كبت دافعك إلى السفر إلى أوربا عدة مرات في السنة فلعل الحل (تراني أجرؤ على قوله؟ إنه يبدو بسيطا وبديهيا) أن تشدَّ الرحال وتنتقل للحياة في أوربا. حلٌّ منطقيٌّ ربما، لكن أرجع فأقول إن الحياة غير منطقية، ولا بد أن

تعيش حيثما تكون أسعد. في المقابل: لا بد أن تنام. مؤكد أنك لا بد أن تنام.

أما عن كتابي الجديد، فلا، ليس تشريحا لعضو بعد الآخر. هناك تقارير عن المتع والآلام (الجنس والطعام، مثلا، والمرض والعظام المكسورة) وفقرات مطولة عن أمي (التي بدأ جسمي في جسمها) وقائمة بجميع الأماكن التي عشت فيها (المساكن التي آوى إليها جسمي) وتأملات في التشوه، والموت، والخبرات التي كان يمكن أن تفضي إلى الموت لكنها لم تفض إليه . . .

إذ أفكر في الكتاب يخطر لي فجأة أنها قد تكون فكرة طيبة أن أقرأ منه في قراءتنا المشتركة في كندا في سبتمبر. ولا أكاد آتي على ذكر كندا حتى أفكر في البرتغال في نوفمبر. لقد تناولت الإفطار أخيرا مع باولو برانكو ـ الذي يقضي يومين في نيويورك ـ وقال إنه سيرسل إليك دعوة رسمية للمشاركة في لجنة التحكيم مرة أخرى. بسبب الأزمة المالية في البرتغال، كان هناك تساؤل عما لو كان المهرجان سوف يقام هذا العام، لكن باولو يؤكد لي أن المشكلات انتهت وأن كل شيء على ما يرام. أنا ذاهب، وسيري ذاهبة، وابنتي صوفي ذاهبة (لتغني)، وأرجو أن تكون أنت ودوروثي ذاهبين أيضا. ولتحترق اضطرابات النوم بسبب السفر. سيكون رائعا أن أقضي بعض الوقت معك هناك.

فصل آخر من ملحمة **أمل جديد للموتى** الجارية:

عاشت أم زوجتي الأولى [القاصة والمترجمة ليديا ديفيس] حتى بلغت المائة، أو ربما المائة وواحد. ولدت سنة ١٩٠٣، وكانت الصغرى بين ستة أطفال أو سبعة، أرتني ذات مرة صورة التقطت لها في عيد ميلادها الأول، صورة عائلية تضم أبويها، وأخوتها، وعماتها وأعمامها، وأبناء عمومتها، وجديها، وهي نفسها، طفلة صغيرة في حجر شخص ما. كان يقف في أقصى يسار الصف الخلفي شيخ أبيض اللحية. قالت لي إنه والد عمها وإنه كان في التسعين عند التقاط الصورة. وسرعان ما أجريت الحسبة في رأسي فعرفت أنه ولد سنة ١٨٠٥، قبل أبراهام لينكولن بأربع سنوات. كان ذلك سنة ١٩٦٧ حينما أمسكت تلك الصورة، ولا أزال أتذكر أثرها الطاغي عليّ. قلت لنفسي: "إنني أكلم شخصا عرف شخصا ولد قبل أبراهام لينكولن. مائة واثنان وستون عاما: غمضة عين! والآن بعد أربعة وأربعين عاما أقول لنفسي: مائتا عام وستة، غمضة عين!

صديقك أبدا

بـــول

٢٩ أغسطس ٢٠١١

عزيزي بــول

وقعت أخيرا على قصيدة لـ آيه آر أمونز منشورة بعد وفاته: يقول فيها إن الشيخوخة أيضا تشيخ، حتى العثور على جديد يمكن قوله في الشيخوخة يشيخ. لا أشعر بذلك على الإطلاق، برغم أنني في مثل عمر آمونز حينما كتب تلك القصيدة. لا تكف الأشياء عن التكشّف لي، أو الاتضاح على أقل تقدير. فما أراه أراه أوضح مما كنت أراه في شبابي. فهل ما بي ضلال؟

ليبيا على سبيل المثال. من كان يتصور أن يتركز انتباهنا لوهلة على أحداث هذا الركن المهمل من العالم! وكم هو جيد لإحساس المرء العام بالأشياء أن يرى أحد أخسّ طغاة العالم إذ يطاح به. الأمر وكأن الآلهة رتّبت جزءا من المسرح بما فيه صالحنا، لتطمئننا بأن هناك في نهاية المطاف عدالة في هذا الكون، وأننا إن انتظرنا بما يكفي فسوف تدور عجلة الحظ فإذا الرفيع ذو البأس يستوي بالتراب.

وبالطبع (من هنا تنفذ روح التشاؤم الأمونزي) بهجة شوارع طرابلس، شأن بهجة شوارع القاهرة، سوف تذوي إذ يسود الواقع بما فيه من رواتب لا تدفع، وقمامة لا تجمع، وضرائب تفرض، ولا شك أن النظام الذي سيحل محل القذافي سوف يكون مرتشيا فاسدا وربما دكتاتوريا مثله. ولكن على الأقل سيكون لدى أولئك الشباب الذين يجوبون الشوارع في سيارت تويوتا نصف النقل مطلقين الرصاص من الكلاشنكوفات في الهواء ما يتذكرونه لما بقي من حياتهم! أيام مجيدة! ربما ذلك أقصى ما في الثورات، ربما ذلك أقصى ما ينبغي أن ينتظره منها المرء: أسبوع أو اثنان من الحرية، من البهجة بما لدى المرء من قوة وجمال (وكونه محبوب كل البنات)، قبل أن تحكم الشيخوخة الرمادية قبضتها وتعود الحياة إلى عهدها الأول.

الدنيا لا تتوقف عن المفاجأة. ونحن لا نتوقف عن التعلم.

صديقك المحب

جـــون

عن المؤلفين

بول أوستر (١٩٤٧) روائي أمريكي ترجمت روايات كثيرة له إلى العربية، وجيه إم كوتزي (١٩٤٠) روائي وناقد من جنوب أفريقيا حصل على نوبل في الأدب، وترجمت روايات كثيرة له إلى العربية.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن المترجم

أحمد شافعي، كاتب ومترجم، من أعماله رواية "الخالق" (الكتب خان ٢٠١٣)، وديوان "وقصائد أخرى" (دار النهضة، بيروت، ٢٠٠٩) ومن ترجماته الصادرة عن الكتب خان "السامريون الأشرار" لهاجون تشانج (٢٠١٥)، و"كلنا نولد مصابين بالغثيان" لراسل إدسن (٢٠١٤) و"الباب الأزرق" لأندريه برينك (٢٠١٤)، و"قصص"، أليس مونرو (٢٠١٣).

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون:+٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩ - +٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨

بريد إليكتروني:info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني:www.kotobkhan.com



بول أوستر و جيه. إم. كوتزي من أهم الكُتاب في وقتنا المعاصر. كتب كلاهما أعمالاً روائية تعد من أبرز ما كتب في السنوات الأخيرة، وليس عمل أوستر الملحمي "ثلاثية نيويورك" ورواية "العار" لكوتزي إلا اثنتين فقط من تلك الروائع. وبين يدي القارئ العربي للمرة الأولي، "هنا والآن" حاويا فكر هذين الرجلين المدهشين في كتاب واحد.

برغم أن كوتزي وأوستر ظلا يقرآن أعمال بعضهما لسنوات، فإنهما لم يلتقيا إلا في فبراير٢٠٠٨ خلال مهرجان أدبي بأستراليا. ولم يمر وقت طويل حتى تسلم أوستر خطابا من كوتزي، يقترح فيه أن يبدأ الاثنان تبادل الرسائل بشكل منتظم لـ "نقدح، بإذن الله، شرر بعضنا" كما كتب كوتزي.

"هنا والآن" هو نتيجة هذا الاقتراح، حوار رسائلي بين كاتبين عظيمين أصبحا صديقين رائعين. وعبر ثلاث سنوات تناولت رسائلهما كل الموضوعات: الرياضة والأبوة ومهرجانات السينما والقضية الفلسطينية الإسرائيلية والفلسفة والسياسة والكارثة الاقتصادية والفن والزواج والعائلة والحب.

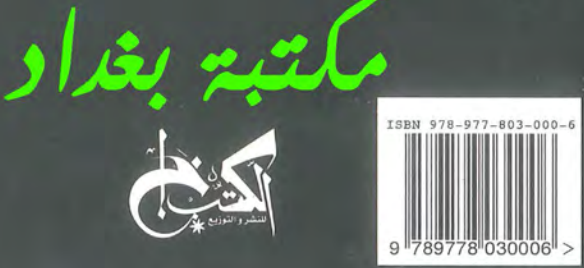
تبادل الرسائل هنا يمنحنا صورة شخصية حميمة وملهمة لهذين الرجلين وهما يسبران تعقيدات اللحظة، ويعكس فِكرين نابهين يبتهجان بصداقة بعضهما على كل صفحة

الناشر

بول أوستر، كاتبٌ وروائيٌ أمريكي، من مواليد ١٩٤٧، تمزج كتابته بين الوجودية، وأدب الجرائم، والبحث عن الهوية في أعمال مثل "ثلاثية نيويورك" و"كتاب الأوهام" و"حماقات بروكلن". تُرجِمت كتبه إلى حوالي أربعين لغةً.

جيه. إم. كوتزي، من مواليد ١٩٤٠، كاتبٌ وروائي ، ومترجمٌ، من جنوب إفريقيا، حصل على جائزة نوبل في الآداب لعام ٢٠٠٣.من أعماله، "عصر الحديد" و"العار" و"العدو" و"إليزابيث كوستلّو".

أحمد شافعي، كاتبٌ ومترجم مصري، ولد عام ١٩٧٧، وتخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب سنة ١٩٩٩. صدر له كتابان شعريان؛ "وقصائد أخرى"، و"طريق جانبي ينتهي بنافورة" وصدرت له روايتا "رحلة سوسو" و"الخالق"، من أعماله المترجمة "العالم لا ينتهي - تشارلز سيميك" و"قصص - أليس مونرو" و"كلنا نولد مصابين بالغثيان - راسل إدسن" و"السامريون الأشرار - هاجون تشانج".





ISBN 978-977-803-000-6
9 789778 030006 >